

مبارك الميلي



تاريخ الجزائر في القديم والحديث

الجزء الثالث




عاصمة الثقافة العربية

مبارك بن محمّد الميلي

تاريخ الجزائر
في
القديم والحديث

تقديم وتصحيح
محمّد الميلي

الجزء الثالث



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـــوال: 070 91.77.73

الميلي، مبارك بن محمّد
تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج3/ مبارك بن محمد الميلي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 392ص؛ 24سم
ردمك: 978-9947-833-07-0
الإيداع القانوني: 160-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 11-2007 دار الكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم



الكتاب الثالث

في العصر البربري



عرف البربر العرب أساتذة ماهرين مخلصين لا فاتحين غالبين يسوسونهم بالعسف ويسومونهم سوء العذاب ثم يمنون عليهم بأنهم تعبوا في تمدينهم أو يملكون عليهم أراضيهم ثم يسبونهم بأنهم لا يحسنون تعميرها.

ترقى البربر في ظل الحكومة العربية. ولكنهم أسرعوا بتطلب الاستقلال قبل قدرتهم عليه. وإنما بعثهم على ذلك ما بقي فيهم من عروق الفوضى ومنافسة قبائلهم بعضها لبعض. حتى إذا جاء الدور العبيدي أتموا دروسهم العملية في الحياة النظامية فأصبحوا قادرين على الاستقلال.

وفي القرن الخامس استقل البربر بوطنهم من غير كفران لفضل العرب فكانت حكومات صنهاجة معترفة بالسيادة العباسية أو الفاطمية. ثم ظهرت دولة الموحدين في القرن السادس فلم تعترف بالسيادة للفاطميين أو العباسيين إذا كانت دولتاهم يومئذ على فراش الاحتضار.

وكان عصر الموحدين هو شباب العصر البربري. اتحد فيه سكان المغرب اجمع تحت راية واحدة وبلغوا من حسن الإدارة وانتشار المعارف

ورقي الحضارة مبلغا عظيما ثم أخذ هذا العصر في الهرم. حتى غلب الإسبان على كثير من السواحل وجاء الأتراك فقضوا على ما بقي للبربر من استقلال. والحق أن البربر يومئذ ليسوا بأهل للحكم كما ان الأتراك ليسوا بأهل للسياسة.

كان مبتدأ العصر البربري في القرن الخامس ومنتهاه في القرن العاشر وحكم أثناء هذه المدة ست دول كبرى هي: دول بني حماد والمرابطين والموحدين والحفصيين وبني مرين وبني زيان.

ومعرفة انساب القبائل البربرية ومواطنها مما يعين على ما كان بينها في هذا العصر من ولاء وحلف أو عداء وسيف. فرأينا أن نعيد القول في ذلك بما يناسب هذا العصر.

وقد شاء الله أن يكون للعرب وجود جنسي في عصر البربر السياسي كما كان للبربر وجود جنسي في عصر العرب السياسي. غير أن بين الوجودين فرقا. فإن العرب مؤثرون في البربر في العصر العربي سياسيا ودينيا، وفي العصر البربري اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا أيضا. فلا جرم وجب ذكر العرب في هذا العصر وقد عقدنا للحديث عنهم بكل دولة فصلا. ولما رأينا كثرة أخبارهم في دول الحفصيين والمرينيين والزيانيين جمعناها في باب مستقل.

فاشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبواب:

الباب الأول في القبائل البربرية الجزائرية.

الباب الثاني في الدولة الحمادية.

الباب الثالث في دولة المرابطين.

الباب الرابع في الدولة الموحدية المؤمنية.

الباب الخامس في إخبار العرب لعهد الحفصيين والمرينيين والزيانيين.

الباب السادس في الدولة الحفصية.

الباب السابع في دولة بني مرين.

الباب الثامن في دولة بني زيان.

الباب الأول

في القبائل البربرية الجزائرية



تمهيد:

يقطن الوطن الجزائري من البربر زناتة وصنهاجة وكتامة وزواوة وعجيسة وازداجة ومسطاسة وبنو فاتن وبطون من لواته ونفزاوة وهوارة وزواغة ومكناسة ومصمودة ولمطة وأوربة، ومن هذه القبائل والبطون ما لها فروع في بقية المغرب. ومنها ما ينتسب في العرب القحطانيين أو العدنانيين انتسابا دعا إليه حب العرب لا ثقة الرواية بالنسب.

ولقد ذكرنا هذه القبائل والبطون في الكتاب الأول ثم ظهرت بطون وأفخاذ كان لها شأن في هذا العصر البربري. وتغيرت مواطن كثيرين منهم أما بهجوماتهم بعضهم على بعض كما فعلت صنهاجة بزناتة وأما بهجومات الهلاليين. فنبين في هذا الباب ما حدث من بطون وما تجدد من أوطان بما يناسب العصر البربري تاركين ما بعده إلى الكتاب الرابع ان أعان الله على بلوغه وإتمامه.

وقد رأينا أن نتبع ابن خلدون في أسلوب الحديث عن البربر. فنذكر كل قبيلة على حدة. فإن ذلك ادخل في البيان وانسب بالحياة البربرية

المستقلة قبائلها بعضهم عن بعض. وإذا كانت البطون صغيرة جمعناها في فصل لقلة الكلام عليها.

زناتة:

زناتة أشبه البربر حياة بالعرب لأن أكثرهم مواطنهم الصحراء. يتخذون بيوت الشعر للظعن. قال ابن خلدون: «**وكانت مكاسبهم الأنعام والماشية وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة وفي ظل الرماح المشرعة. وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع، نلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها فنأتي به. والسبب في ذلك أن اللسان العربي كان غالبا لغلبة دولة العرب وظهور المللة العربية. فالكتاب والخط بلغة الدولة ولسان الملك. واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماده. ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم. ولم تكن مخالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر حتى يشهدوا آثارهم لابعادهم في القفر وتوحشهم عن الانقياد. فبقوا غفلا إلى أن درس منهم الكثير ولم يصل إلينا بعد ملكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه ويتقراه في شعابه ويثيره من مكامنه**»1هـ.

وقد أخذت زناتة بالخارجية ثم فارقتها تدريجيا حتى لم يبق منهم عليها إلا القليل. وكانوا منقسمين سياسيا إلى ادريسيين ورستميين وأغلبيين. ولهم حروب مع جيرانهم صنهاجة، فلما ظهرت دولة بني عبيد والتهم صنهاجة، وعادتهم زناتة فاتسعت واجهة الخلاف بين القبيلتين.

وكانت رئاسة زناتة لمغراوة، ووفد أميرهم صولات بن وزمار على عثمان بن عفان (ض) فعقد له على قومه، قال ابن خلدون: «**فاختص صولات وسائر الأحياء من مغراوة بولاء عثمان وأهل بيته من بني أمية، وكانوا خالصة لهم دون سائر قريش، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس رعي لهذا الولاء**»اهـ.

ومظاهرة مغراوة وسائر زناتة لمروانية الأندلس إنما حدثت أيام بني عبيد، فالظاهر أن سببها منافسة صنهاجة، وقد تقوت صنهاجة ببني عبيد على أعدائها الأقدمين، فنالت منهم قتلا وجلاء، وكانت نكبتهم على يد بلقين بن زيري سنة **369**، قال ابن خلدون: «**دوخ بلقين في هذه السنة المغرب، وانكفأ راجعا، ومر بالمغرب الأوسط، فالتحم بوادي زناتة ومن إليهم من الخصاصين، ورفع الأمان على كل من ركب فرسا أو أنتج خيلا من سائر البربر، ونذر دماءهم، فأقفر المغرب الأوسط من زناتة، وصاروا إلى ماوراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلا ما كان من رجوع بني يعلي بن محمد إلى تلمسان وملكهم إياها**»اهـ.

وقد لحق كثير من زناتة بالأندلس في العصرين العربي والبربري، وضربوا هنالك مع ملوك الطوائف بسهم، وكان منهم جيش عظيم للغزو أيام بني الأحمر بغرناطة.

وكان منهم جراوة قوم الكاهنة ذوي سلطان، ثم انقضى أمرهم لاول الفتح، ومنهم مغراوة صولات بن وزمار جد بني خزر، واستمر سلطانهم إلى أن غلبتهم صنهاجة، فنزحوا إلى المغرب الأقصى، وأسسوا إمارات بتلمسان وفاس وسجلماسة واغمات قضى عليها المرابطون، وأسسوا أيضا إمارة بطرابلس. قضى عليها الزمان وتجدد لهم ملك بشلف في العصر البربري ومنهم يفرن قوم صاحب الحمار ويعلي بن محمد بن صالح مؤسس مدينة افكان. ولبنيه دولة بالمغرب الأقصى قبل ظهور المرابطين. ومنهم بنو يلومي وبنو ومانو. كان لهم شأن في العصر البربري. وهذه طبقة أولى عند ابن خلدون.والطبقة الثانية هم بنو مرين ملوك فاس وبنو عبد الواد ملوك تلمسان. وبنو توجين أصحاب وانشريس.

وأشهر قبائل زناتة جراوة ويرنيان ووجديجن وواغمرت وورقلة ودمر وبنو ومانو وبنو يلومي ويفرن ومغراوة وواسين وحديث نسب زناتة إلى البربر أو قحطان أو عدنان وما للناس في أنساب قبائلها وأفخاذها حديث يطول جلبه وتضعف جدواه وقد أطال في ذلك ابن أبي زرع وابن خلدون.

جرواة كان موطنهم بأوراس ثم انتشر عقدهم فأكلتهم القبائل. وكانت طائفة منهم بنواحي ملوية سميت بهم مدينة هناك كانت للعلويين. ولم يكن لهم ذكر في العصر البربري.

يرنيان. متفرقون في مواطن زناتة. وجمهورهم على وادي ملوية مجاورين لمكناسة. ثم اختلطوا ببني مرين لما ظهرت دولتهم.

وجديجن. كان جمهورهم بمنداس شرقي يفرن وشمال لواتة وغربي مطماطة، ونكحت منهم امرأة في لواتة، فعيرها نساؤهم بالفقر، فتذمرت إلى عنان أمير وجديجن، فغضب لها، واستجاش أحلافه، فنصره يعلي بن محمد اليفرني وكلمام في مغيلة وعزانة في مطماطة وفي بعض نسخ ابن خلدون غرابة، وكانت حرب مات فيها عنان، وغلب وجديجن لواتة. فملكوا عليهم السرسو. وذلك أيام العبيديين، ثم غلبهم على مواطنهم بنو يلومي وبنو ومانو، فلم يكن لهم ذكر في العصر البربري.

واغمرت وتدعى أيضا غمرت، جمهورهم جنوب صنهاجة فيما بين الدوسن ومشنتل. ثم غلبهم العرب على السهول فاعتصموا بالجبال قبلة المسيلة وصنهاجة وقعدوا عن الظعن. ثم صاروا في إقطاع الذواودة.

ورقلة وتدعى أيضا ورقلان. موطنهم بالصحراء جنوب الزاب. ولهم المصر المعرف بهم إلى اليوم. ومعهم جمع من بني زنداق ونزل عليهم كثير من زناتة لما أجلاهم عنه الهلاليون.

دمر. من أوسع بطونهم بنو ورنيد. ومن ورنيد بنو ورتاتين وبنو تفورت وبنو برزال.وكان بنو برزال بجبل سالات من ناحية بوسعادة.

وبقية ورنيد بصحراء تلمسان إلى سعيدة. وتغلب عليهم بنو راشد. فانقبضوا إلى الجبل المضاف إليهم المطل على تلمسان. ولم يكن لدمر كبير شان في العصر البربري.

بنو ومانو. كانوا بالعدوة الشرقية من مينة إلى أسافل شلف. وظهر أمرهم بعد إجلاء صنهاجة لمغراوة. فكان لهم ذكر أيام الحماديين. وبعدهم تغلب عليهم بنو عبد الواد. وبنو توجين. فازدردهم القبائل.

بنو يلومي. كانوا مجاورين لومانو غربا منافسين لهم إلى أن غلبهم بنو توجين على موطنهم. فتفرقوا أوزاعا في القبائل.

يفرن. كان منهم بالجريد بنو واركو ومرنجيصة. وغلب عليهم بنو هلال وسليم. فاستكانوا للحفصيين. ومنهم فريق بالزاب. اجلاهم الهلاليون إلى ورقلة وغيرها. وجمهورهم بالمغرب الأوسط من نواحي تلمسان إلى تيهرت إلى جبل راشد وغلبتهم صنهاجة. فلم يكن لهم شان بالجزائر البربرية.

مغراوة. مساكنون لبني يفرن. وبينهم منافسات فمنهم بالزاب. وجمهورهم بالمغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة. وبطونهم كثيرة. منها بنو زنداق بالحضنة حول مقرة. ومنها بنو ورا بشلف. ومنها الأغواط فيما بين الزاب وحبل راشد. ولهم مدينة لم تزل إلى اليوم تسمى بهم. ذكرت في عهد بني عبيد وهي التي الفنا بها الكتاب. قال ابن خلدون: «**وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب»1هـ.**
والمحقق عند أهلها وإعرابها أن الهلاليين تغلبوا على أطراف مدينتهم. وبها

بستان يعرف اليوم باسم هلال. وبجبل كسال طائفة معروفة اليوم باسم غواط كسال لم يذكرهم ابن خلدون. ومنها ريغة بعضهم بجبل عياض إلى نقاوس. تغلب عليهم العرب، وبعضهم بوادي ريغ لهم على عدوتيه قصور كثيرة وفلاحات متنوعة، خرب جلها ابن غانية، ومن تلك القصور تقرت، ومنها سنجاس بالجريد والزاب وأرض مشنتل وجبل كريكرة وجبل راشد وشلف، وقد تغلب عليهم الهلاليون، فاستكانوا للدول، ومنها بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو يلنت وبنو بوسعيد، وكلهم بشلف.

واسين، كانوا ينتقلون فيما بين الزاب وسجلماسة صحراء وتلا، ومن بطونهم بنو راشد بالجبل المضاف إليهم وغلبوا مديونة وبني ورنيد على بسائطهما، ثم تغلب عليهم العمور، فبقي بعضهم مساكنا لهم بالجبل، ومنها بنو مرين وأفخاذهم كثيرة، ولي الملك منها بنو وزيرير فخذ بني عبد الحق وبنو واطاس. واختصوا بعد الملك بالمغرب الأقصى. ومنها بنو بادين. وأفخاذهم كثيرة منها بنو عبد الواد بعضهم بأوراس. وجمهورهم أقطعهم الموحدون بلاد بني ومانو. ثم ملكوا تلمسان. ومن فصائلهم بنو ياتكبن وبنو ولو وبنو مطهر وبنو يكزيمن وبنو د لول وبنو كمي وبنو طاع الله قوام يغمراسن بن زيان مؤسس دولة تلمسان. ومؤرخو دولتهم ينسبون بني القاسم في الأدارسة. قال ابن خلدون: **«وهو زعم لا مستند له إلا إتفاق بني القاسم هؤلاء عليه مع أن الأبدية بعداء عن معرفة هذه الأنساب. والله أعلم بصحة ذلك وقد قال**

يغمراسن بن زيان لما نسبوه إلى إدريس، برطانتهم ما معناه: فان كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله واما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا»اهـ.

ومن أفخاذ بادين بنو توجين كانوا منافسين لبني عبد الواد وتقدموا إلى التل فانبثوا في السرسو ووانشريس إلى لمدية شرقا وسعيدة وجبل راشد غربا. ثم غلبهم الهلاليون على ما عدا جبل وانشريس. ويجمع فصائلهم جذمان احدهما سرغين وفي بعض نسخ ابن خلدون بدل سرغين رسوغين منهم بنو يرناتن بجبل يغودو نواحي نهر واصل وبنو منكوش وبنو تيغرين بوانشريس.ومن تيغرين أولاد عزيز بن يعقوب. وثانيهما مدن منهم بمنداس بنو مادون وبنو قاضي بالقاف في ابن خلدون ولعله ماضي ومنهم بنواحي فرندة بنو يد للتن.

قال أبو راس: **«وبلغني عمن رأى تأليفا في ذكر بني بادين ان توجين اثنان احدهما بالواو بعد التاء شريف والآخر زناتي والذي أعرفه من بطونهم بنو ازندار وبنو وكبمار. ومنهم فرقة كبيرة بأرضهم. الأولى إزاء جبل راشد»اهـ.**

ومن أفخاذ بادين مصاب بالوطن المعروف بهم المدعو اليوم مزاب والزاي والصاد متقاربان. وفي اللسان البربري حرف يقرب مخرجه من مخارج الزاي والصاد والسن. فيختلف النطق به عند التعريب. وصاحب الترجمان المعرب من قبيلة صيان بالمغرب الأقصى يدعونه الصياني والزياني.

قال ابن خلدون: «**وقصور مصاب سكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن انضاف إليهم من شعوب زناتة، وان كانت شهرتها مختصة بمصاب**»**اهـ**.

وبنو عبد الواد الذين بمزاب من بني مطهر بن يمل بن يزقن بن القاسم. وقال أبو راس بمزاب لماية واخلاط من صنهاجة وغيرهم.

صنهاجة:

صنهاجة بكسر الصاد وقد تضم. قال ابن خلدون: «**هم أكثر أهل المغرب لهذا العهد. لايكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر**»**اهـ**.

وكانوا فيما بين زناتة وزواوة، وانحدرت منهم أمة إلى الجنوب في أزمنة قديمة، فكثروا بالصحراء جنوب المغرب حتى عمروا ما بين غذامس شرقا ونول غربا والسودان جنوبا، وتشعبت بذلك صنهاجة إلى شعبي عظيمين بقي أحدهما بالجزائر واستوطن الآخر الصحراء، وهم الملثمون، واختلفت حياتهما باختلاف الموطن.

فأما صنهاجة الجزائر فهم أهل مدر من مدنهم أشير ولمدية ومليانة ومتيحة والجزائر، أسلموا لأول الفتح، ودان بالخارجية بعضهم من مجاوري زناتة، ثم فارقوها قال ابن خلدون:

«ولصنهاجة ولاية لعلي بن أبي طالب كما ان لمغراوة ولاية لعثمان بن عفان رضي الله عنهما، الا أنا لانعرف سبب هذه الولاية ولا أصلها»1هـ.

وقدمنا البحث معه في ولاية مغراوة. ونرى أن ولاية صنهاجة لعلي سببها نزول أبنائه بينهم وكونهم آل البيت، وأما أخذهم بدعوة بني عبيد فإنما كان منافسة لزناتة الثائرة عليهم. على أن الإمارات العلوية كان سقوطها على أيديهم.

ومن بطونهم تاكلة قوم زيري بن مناد. ومنهم فريق بجهات بجاية ولمدية بفتحتين فكسرة فياء مشددة أهل المدية المعروفة إلى اليوم بهم، وبنو مزغنة أهل مدينة الجزائر، وبنو خليل ومتنان وبنو جعد وبطوية وبنو ايفاون.

وظهرت منهم دولتا بني باديس وبني حماد، ولحق بعض أبناء زيري المخالفون على إخوانهم بالأندلس. واستولوا على غرناطة حتى غلبهم عليها المرابطون، ثم غلب الموحدون صنهاجة على أمر المغرب وغلبتهم بطون من هلال على مواطنهم فانحصروا بالجبال.

وأما صنهاجة اللثامية فمن أشهر قبائلهم لمتونة ومسوفة وقدالة، وهم أهل شعر ظواعن، قال البكري: «**وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب لاتبدوا منه الا محاجر العينين ولا يفارقونه في حال من الأحوال حتى ان الرجل لايعرف وليه وحميمه الا إذا تنقب، ولو زال قناع قتيل لم يعرف حتى يعاد عليه القناع، وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا ويصب عليه السمن أو الشحم المذاب، وشرابهم اللبن أغناهم عن الماء فلا يشربه احدهم الأشهر. وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة»1هـ.**

وكانوا وثنيين، وأسلم بعضهم على يد عقبة بن نافع، ولم يعمهم الإسلام إلى القرن الثالث، ولكنه إسلام اسمي، ولم يأخذوا به حقيقة وعملا الا في القرن الخامس على يد عبد الله بن ياسين الجز ولي.

وكان منهم أمراء، ولهم في جهاد السودان مواقف ثم ظهرت منهم دولة المرابطين دولة الدين والعدل. وذهبت على يد الموحدين. وبقايا الملثمين يعرفون اليوم بالتوارق. ومر علينا بالأغواط سنة **1348** بعض رؤسائهم. فرأينا لثامهم على ما وصف به أسلافهم.

كتامة وزواوه:

يميل ابن خلدون إلى أن زواوة بطن من كتامة، فرأينا جمعهما في فصل فأما كتامة فشعب عظيم. كانوا من لدن الفتح معتزين بكثرتهم لايسومهم الأمراء بهضيمة إلى أن ظهرت الرافضية بالمغرب. فدانوا بها.

وملكوا المغرب باسم بني عبيد ثم مصر والشام. واختطوا القاهرة. ولهم بها حارة مضافة إليهم. ذكرها السخاوي في تحفة الأحباب. وظهر منهم أمراء عظام مثل حباسة بن يوسف أمير برقة وقائد الأساطيل العبيدية، والحسن بن أبي خترير أمير صقلية، وماكنون بن ضبارة أمير طرابلس، وجعفر بن فلاح أمير الشام وفاتحه، وبني لقمان أمراء قابس وفي أحدهم يقول الشاعر:

لولا ابن لقمان حليف الندى سل على قابس سيف الردى

ثم انتقل الأمر من أيديهم إلى صنهاجة. وجاء الهلاليون فساكنوهم في كثير من النواحي مثل عنابة وقالمة وجنوب قسنطينة. ففارقهم الملك وأكلتهم الأوطان وبقيت منهم بقايا ذات سيادة بوطنها في العصر البربري حتى استولت عليهم مصمودة والحفصيون. وانتقل بعضهم إلى المغرب الأقصى ونزل فريق منهم نواحي دلس من وطن زواوة.

قال ابن خلدون: «**وبقي في مواطنهم الأولى بجبل أوراس وجوانبه بقايا من قبائلهم على أسمائها وألقابها. وآخرون تغير لقبهم. وكلهم رعايا معبدون للمغارم الا من اعتصم بقنة الجبل مثل بني زلدوي بجبلهم وأهل جبال جيجل»1هـ.**

ومن بطون كتامة سدويكش وبنو تليلان وبنو يستيتن وهشتيوة ومسالته وبنو قنسيلة في بطون كثيرة يجمعها جذمان هما غرسن ويسودة.

وعد ابن خلدون من بطون يسودة فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن وعد من بطون غرسن مصالة وقلدن وما وطن ومعاذ ويناوة وينطاسن وأيان.

ومن يناوة لهيصة وجيملة ومستالتة. ومن ينطاسن لطاية واجانة وغسمان وأوفاس. ومن أيان ملوسة. ومن ملوسة بنو زلدوي. ومن سدويكش كايازة وسقدال وبنو عياد وبنو سقين وسيلين وطرسون وطرغيان وموليت وبنو لماي وبنو زعلان والبويرة وبنو مروان ووار مكسن وأولاد سواق. ومن سواق أولاد علاوة وأولاد يوسف. ومن يوسف بنو محمد وبنو المهدي وبنو ابراهيم والعزيزيون نسبوا إلى أمهم تاعزيزت.

وسدويكش يكسبون الإبل والخيل والبقر.وينتقلون ببيوتهم في البسائط ما بين قسنطينة وبجاية. وينتسبون في سليم من بطون مضر، ونقل ابن خلدون أنهم من كتامة. وأيده بكون موطنهم من مواطن كتامة. ويقويه عندي كون بعض بطونهم لم تزل لغتها حتى اليوم بربرية.

ولم يذكر ابن خلدون في بطون كتامة من البطون المعروفة اليوم بفرجيوة ولا ذكر من سكان الجبال بين السكيكدة وجيجل غير بني تليلان. وهناك من هم أكثر منهم مثل بني وألبان وبني تفوت وبني خطاب وبني يدر. فأما ان تكون تلك البطون لا شأن لها لعهده وإما أن يكون أهملها لقلة خبرته بتلك الجبال فانه لم يحدثنا عنها لا بقليل ولا بكثير. واسم خطاب معروف منذ القرن الثالث. فقد ذكر اليعقوبي في مراسي ميلة قلعة خطاب. ويقول الشيخ عبد القادر الراشدي في رسالة له ان

تفوت أصله تفورت حذفت راؤه، وهو محض غلط فان تفورت فخذ من دمر إحدى بطون زناتة. ولم يدخل على كتامة في تلك الجبال غير العرب.

وأما زواوة فكانوا ممتنعين بجبالهم إلى أن أسس بنو حماد بجاية. فانقادوا لهم قال ابن خلدون: «**واتصل إذعانهم إلى هذا العهد**». وكان لهم مرسى قبل بجاية كعاصمة تجارية تأتيها القوافل برا وسفن الأندلسيين بحرا. وسيادتها في فراوسن وايراتن بطنان فيما بين بجاية ودلس. ورئاسة ايراتن في بني عبد الصمد لم تزل فيهم لعهد ابن خلدون. وعلى حصانة موطنهم نفذ إليهم الهلاليون وغيروا من مراكز بطونهم بعض التغيير. وفيهم بيوتات من آل البيت. ومن بطون زواوة بنو مجسطة ومليكش وبنو كوفي ومشدالة وبنو زريقف وبنو قزيت وكرسفينة ووزلجة وموجة وزقلاوة وبنو مرانة وبنو جناد وبنو واقنون وفراوسن وايراتن وافليسن واعزوزن. وقيل أن مليكش من صنهاجه .

قال ابن خلدون: «**ومن قبائلهم المشهورة لهذا العهد بنو يجر وبنو منقلات وبنو يترون وبنو يني (وفي بعض النسخ بنو ماني) وبنو بوغردان وبنو يتورغ وبنو بويوسف وبنو عيسى وبنو بوشعيب وبنو صدقة وبنو غبرين وبنو كشطولة**»1هـ.

وبنو غبرين كانوا بجبل الزان. وانتقلوا بعد ابن خلدون إلى جنوب تمقوت قاله بوليفة في كتاب «**جرجرة**» المؤلف بالفرنسية. وعليه اعتمدنا في تصحيح إعلام البطون المذكورة.

لواتة ونفزاوة:

لوا الأكبر بن زحيك بن مادغيس الأبتر له ولدان هما نفزاوة ولوا الأصغر، فمن ولد نفزاو نفزاوة وإخوانهم بنو لوا الأصغر اختصوا باسم لواتة.

فأما لواتة فكانوا ظواعن. ولهم في الخارجية مواقف وفي الحرب بني عبيد مقامات. فأكلتهم الحروب. وأغرقهم سيل الهلاليين فلم يكن لهم في العصر البربري كبير ذكر.

ومن بطونهم صدراتة بنواحي بسكرة ومزناتة بنواحي باغاية وبلزمة وغيرهما. ومن مزاتة محيحة بحائين أو جيمين ودكمة في أفخاذ استوعبها ابن خلدون. ومنعني من نقلها ضعف الثقة برسمها. ويعزف باسم لواتة ثلاث فرق:

الأولى بأوراس. وهم بنو سعادة وبنو ريحان وبنو باديس ويدهم هي العالية على من هناك من هوارة وكتامة. قل ابن خلدون: «**تبلغ خيالتهم ألفا وتجاوز رجالاتهم العدة**». ثم غلب عليهم الهلاليون. فصار بنو سعادة في إقطاع أولاد محمد من الذواودة ومن جملة رعاياهم. ودخل بنو ريحان

وبنو باديس في طاعة ابن مزني صاحب بسكرة. ولبني باديس اتاوة على بنو نقاوس يقتضونها إذا انحدر الأعراب إلى مشاتيهم. فإذا رجع الأعراب إلى مصايفهم انقبضوا إلى جبلهم.

الثانية قبلة تاهرت ظواعن على وادي مينة يبلغون شرقا إلى جبل يغود. يقال ان بعض امراء القيروان نقلهم معه في غزوة وأنزلهم هنالك. وكانت لهم حروب مع وجديجن وزناتة إزاحتهم عن مواطنهم إلى جبل يغود وجبل درق (**بشد الراء**) وانتشروا من هنالك إلى الجبال المطلة على متيجة. قال ابن خلدون: «**وهم لهذا العهد في عداد القبائل الغارمة. وجبل دراق في إقطاع ولد يعقوب بن موسى مشيخة العطاف من زغبة»1هـ.**

الثالثة بنواحي بجاية. قال ابن خلدون: «**ينزلون بسيط تاكرارت من أعمالها ويعتمرونها فدنا لمزارعهم ومسارح لأنعامهم. ومشيختهم لهذا العهد في ولد راجح بن صواب منهم وعليهم للسلطان جباية مفروضة وبعث مضروب»1هـ.**

وأما نفزاوة فكانوا أيضا خوارج. وخضدت الدول شركتهم. وزاحمه الأعراب في مواطنهم فافترقوا في القبائل. ولم يكن لهم في العصر البربري كبير شأن.

وأشهر مواطن نفزاوة جنوب قسنطينة غربي الجريد يتصلون بالرمال. قال اليعقوبي: «**ولهم عدة مدن عظماها التي ينزلها العمال يقال**

لها بشرة»اهـ. ولهم بطون في جميع أقسام المغرب منها غساسة بنواحي مرسى مليلة وزاتيمة بساحل برشك وزهيلة بنواحي بادس منهم في عهد مشيخة ابن خلدون أبو يعقوب البادسي المشتهر بالولاية وسوماتة بنواحي القيروان منهم منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر بقرطبة ومرنيسة لا يعرف لهم موطن ومنهم أوزاع بين أحياء العرب بإفريقية. ومنها مجرة وورسيف ومكلاتة لا يعرف لهم موطن. ومنها ولهاصة وهي ذات أفخاذ منها ورفجومة وورتدين ومن ورفجومة زكولة وزجالة.

وتعرف بولهاصة أمتان أحدهما بساحل تلمسان مجاورة لكومية اندرجت فيها، والأخرى ببسيط بونة استعربت في زيها ولغتها وسائر شعائر العرب، قال ابن خلدون: **«وهي في عداد القبائل الغارمة، ورئاستهم في بني عريف منهم (وفي بعض نسخة عريض) وهي لهذا العهد في ولد حازم بن شداد بن حزام بن نصر بن مالك بن عريف (وفي بعض النسخ عريض أيضا)، وكانت قبلهم لعسكر بن بطان منهم»اهـ.**

وورفجومة افترقوا بعد ركود ريح الخوارج اوزاعا في القبائل، وبقي من زجالة منهم فرق بمرجانة وهنالك قرية ببسيطها تنسب إليهم، وكان منهم محمد بن سعيد الزجالي من كتاب بني أمية. وداعبه بعض الوزراء فأجابه بما أحفظه. فشكاه الوزير إلى الحاجب عيسى بن شهيد. فقال له الحاجب في ذلك. فانشده:

وما الحر الا من يدين بمثل مـــــا

يدان، ومن يخفي القبيح وينصف

همو شرعوا التعريض قذفا فعندما

تبعنا همو لاموا عليه وعنفــــوا

بنو فاتن:

كان بنو فاتن منهم الظاعن الراحل والقاطن المقيم. ودانوا بالخارجية. ثم فارقوها بعد ظهور الأدارسة لا سيما بعد سقوط الدولة الرستمية. ونزح كثير منهم إلى الأندلس، ولم يكن لهم كبير ذكر في العصر البربري ما عدا كومية من بطونهم. فقد ظهر منها عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية المؤمنية دولة العلم والنظام.

وبطونهم هي مطغرة وكومية ومديونة ومغيلة وملزوزة وكشانة ودونة وصدينة ومطماطة ولماية.

فأما مطغرة ويعرفون بالمداغر فجمهورهم بالمغرب الأقصى ويتصلون شرقا بكومية واندمجوا فيها منذ ظهور الدولة الموحدية ومنهم جنوب تلمسان بفقيق امة في قصور متقاربة أئتلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران ضاح من ظل الملك. ورئاستهم في بني سيد الملك منهم. وفي شرقيها على مراحل منها قرى أخرى متتابعة متصاعدة قليلا إلى الشمال آخر جنوب جبل راشد على مرحلة منه. وهي في مجالات بني

عامر من زغبة. وشرقي هذه القصور على خمسة مراحل القليعة يعتمرها رهط منهم ومنهم أوزاع في أعمال المغرب الأوسط وإفريقية.

وأما كومية فثلاث بطون هي: ندرومة وصغار وبنو يلول. وأفخاذهم كثيرة منهم بنو عابد قوم عبد المؤمن بن علي، قال ابن خلدون: «**فمن ندرومة نفوطة وحرسة وفردة وهفانة وفرانة، ومن بني يلول مسيفة ووتيوة وهبيشة وهيوارة ووالغة، ومن صغار ماتيلة وبنو حباسة**»**1هـ**. ومواطنهم سيف البحر من ناحية ارشقول وتلمسان.

قال صاحب المعجب «**وكومية كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن لها في قديم الدهر ولاحديثه ذكر في رياسة ولاحظ من نباهة، وإنما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع فأصبحوا اليوم بكون عبد المؤمن منهم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب**»**1هـ**.

وكان الخليفة عبد المؤمن غريبا بين قبائل المصامدة. فنقل من كومية إلى مراكش في دفعة واحدة أربعين ألف فارس. قال ابن خلدون: «**وأكلت كومية الأقطار في تجهيز الكتائب وتوزع الممالك فانقرضوا، وبقي بمواطنهم الأولى بقايا منهم بنو عابد. وهم في عداد القبائل الغارمة**»**1هـ**.

واما مديونة فجمهورهم بنواحي تلمسان إلى جبل مديونة جنوب وجدة غربا وجبل راشد شرقا. يظعنون في تلك الجهات، ويجاورهم شرقا

بنو يلومي الوارثون لموطن يفرن وغربا مكناسة وشمالا كومية وولهاصة. وانتقل جمع منهم إلى الأندلس. ومن بقي تغلبت عليهم زناتة من بني راشد وتوجين. فانحصروا بجبل تسالة وغيره من المعاقل.

وأما مغيلة فأمتان إحداهما بالمغرب الأقصى. ومعهم صدينة. والأخرى على وادي شلف عند مصبه في البحر. ومعهم ملزوزة ودونة وكشانة. قال ابن خلدون: «**ولم يبق من مغيلة بذلك الوطن جمع ولا حي**».

وأما مطماطة فمنهم بإفريقية وبالمغرب الأقصى، وجمهورهم بتلول منداس من نواحي تيهرت. ومن مشاهيرهم سابق بن سليمان المطماطي. قال ابن خلدون: «**وهو كبير نسابة البربر ممن علمناه**» وذكر لهم بطونا كثيرة منهم غرذاي.

ونقل أن منداس سمي بمن نزل به من بطون هوارة وتغلبت عليه مطماطة قال: «**وبقية هؤلاء القوم لهذا العهد بجبل وازشينيس لحقوا به لما غلبهم بنو توجين من زناتة على منداس وصاروا في عداد القبائل الغارمة»1هـ**. ووارشينس هو وانشريس.

وأما لماية فظواعن بإفريقية والمغرب. وجمهورهم بأرض السرسو شرقيهم وشماليهم مطماطة ومكناسة ولواتة وغربيهم زواغة. وانتشر عقدهم بسقوط الدولة الرستمية. قال ابن خلدون: «**وبقيت فرقا منهم**

أوزاعا في القبائل. ومنهم جربة الذين سميت بهم الجزيرة البحرية تجاه ساحل قابس»1هـ.

وقال أبو راس: «**من لماية من فارق الخارجية كاهل فرندة والحوارث. وهم منتشرون بالمغرب الأوسط»1هـ.**

هوارة:

كانوا منهم الظاعن والآهل. ولهم في الردة آثار ثم في الخارجية مواقف. وأجاز جمع عظيم منهم إلى الأندلس. ومن بقي على كثرتهم أخضعتهم الدول لسلطانها فتفرقوا في الجهات، ولم يكن لهم شأن في العصر البربري.

وبطونهم كثيرة منها ونيفن بنواحي تبسة وبنو كملان كانوا حيث المسيلة ونقلهم القائم العبيدي إلى فج القيروان. فلما كانت ثورة صاحب الحمار آزروه. فسطا بهم المنصور بن القائم حتى قطع ذكرهم. ومنها مليلة ولعل عين مليلة القرية الموجودة اليوم جنوب قسنطينة سميت بهم. ومنها هقار بالصحراء جوار لمطة من الملثمين.

وكان جمهورهم بطرابلس وبرقة. قال ابن خلدون: «**ومن قبائلهم أمم كثيرة في مواطن من أعماله تعرف بهم وظواعن شاوية تنتجع لمسرحها في نواحيها، وقد صاروا عبيدا للمغارم في كل ناحية، ودهب**

ما كان لهم من الاعتزاز والمنعة أيام الفتوحات بسبب الكثرة. وصاروا إلى الافتراق في الأودية بسبب القلة» اهـ.

وأشهر مواطنهم بالجزائر ثلاثة: الأول القلعة المطلة على البطحاء من نواحي سيق غربي نهر مينة ملكوها بعد انقراض أمر بني يلومي، ومن بطونهم هناك مسراتة وكانت رئاستهم في بني عبد العزيز ثم انتقلت إلى بني عمهم بني اسحق.

الثاني أوراس. وهم تحت سيادة لواتة. الثالث نواحي تبسة إلى باجة. وقد بسط ابن خلدون الكلام عن أهل هذه النواحي فهاك عبارته:

«من هوارة بأرض التلول من إفريقية ما بين تبسة إلى مرماجنة إلى باجة ظواعن صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم، قد نسبوا رطانة البربر. واستبدلوا منها فصاحة العرب، فلا يكاد يفرق بينهم، فأولهم مما يلي تبسة قبيلة ونيفن. ورئاستهم لهذا العهد في ولد بعرة بن حناش بن ونيفن لأولاد سليم بن عبد الواحد بن عسكر بن محمد ابن بعرة. ثم لأولاد زيتون بن محمد بن بعرة ولأولاد حمان بن فلان ابن بعرة، وكانت الرئاسة قبلهم لسارية من بطون ونيفن. ومواطنهم ببسائط مرماجنة وتبسة وما إليهما. وتليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم، يعرفون بقيصر. ورئاستهم في بيت بني مؤمن ما بين ولد زعزاع

وولد حركات. ومواطنهم بفحص ابة وما إليها من نواحي الاربس.
وتليهم إلى جانب الشرق قبيلة أخرى منهم يعرفون ببصوة.ورئاستهم في بيت الرمامنة لولد سليمان بن جامع منهم. ويرادفهم في رئاسة بصورة قبيلة ورمانة ومواطنهم ما بين تبرسق إلى حامة إلى جبل الزنجار الإطار على ساحل تونس وبسائطها. ويجاورهم متساحلين إلى ضواحي باجة قبيلة أخرى من هوارة يعرفون ببني سليم. ومعهم بطن من عرب مضر من هذيل بن مدركة بن الياس جاءوا من مواطنهم بالحجاز مع الهلاليين عند دخولهم المغرب. واختلطوا في هذه الناحية بهوارة. ومعهم أيضا بطن من رياح ينتمون إلى عتبة بن مالك بن رياح. ومعهم أيضا بنو حبيب من مرداس سليم، والجميع مثل هوارة في الظعن والمغرم».

«هؤلاء الظواعن من هوارة وغيرهم أهل بقر وشاة وخيل ولسلطان إفريقية عليهم وظائف من المغرم مقررة وبعث من العسكر مفروض يحضر بمعسكر السلطان متى استنفروا لذلك ولرؤسائهم إزاء ذلك اقطاعات ومكان في الدول بين رجالات البدو»1هـ بتصرف قليل.

مصمودة وبقية القبائل:

1- أوروبة: كانوا ذوي كثرة وأولي قوة. ومنهم لأول الفتح كسيلة أميرهم وبعد الفتح استقروا بالمغرب الأقصى. وكانت منهم في القرن الثالث طائفة حول نقاوس ذكرها اليعقوبي.

2- لمطة: هم إخوة صنهاجة، وجمهورهم بالصحراء، ومنهم قبيلة بين تلمسان وإفريقية.

3- عجبسة: من بطونهم بنو عوسجة، وكانوا مجاورين لصنهاجة، ومن سهولهم فحص عجيسة قرب مدينة الغدير، ومن حصونهم جبل كيانة، وكانت لهم يد في نصرة صاحب الحمار، ثم خضعوا لبني عبيد، وأسس حماد بن بلقين مدينة القلعة بجبل كيانة، فراموا كيدها مرارا، فاستلحمتهم الدولة، ثم ورثت مواطنهم عياض. فتفرقوا في القبائل شرقا وغربا. قال ابن خلدون:

«وبقاياهم لهذا العهد في ضواحي تدلس والجبال المطلة على المسيلة»1هـ.

4- ازداجة: من النسابين من يعدهم في قبائل زناتة. ومن بطونهم بنو مسقن. وموطنهم نواحي وهران. وكان لهم اعتزاز على الدول حتى اختلفت عليهم جنود العبيديين والأمويين. وأوقع بهم يعلي بن محمد اليفرني سنة **343** ففرق جمعهم ولحق رؤساؤهم بالأندلس. ومن بقي منهم استكان للذل وأداء المغرم.

5- مسطاسة: قيل أنهم أخوة ازداجة وقيل بطن منهم. وكانوا مندرجين معهم في الموطن. ومن رؤسائهم من أجاز إلى الأندلس. وحال من بقي كحال ازداجة.

6- زواغة: من بطونهم بنو واطيل ودمر أهل جبل دمر الممتد جنوب قابس إلى أن يتصل شرقا بجبل نفوسة. ومن دمر فخذ سمكان. وهم أوزاع في القبائل. منهم قرب ميلة فريق يعرفون بزواغة. وبنو واطيل كانوا بنواحي شلف. ومن زواغة من كانوا غربي السرسو. قال ابن خلدون: «**ولم يتأد إلينا من أخبار زواغة وتصاريف أحوالهم ما نعمل فيه الأقلام**»اهـ.

7- مكناسة: كان لهم في الخارجية قدم. وضربت في الرافضية الإسماعيلية بسهم. ثم قامت بدعوة بني أمية على عهد عبد الرحمن الناصر. وكان كبيرها موسى بن أبي العافية، ولبنيه بتسول ونواحي فاس ملك أدركهم عليه المرابطون.

وبطونهم كثيرة، ومواطن جمهورهم بتسول وتازا ووادي ملوية من مصبه في البحر إلى سجلماسة. ومنهم أمة حوالي تيهرت بينها وبين غليزان، قال ابن خلدون: «**ومن مكناسة أوزاع في القبائل لهذا العهد مفرقون في نواحي إفريقية والمغرب الأوسط**»اهـ.

8- مصمودة: ذكر البكري منهم أمة حول بونة، وموطنهم بالمغرب الأقصى في جبل درن تجاورهم صنهاجة اللثامية جنوبا إلى بلاد

السوس. وبطونهم هنالك كثيرة لا تحصى منها هرغة وهنتاتة تينملل وقنفيسة وقدميرة ودكالة وهسكورة.

قال ابن خلدون: «**يسير الراكب في جبل درن معترضا من تامسنا وسواحل مراكش إلى بلاد السوس ودرعة من القبلة، ثماني مراحل وأزيد، تفجرت فيها الأنهار وجلل الأرض خمر الشعراء، وتكاثفت بينها ظلال الأدواح وزكت مواد الزرع والضرع. وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد. وطابت منابت الشجر، ودرت افاويق الجباية»1هـ.**

وقال صاحب المعجب: «ومصمودة مطبوعون على سفك الدماء شاهدت من ذلك أيام كوني بسوس ما قضيت به المعجب»1هـ.

وكان منهم قبل الإسلام أمراء، وأسلموا لاول الفتح، ولهم مع جيرانهم الملثمين حروب وفتن، ولم يزالوا في حدود وطنهم حتى ظهرت دولة الموحدين وفازت منهم هنتاتة بحظ عظيم من الملك على يد أبنائها الحفصيين، فتفرقوا لذلك في ممالكهم. ومنهم أولاد نعمون الذين لم يزل عقبهم بقسنطينة.

ولم تكن مصمودة لتستغل ما وهبها الله من كثرة عدد وخصب موطن ومناعة موقع لولا أن قيض الله لها من أبنائها محمد بن تومرت. ذلك الرجل الذي كلم أمعن المفكر النظر في حياته إزداد إيمانا بالطفرة واستيقن أن من يبني حياة أمته على قاعدتها هو العظيم الخارق للعادة وأن

من يبني حياة الأمم على قاعدة التدرج وفاقا لمبدأ النشوء والارتقاء فإنما هو من العظماء العاديين.



الباب الثاني

في الدولة الحمادية

تمهيد:

استخلف آل زيري بن مناد الصنهاجي عن العبيديين والمغرب يضطرم نارا بالفتن الناشئة عن النزاع بين العبيدية والأموية. وما كادوا يتغلبون على الأموية حتى دب فيهم دبيب المنافسة. وتنازعوا أمرهم بينهم.

وعقد منصور بن بلقين لأخيه حماد على عمل أشير والمسيلة مستكفيا به أمر زناتة الأموية ومن ينازعه من آله. فلم يزل حماد مخلصا له، وتداول هذا العمل مع أخيه يطوفت وعمه أبي البهار.

وتوفي المنصور، فخلفه ابنه باديس. واقر عمه حمادا على عمله، وافرده به سنة **387** دون يطوفت وأبي البهار. وخالف عليه من عمومته زاوي وماكسن ابنا زيري فيمن استجاب لهما. فعقد على حربهم لعمه حماد سنة **390** فقتل حماد ماكسن وحصر زاوي بجبل شنوة من ناحية شرشال، ثم أمنه ومن معه على ان يجيزوا إلى الأندلس. فلحقوا بالمنصور بن أبي عامر.

ولم يزل باديس مستعينا بحماد يستقدمه متى شاء إلى صبرة ويخرجه لإطفاء الثورات. وفي سنة 95 كلفه بحر زناتة، فاشترط عليه ولاية المغرب الأوسط وكل ما يفتحه وان لا يستقدمه. فوفى له بما شرط.

وفي سنة 398 اختط حماد مدينة القلعة. وصار يترل بها وباشير. وبقي واليا على الزاب والمغرب الأوسط موافقا لزناتة. وتكررت انتصارته عليهم فطار صيته وعظمت هيبته حتى خشي باديس ان يخلع طاعته لا سيما وقد أسس مدينة القلعة.

وفي سنة 403 جاء التسجيل من الحاكم صاحب مصر إلى باديس بولاية عهده لابنه المعز، وكانت حاشية باديس قد سعوا له بحماد. فاتخذ ذلك التسجيل ذريعة لاختيار حماد. فأرسل إليه بالتنازل للمعز عن عملي تيجس وقسنطينة. فأبي ذلك حماد وأفضى الأمر إلى حرب أسفرت عن تأسيس الدولة الحمادية.

تأسيس الدولة الحمادية:

أقوى أعداء صنهاجة هم زناتة وأعظم آل زيري بطولة هو حماد. فوكلوا إليه حروب زناتة. فأوقع بهم مرارا. وكان مظفرا عليهم، ورأى ان يجني ثمرة انتصاراته. فاستوثق من باديس سنة 95 بتلك الشروط ثم احتاط لنفسه. فأسس القلعة، وشحنها بأوليائه وذخائره اذ لم تكن له ثقة بأشير.

وكانت الأمة تتبرم من سماع الدعاء للعبيديين على المنابر. وكان آل زيري مع الأمة باطنا. وليس لهم مع العبيديين الا ظواهر دعت إليها السياسة.

ولما طلب باديس من حماد التنازل عن ذينك العملين رأى هذا الطلب كمقدمة لحرمانه من ثمرة جهاده وإن رفضه مفض إلى الحرب ولا نتيجة للحرب الا تمتعه بالاستقلال أو تعجيل حرمانه من لذة النفوذ فرجا الاستقلال بما كان قد هيأه لمثل هذا من معقل القلعة وأعلن ما تصبو إليه الأمة من قطع دعوة بني عبيد فقتل الروافض. ودعا لبني العباس. وذلك سنة **405**.

وجهز باديس لحرب حماد كبير قواده هاشم بن جعفر. وجمع حماد ثلاثين ألفا لقي بها هاشما بمدينة الكاف. فهزمه وغنم ماله وعدده. وتقدم إلى باجة. فدخلها بالسيف. وأثار تونس على الرافضة. وذلك سنة **406**.

وهنالك قاد باديس الجيوش بنفسه. وخرج من القيروان لحرب حماد. فخذل حمادا بعض رجاله من بني حسن الصنهاجيين، ومن زناتة كبني أبي واليل أهل مقرة وبني يطوفت وبني غمرة، ففر حماد حتى أتى أشير في صفر، وبها نائبه خلف الحميري، فمنعه منها وأعلن طاعة باديس، فتوجه حماد إلى شلف بني واطيل.

واستولى باديس على المسيلة وأشير، وبلغ سهل السرسو .فأتاه رؤساء بني توجين وكثير من زناتة الناقمين على حماد. فاستظهر بهم، وأجاز وادي شلف، فتقابل مع عمه مستهل جمادي الأولى وتقاتلا اشد

قتال، فانخزل عن حماد اصحابه إلى باديس، فانهزم وأخذ السير إلى القلعة، وبها أخوه ابراهيم. فدخلها تاسع جمادى الأولى، وذهب إلى دكمة، فأخذ من أهلها ما وجده من طعام وملح وذخيرة، وعاد إلى القلعة مستعدا للحصار.

عاد باديس اثر عمه، وحاصره بالقلعة، وبينما حماد يقاسي ألم الحصار وينتظر اليوم الذي يؤخذ فيه اذ نعي إليه باديس آخر ذي القعدة، فأتاه الفرج من حيث لم يحتسب. وهكذا تأيد بالقدر الذي عوده الظفر.

وكان كرامت اخو باديس ذا منزلة لدى صنهاجة، فبايعه كبار القواد أرضاء لصنهاجة لبعدهم عن العاصمة فمضى كرامت إلى أشير وفرق الأموال في صنهاجة. وجمع سبعة آلاف مقاتل وخرج إليه حماد في خمسمائة وألف فارس فاقتتلوا قتالا شديدا، ثم انهزم كرامت إلى أشير، فحاصره بها حماد.

وعاد القواد بشلو باديس إلى القيروان فبايعوا للمعز ونقضوا بيعة كرامت فلما بلغه ذلك صالح حمادا على مال يأخذه ويلتحق بالمعز، فأسعفه حماد بذلك ولحق بالمعز في محرم سنة **407** وكان هذا أيضا من أسباب نجاح حماد.

انتقل الميدان بين حماد والمعز إلى جهات باغاية وما يليها إلى ناحية قفصة ولثمان بقين من صفر سنة **408** سار المعز بالأجناد لحرب حماد، فأجلاه عن باغية ثم كانت بينهما وقعة شديدة آخر ربيع الأول جرح فيها حماد، واسر فيها أخوه ابراهيم. وتفرقت عنه رجاله. فاسلم معسكره بما

فيه من معدات وذخائر، ونجا بنفسه. وانتهى المعز إلى سطيف وقصر الطير. ثم قفل إلى حضرته.

وهنالك مال حماد إلى السلم. فأرسل إلى المعز يعرض عليه طاعته. فاشترط عليه ارتهان ابنه القائد. فوسط أخاه ابراهيم في التوثق من المعز. فأرسل ابراهيم إليه يضمن له سلامة ابنه. ثم بلغ المعز قصره آخر جمادى الأولى، وسرح ابراهيم بن بلقين، وخلع عليه، فلما بلغ ذلك حمادا زالت ريبته بالمعز، وأرسل ولده القائد بهدية جليلة، فبلغ إلى المعز منتصف شعبان. فأكرمه. وأهدى له هدايا جليلة واقطعه المسيلة وطبنة وغيرهما. ولم يمسكه بل سرحه إلى أبيه فعاد إليه في رمضان وبحسن هذه السياسة من المعز تم الصلح بينه وبين حماد، وصلحت الأحوال.

ونرى حمادا لم يكن له غرض في هذه الحرب. وانما كان حذرا مستعدا للطوارئ. فادخل حذره ذلك الريبة في نفس باديس. وقواها له حاشيته من حسدة حماد. فاشتعلت الحرب مدة عامين. وانتهت ببقاء حماد على ما كان عليه وإنما في صلح المعز اعتراف ضمني بالعجز عن مقاومة حماد.

وهكذا أحسن حماد الدفاع عن ممالكه حتى أورث عقبه ملكا نافسوا به بني عمهم أصحاب إفريقية. وأصبحوا أقوى منهم واملك للباس. ولكن بني باديس كانوا أرقى حضارة واقعد بالسياسة. وانما تأسست الدولة الحمادية باقتحام الأخطار ومساعدة الأقدار.

المملكة الحمادية:

تمتد المملكة الحمادية غربا إلى فاس، وبهذه الناحية إمارة بني يعلي بتلمسان ونواحي وهران وحكومة بني زيري بن عطية بفاس، وأغلب سكانها زناتة فكان الحماديون يترددون بجيوشهم عليها تسكينا للثورات أوإقتضاء للمغارم.

وفي سنة **430** زحف حمامة بن زيري بن عطية أمير فاس إلى القائد بن حماد. فتقاتلا. وسرب القائد الأموال في زناتة. فوهن حمامة. وبذل طاعته للقائد. ثم ظهرت دولة المرابطين. فخرج بلقين بن محمد بن حماد سنة **454** للقاء يوسف بن تاشفين الذي ظهر بوطن المصامدة. فأجلاه إلى الصحراء. وردد غاراته بالمغرب. واحتمل من أكابر فاس وأشرافها رهائن على الطاعة.

ثم عظمت شوكة المرابطين. فاستولوا على امارات زناتة وتقدموا إلى الجزائر وأشير. فدافعهم الحماديون. ثم اصطلحوا. واستقرت الحدود بين المملكتين. قال صاحب المعجب:

«وكان يحي آخر الملوك الحماديين يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتونة». وأعاد ذكر هذا الموضع بهذا اللفظ، وقال بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل. وذكره ابن خلدون في مواطن بني يلومي بلفظ سبدو سيرات. وهذا الموضع غربي نهر مينة إلى سهل سيق.

على أن في نسخة من ابن خلدون سيك وسيرات بالعطف وسيك هو سيق.

وامتدت شرقا حتى اشتملت على تونس والقيروان وصفاقس والجريد وخضعت جزيرة جربة أيام العزيز، وهذه الناحية يغلب عليها العرب وبمدنها عدة أمراء يتلونون في السياسة حسب أهوائهم. وقد فتح الناصر بن علناس مدينة الاربس سنة **460** بعد خضوع تلك البلدان له. وهي في طريقه إلى تلك البلدان. فدل على ان تبعية هاتيك الجهات غير مبنية على خضوع عسكري. واستمر نزاع حماد وآل باديس على مدينة تونس. ثم ثبتت للحماديين من سنة **514** إلى سنة **543** وعادت بعد إلى أمرائها الأقدمين بني خراسان.

وامتدت المملكة جنوبا إلى الزاب ووادي ريغ وورقلة. وبقيت داخل هذه الحدود جهات من وطن زواوة وكتامة غير تابعة للحماديين. قال ابن الأثير: «**وفي سنة 417 وردت رسل زناتة وكتامة على المعز في طلب الصلح والدخول في حكمه على أن يحفظوا الطريق. فاستوثق منهم. وقدمت عليه مشيختهم. فبذل لهم أموالا جليلة**»**اهـ**.

وقد اخضع الحماديون زناتة من بعد. ويظهر ان كتامة كذلك. ولكن لانعلم لهم نفوذا بالجبال الممتدة فيما بين السكيكدة وجيجل من وطن كتامة، فان بها قبائل قوية لايعلم لها خضوع لاية دولة سواء في العصر العربي أو البربري.

وبعد ان حارب المنصور المرابطين سنة **86** ثم أثخن في زناتة عاد إلى فتح وطن زواوة. قال ابن خلدون: **«ورجع المنصور إلى بجاية وأثخن في نواحيها ودوخت عساكره قبائلها. فساروا في جبالها المنيعة مثل بني عمران وبني تازروت والمنصورية والصهريج والناظر وحجر المعرق (في نسخة حجر المعز). وقد كان أسلافه كثيرا ما يرموها فتمتنع عليهم» 1**هـ. والمنصورية شرقي بجاية على طريقها إلى جيجل.

الحكومة الحمادية:

هذه الدولة أول دولة بربرية بالجزائر الإسلامية. وكانت مستقلة استقلالا تاما غير أن ملوكها لم يجرؤا على دعوى الخلافة التي كانت يومئذ للعباسيين ببغداد وللفاطميين. فلما خلع المعز العبيديين دعا لهم القائد خلافا لابن عمه وتوقيا من شر الحملة الهلالية ظنا ان ذلك يفيده. ثم عاد من بعده إلى الدعوة العباسية. ولم يضربوا السكة على عظم دولتهم احتراما لدولتي الخلافة. وأحدثها يحي آخرهم. قال ابن خلدون:

«وسكته في الدينار كانت ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه. فدائرة الوجه الواحد: واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون. والسطور: لا اله الا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحي بن العزيز بالله بن الأمير المنصور. ودائرة الوجه الآخر: بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث

وأربعين وخمسمائة وفي سطوره: الإمام أبوا عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي»1هـ.

ورئيس الحكومة يلقب بالأمير أو الملك. ويتولى أما بالعهد إليه من سلفه أو بالتغلب والقهر، ولم تخرج الإمارة عن آل حماد. وللأمير وزراء في عاصمته. وعمال في المدن. وأهم ممالكهم الجهات الشمالية كان يليها عمال من آل حماد مثل الجزائر ومرسي الدجاج وجيجل وبونة وقسنطينة ونقاوس والقلعة وأشير وحمزة.

وأما النواحي الجنوبية فكانت بواديها للبربر واغلبهم زناتة. ثم تغلب عليهم العرب وكانت مدنها تابعة للحماديين ولكن لكل مدينة إدارة خاصة يديرها جماعة من الشيوخ الذين حنكتهم التجارب. وكانت بسكرة قاعدة الزاب يومئذ. ومن أسرها بنو رمان وبنو سندي، فتولى رئاسة الزاب بنو رمان من البربر، ويقول مرسيي أنهم من أصل لطيني، ونبذوا الطاعة لعهد الناصر. ففتك بهم، وأدال منهم ببني سندي، فلم يزالوا على رئاستهم مخلصين للدولة إلى ان غلب الموحدون على هذه المملكة.

وكان القضاء مستقلا عن الإدارة، ويظهر انه كان على المذهب المالكي لأنه الغالب يومئذ على أهل المغرب والأندلس.

كان للدولة جيش نظامي علاوة على ما كانت عليه الأمة من الاستعداد الطبيعي لإجابة دعوة الحكومة للقتال، لبساطة الحرب يومئذ، قال لسان الدين في الاعلام: «**كان يسكن بالقلعة أيام الناصر من فرسان**

صنهاجة اثنا عشر ألفا»1هـ. هذا بالقلعة دون بقية المدن ومن صنهاجة دون بقية القبائل ومن الفرسان دون المشاة. وقال أيضا: «**إن المنصور خرج لقتال المرابطين لما استولوا على تلمسان في اثنتي عشرة محلة»1هـ**. وأن المادة لتعجزنا أن نأتي بتفاصيل عن الجيش الحمادي، والذي نعلمه من حياة هذه الدولة إنها حربية أكثر منها سلمية.

ومؤسسات الدولة تدل على أنها كانت غنية جدا، وإنا لنجهل تفاصيل تكوين ماليتها، وانما نعلم أنها كانت تقبض الخراج، وتعتمد في جمعه من الجهات التي يتغلب عليها العرب على العرب أنفسهم، ولكثرة حروبها وانتصاراتها نعتقد أن الغنائم أهم ما تتكون منه ماليتها. فان الأمراء كانوا يغنمون أموال البغاة.

ويجاور هذه الدولة غربا ممالك زناتة الخاضعة لها، فلما غلب عليها المرابطون طمعوا في بقية المملكة الحمادية. وبعد حروب اعترفت الدولتان بعضهما ببعض. وتم بينهما تقرير الحدود في جو ودادي، ولم تزالا على ودادهما إلى أن ظهر الموحدون فقضت المصلحة باتحادهما حربيا.

ويجاورها شرقا دولة آل باديس وقد اعترف حماد بخضوعه للمعز لما تغلب عليه، ولم تزل هذه الدولة تحاول الاستقلال والمعز يخضعها حتى جاء الهلاليون واضعفوا دولة المعز وبنيه، فأعلن القائد ابن حماد الاستقلال، ثم اختلفت أيام الدولتين الشقيقتين سلما وحربا، وكان الظفر غالبا لآل

حماد، وإذا اصطلحوا فربما يؤكدون الصلح بالمصاهرة. ولكن لم يدم بينهم سلم حتى انقضت أيامهم.

وكان لبني حماد عمائم هي تيجان ملوكهم. قال صاحب الاستبصار ما لفظه: «**وكان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة، يغلون في أثمانها. تساوي العمامة خمسمائة دينار وستمائة دينار وأزيد. وكانوا يعممونها باتقن صنعة. فتأتي كأنها تاج وكان ببلادهم صناع لذلك. يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤس. يعممون عليها تلك العمائم» 1هـ.**

ذكر هذا بعد ذكر وقعة سبيبة التي انهزم فيها الناصر وسلم عمامته ورايته لأخيه.

ملوك الدولة الحمادية:

كان ملوك هذه الدولة إلى البداوة اقرب لأنهم انشأوا الملك إنشاء. ولم تدع لهم ثورات زناتة وغيرهم سبيلا إلى الترف بل حفظت عليهم الحياة الحربية. ولم ترتق الدولة في سلم الحضارة الا في عهد الناصر وابنه المنصور. وما مالوا إلى الراحة والدعة الا بعد خروج أهم مواطن زناتة عنهم إلى المرابطين.

وأولهم حماد بن بلقين. أعلن استقلاله سنة **405** ثم اصطلح مع المعز سنة **408** وتزوج ابنه عبد الله أخت المعز، ولم ينقض الصلح حتى توفي بالقلعة في رجب.

قال لسان الدين في الاعلام: «**كان حماد نسيج وحده وفريد دهره وفحل قومه. ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا. قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدال»1هـ.**

قال البكري: «**وحدثوا أن حمادا قال ما تداهى احد علي قط ولا خدعني الا امرأة وكعاء من البربر، ذلك ان صاحبا كان لي بالقيروان نشأنا نشأة واحدة ولم يفرق بيننا مكتب ولامشهد. ولم نزل على ذلك حتى صرت على ما أنا فيه، ففقدته: وجعلت افتقده، فلا أجد سببا للوصول إليه».**

«فلما نزلت على باغاية وشننت عليها الغارات لم أنشب صبيحة ذات يوم ان سمعت النداء يالله! باللأمير! فقلت ما بالك ومن أنت؟ فإذا هو صاحبي قد حبسه عني نسكه وغلب على هواه ورع يملكه فأظهرت البشر بمكانه والجذل بشأنه وقلت له والله لو خرجت إلي بالأمس لحقنت دماء أهل بلدك لحرمتك عندي، فقال القدر غالب، ثم ذكر حاجته وهي ان ابنته فقدت».

«فأمرت القواد فاحضروا جميع ما كان في جيوشهم من النساء. فعرف ابنته فأمرت بسترها وحملها مع أبيها. فرفعت صوتها قائلة لا

ارجع مع احدا إني لا أصلح الا للملوك لان عندي علما لا أشارك فيه. فقلت الا ترينا شيئا من ذلك؟ قالت تأمر بقتل إنسان وتحضر أمضى سيف أقرأ عليه فيعود أكل من قائمه. فقلت الذي يجرب هذا فيه لمغرور. قالت أويتهم أحد بقتل نفسه؟ قلت لا. قالت فليجرب في فأحضرت سيفا فلما ضربها السياف بأن رأسها.

فاستيقظت من غفلتي وعلمت إنها تداهت علي وكرهت العيش بعد الذي جرى لها، واستبان ذلك لأبيها أيضا». بحذف يسير.

وقال أيضا: **«ذكروا أن لشيخ امرأة شابة. فخرج بها إلى قلعة حماد، فصحبه في طريقه شاب علقته المرأة. فتواطآ على دعوى الزوجية، فلما وصلوا إلى القلعة رفع الشيخ القضية إلى حماد، فأوقف الشاب والمرأة فأنكرا ما يدعيه الشيخ من الزوجية ولم يجد حماد بينه غير كلب للشيخ فأمر بربط ذلك الكلب. ثم أمر المرأة بحله وربطه ثانيا، ففعلت ولم ينكرها الكلب، ثم أمر الشاب بمثل ذلك فنبحه الكلب فحكم حماد للشيخ بزوجته. وضرب عنق الشاب»1هـ.**

وثانيهم القائد، خلف أباه. وكان سديد الرأي عظيم القدر وسلم لإخوته أهم أعمال المملكة، فولى يوسف على المغرب ويغلان على حمزة. واستمر مع المعز على ما كان عليه والده. ثم خالف عليه سنة **32** فخطب للعباسيين، وزحف إليه المعز فحاصره بالقلعة نحو سنتين وحاصر

أيضا أشير. ثم اصطلحا، قال ابن خلدون: «**وراجع القائد طاعة العبيديين لما نقض عليهم المعز، ولقبوه شرف الدولة**»1هـ.

وقال لسان الدين: «**وخلع القائد بني عبيد كما فعل ابن عمه، ودعا لبني العباس إلى أن هلك في ذي القعدة**».

وثالثهم محسن، ولي بعد أبيه بعهده، وكان جبارا فظا، مكث في الملك ثمانية أشهر وثلاثة وعشرين يوما، وتوفي في ربيع الأول، وكان أبوه أوصاه أن لايخرج من القالعة ثلاث سنوات وأن يحسن إلى عمومته، فخالف وصيته وعزم على عزلهم، فخرج عليه عمه يوسف وأسس قلعة في جبل منيع سماها الطيارة فانتقم منه محسن بقتل أربعة من عمومته، فازداد يوسف نفورا.

وكلف محسن عامله على بلد اكريون ابن عمه بلقين بن محمد ابن حماد بحرب عمه يوسف، واصحبه من العرب خليفة بن مكن وعطية الشريف في جمع من قومهما، وأسر إليهما قتله، فقال خليفة لقومه: إن بلقين لم يزل محسنا إلينا فكيف نقتله؟ فاتفقوا على إعلامه بنية محسن وهونوا عليه قتله.

استعد بلقين لحرب ابن عمه وبلغ خبره محسنا وهو خارج القلعة فأخذ السير إليها. ولكن بلقين أدركه، فقتله، ودخل القلعة ليلا وملكها.

ورابعهم بلقين بن محمد. تغلب على الملك بقتل ابن عمه، وكان شهما قرما حازما شجاعا جريئا على العظائم سفاكا للدماء، ابتدأ بسفك

دم وزير محسن، واستوزر خلف بن حيدرة، ونكب آل رمان أصحاب بسكرة سنة **50** لمخالفتهم عليه ومحالفتهم للاثبج.

وكان كثير الغارة على المغرب حتى سئمته الرعية لايغاله بها في أرض العدو، وكان له أخ اسمه مقاتل فمات، واتهم به زوجه تانميرت ابنة عمه علناس. فقتلها. فتربص به أخوها الناصر، حتى أمكنته فيه الفرصة بتسالة وهو آيب من غزو فاس، فقتله.

ونقل لسان الدين عن ابن بسام ما ملخصه:«كان بلقين أحد جبابرة الإسلام المفتاتين على الأيام لا يملأ يده الا من لبدة أسد ولا يسرح لحظه الا في نهاب بلد، قد تجاوز في شذوذ أمنيته وقهره لرعيته والإخافة لأقرانه والاستبداد على زمانه غاية من سلف من جبابرة الأرض وسمع به من فراعنة الإبرام والنقض».

«حدث أنه آب مرة من بعض غزواته ومال إلى الراحة، فأمر بإحضار آلات الأنس وأدواته، وأمر قيمة جواريه بإحضار زوجه ابنة عمه لم ير بعدها زعموا ولاقبلها أبدع ظرفا ولا افتل طرفا فحضر كل ما أمر به، وخطر بباله الغزو، قالت قيمته: وكأني انظر إلى الكأس في يده وإلى ابنة عمه قائمة على رأسه، فاعتذر إليها وقام من حينه، فوضع الكأس مليء في طاق وطبع عليها، وأمر بالركوب من حينه إلى غزو المغوب، فوطيء أرض فاس. ثم رجع، فجلس ذلك المجلس بعينه. واستدعى كأسه تلك وابنة عمه، وقضى وطره من لذة نفسه».

«وكان قلما يركب الا دارعا مولعا بالادلاج مؤثرا للانفراد. وفي الليلة التي يقتل من صبيحتها اقسم لا يدلج الا حاسرا وليلقين الناصر إذا نزل ولو كان أسدا خادرا، فما بدا الصبح حتى لقيه الناصر كالمسلم عليه، وما راجعه الكلام حتى جلله الحسام وأراح منه البلاد والأنام».

«ثم قام مقامه واستظل إعلامه. وأمر برفع رأسه أمامه، فظن الناس بلقين قد قتل بعض أتباعه. فلما طلعت الشمس حشر الناصر أقاربه وزعماء الدولة فأطلعهم على جلية الخبر وانه إنما قتله لقتله أخته لا طلبا للملك، ففكروا قليلا، ورأوا أنه لم يجسر على قتله إلا وله أشياع. وارتاب كل بمن يليه، وانهب الناصر خزائن بلقين ذؤبان العرب وصقورة زناتة، فاستمال قلوبهم، وطوى المراحل إلى القلعة فسبق الأخبار»1هـ.

وخامسهم الناصر بن علناس .واصله علا الناس أو علاء الناس. فخفف لفظا ورسما. وكان الناصر جريئا على سفك الدماء شديد الغيرة على النساء جوادا عالي الهمة تغلب على الثوار. وحافظ على الممالك الغربية وتوسع في الجهات الشرقية، واختط بجاية ونسبها إليه، وعني بالعمارة. وقصده الشعراء. وطالت مدته. فثبت أركان الدولة لعقبة. وتوفي يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بقصره ظاهر بجاية. وحمل إلى بجاية ودفن بها.

ثار عليه بنو رمان ببسكرة. فخرج إليهم وزيره خلف بن حيدرة. فغلبهم. وحملهم ومن مالأهم من أعيان بسكرة إلى القلعة. فصلبوا بها وولي مكانهم عروس بن سندي. ثم خرج الناصر ليتفقد المغرب. فوثب علي بن ركان على تاقربوست دار المملكة فيمن معه من عجيسة. فرجع إليهم من المسيلة. فسقط في أيديهم وانتحر علي بن ركان.

وكان الناصر يقع في تميم بن المعز ويذمه في مجالسه ووقعت بينهما حروب ثم إصطلحا سنة **61** وزوج تميم ابنته بلارة من الناصر. وسريها إليه من المهدية في عسكر. وأصحبها من الحلي والجهاز مالا يحد وحمل إليه الناصر ثلاثين ألف دينار. فردها عليه. واخذ منها دينارا واحدا. وابتنى الناصر لها قصرا باسمها.

وكانت وزارته لأبي بكر بن أبي الفتوح وخلف بن حيدرة. ثم سعت صنهاجة للناصر بخلف. فقتله. واستوزر مكانه أحمد بن جعفر ابن افلح ومن عماله إخوته كباب بمليانة وورمان بحمزة وخزر بنقاوس. وبلباز بقسنطينة وابنه عبد الله بالجزائر ومرسي الدجاج وابنه يوسف باشري ومما قيل فيه:

قالت سعاد وقد زمت ركائبنا .مهلا عليك فأنت الرائح الغـــادي
فقلت تالله لاانفك ذا سفـــر تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي
حتى أقبل ترب العز منتصرا بالناصر بن علنـــــاس بن حمـــاد

وسادسهم المنصور، أتته الكتب والرسل من يوسف بن تاشفين وتميم بن المعز وغيرهما بالتهنية والتعزية. وأكمل عمل أبيه في تحضير الدولة والمحافظة على سلامتها. وانتقل إلى بجاية سنة 83 وتوفي في ربيع الأخير.

قال لسان الدين: «**وكان قائما على أمره حميد الخلل ضابط الأمور يكتب ويشعر. ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور من رقع الثياب والتحفظ على القليل من الأشياء. وعليه قدم معز الدولة بن صمادح لما فر من المرية أمام المرابطين فاقطعه تدلس ونظرها»1هـ.**

وكان وزيره عبد الكريم بن سليمان.

واستبد عليه عمه بلباز بقسنطينة فسرح إليه أبا يكنى بن محسن ابن القائد بن حماد، وعقد له على قسنطينة وبونة، فقبض على بلباز وأشخصه إلى القلعة، وأقام واليا بقسنطينة، وولي أخاه ويغلان على بونة.

ثم خالف أبو يكنى على المنصور سنة 87 وأوفد أخاه من بونة على تميم بن المعز بالمهدية واستدعاه لولاية بونة، .فبعث معه تميم إبنه أبا الفتوح، فنزل بونة مع ويغلان، وكاتبوا المرابطين وجمعوا العرب على أمرهم.

فسرح المنصور عساكره لحربهم، فحاصروا بونة سبعة أشهر ثم اقتحموها عنوة، وقبضوا على أبي الفتوح بن تميم، وبعثوا به إلى المنصور. فاعتقله بالقلعة. ثم نازلوا قسنطينة واضطربت أحوال أبي يكنى. فخرج إلى

قلعة بجبل أوراس وترك بقسنطينة صليصل ابن الأحمر من رجالات الاثبج فنزل صليصل عنها للمنصور على مال بذله له.

أقام أبو يكنى بأوراس يردد الغارة على قسنطينة. فنازلته العساكر. وحاصرته بقلعته. ثم اقتحموها عليه وقتلوه.

وسابعهم باديس. ولي بعد أبيه. وكان عظيم السطوة شديد البأس سريع البطش. قتل عبد الكريم وزير أبيه لأول ولايته. ونكب عامل بجاية. وعزل أخاه العزيز عن ولاية الجزائر. وغربه إلى جيجل. وتوفي ثالث عشر ذي الحجة قبل ان يستكمل سنة.

وثامنهم العزيز. بايعه بعد وفاة أخيه علي بن حمدون قائد الأسطول بعدما احضره من جيجل. وكان حسن الخلق معتدل الطريقة. صالح زناتة. وتزوج بنت ماخوخ. وملكت أساطيله جربة. ونازلت جيوشه تونس. فخضع له صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخرساني. وبنو خراسان قيل أنهم صنهاجيون. وطالت مدته فنالت الدولة على عهد أمنا ورقيا وعلما. واستوطن بجاية إلى ان مات. وأخذت القلعة في الإنحطاط.

وتاسعهم يحي بن العزيز. جهز إلى الشرق عسكرا بقيادة مطرف ابن علي بن حمدون. قيل سنة **522** وقيل سنة **529**. حاصر المهدية من غير طائل. وفتح تونس. وحمل صاحبها احمد بن عبد العزيز إلى بجاية. فولى يحي على تونس عمه كرامة بن المنصور إلى ان مات. فخلفه أخوه أبو الفتوح بن المنصور إلى إن مات. فخلفه ابنه محمد ولم تحمد سيرته.

فعزل بعمه معد بن المنصور إلى أن عاد أمرها لبني خراسان، فاخرج إلى بجاية سنة 543.

وفي هذه السنة خرج يحي إلى القلعة لافتقادها ونقل ما بقي منها، وفيها استولى النرمان على المهدية. وأراد صاحبها اللحاق بعبد المؤمن فكتب إلى يحي يستأذنه في زيارته والتوجه من عنده إلى عبد المؤمن. فأجابه بالتوجه لما جرى عليه والحث على الوصول إليه والعدول عن قصد غيره. فتوجه الحسن إلى بجاية ولاقاه القائد بن العزيز. فعدل به بأمر أخيه إلى الجزائر. فانزله وأولاده بها. وأمر يحي بمراقبته حتى لايلحق بعبد المؤمن أو يراسله.

وكان وزير يحي ميمون بن حمدون. ومن عماله إخوته القائد بالجزائر والحارث ببونة والحسن بقسنطينة وجوشن بالقلعة.

وفي سنة 547 استولى الموحدون على بجاية. ونقلوا يحي إلى مراكش وتوفي بسلا سنة 558.

قال لسان الدين: «**وكان يحي بن العزيز فاضلا حليما فصيح اللسان والقلم مليح العبارة بديع الإشارة. وكان مولعا بالصيد مغرما به، كلفا بالمارين يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة من شيوخ وعجائز وحمقى. فكان يستلقي في بيته على الفرش الوثيرة الحشايا ويستدعي المضحكين وجوارح الصيد. فيختبر هذا البازي ويتفقد هذا الكلب ويستنهض هذا المضحك في النوع الذي سلكه**

فيلهيه ويضحكه. ويجلس أبدا بين يديه أخواته تقسوط وأم ملال وشبلة في زي العرائس من الحلي واللباس. فلا يزال كذلك إلى أن ينام. ثم يتغتدى إلى الصيد هكذا انقضت أيامه».

«وكان قد ولي ابنه المنصور عهده. فتوفي في حياته. وعظم وجده عليه. ولما اضطرب حاله بظهور الموحدين لحق بقسنطينة ثم نزل لهم عنها مستأمنا لنفسه وسكن بقصر ابن عشرة بسلا وكانت وفاته به سنة 544»1هـ.

وما قدمناه من تاريخ وفاته عن ابن خلدون. وقال صاحب المعجب ان غزو عبد المؤمن لبجاية كان سنة **540** وأن عبد المؤمن نقل معه إلى مراكش يحي واعيان دولته. قال:

«فحين وصلوا أمر لهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والأموال الوافرة. وخص يحي من ذلك بأجزله واسناه واحلفه. ونال يحي هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخما. واظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها بلغني من طرق عدة أن يحي بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوما. فذكروا تعذر الصرف. فقال يحي أما أنا فعلي من هذا كلفة شديدة. وعبيدي في كل يوم يشكون إلى ما يلقون من ذلك. ويذكرون ان أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف. فلما قام يحي اتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها. وقال لرسوله قل له لايتعذر عليك مطلوب ما دمت بحضرتنا إن شاء الله عزوجل»1هـ.

ملوك الدولة الحمادية

الملك	الولاية هـ	الولاية م	الملك	الولاية هـ	الولاية م
حماد بن بلقين بن زيري	405	1014	المنصور بن الناصر	481	1089
ابنه القائد	419	1028	ابنه باديس	498	1104
محسن بن القائد	446	1054	أخوه العزيز	498	1105
بلقين بن محمد بن حماد	447	1055	ابنه يحي	515	1121
الناصر بن علناس بن حماد	454	1062	سقوط الدولة	547	1152

العرب أيام الحماديين:

كان الهلاليون يذهبون لبداوتهم في مذاهب الحرية إلى أقصى مدى. فيرون الانتصاف من جانبهم ذلا واحترام القوانين الدولية استعبادا. فكثرت بينهم الفتن. وعجزت عن قيادهم الدول.

وزادهم هذا الخلق قوة ما وجدوا عليه بني زيري الصنهاجيين من الافتراق فكان العرب يخشون اتحاد الزيريين. فيغرونهم بعضهم ببعض. وكان الزيريون كذلك يسعون لإذكاء نار العداوة بين قبائلهم.

قتلت عدي أحد بني رياح واصطلح القبيلتان.فرأى تميم بن المعز أن عداوتهم أولى بسياسته. فقال يخاطب رياحا:

متى كانت دماؤكمو تطـــل   أما فيكم بثار مستقـــل

أغانم ثم سالم ان فشلتـــم   فما كانت أوائلكم تـــذل

ونمتم عن طلاب الثار حـــتي   كأن العز فيكم مضمحـــل

فعمد أخوة المقتول. فقتلوا أميرا من عدي. وهاجت الفتنة حتى انجلت عدي إلى طرابلس.

وكانت حروب أيضا بين الاثبج ورياح. فوفد رجال من الاثبج على الناصر بن علناس وعقدوا معه حلفا على رياح وزغبة. فخشيء تميم ابن المعز ان يتقوى عليه الناصر ويسلبه ملكه فأمد عليه رياحا بالمال والسلاح والجنة.

ثم أرسلت رياح وزغبة إلى الاثبج ومن معهم من عدي يحذرونهم مساعدتهم للناصر وانه ان انتصر علينا مال عليكم بصنهاجة وزناتة. فأهلككم وانه لامقام للعرب الا مع خلف ملوك صنهاجة وضعفهم. فاستصوب الاثبج رأي إخوانهم. وواعدوهم الغدر به متى نشبت الحرب على ان يكون لهم ثلث الغنيمة.

فخرج الناصر سنة **457** لحرب رياح وزغبة في جموع الاثبج وعدي وصنهاجة وزناتة. وكانت زناتة قد اتفقت مع الاثبج على الخديعة. وكان للناصر أخ أسن منه اسمه القاسم. فنهاه عن الخروج. وقال له: أقم ببلادك وابعث إلى هؤلاء العرب وصانعهم يأتوك طائعين وفي نوالك طامعين. فأبى الا الخروج.

كان اللقاء بفحص سبيبة. ودارت رحا الحرب. فانخذل العرب وزناتة. وحقت الهزيمة. فاخذ القاسم من أخيه الناصر العمامة والراية وقال له انج بنفسك كي تحفظ الملك. وقاتل هو حتى قتل.

قال ابن الأثير: «**ومات من جموع الناصر أربعة وعشرون ألفا – وغنم العرب معسكره بسلاحه وماله ودوابه وكل ما اشتمل عليه – واقتسموا الغنيمة على ما شرطوا أولا، وبعثوا بالالوية والطبول وخيم الناصر بدوابها إلى تميم. فردها عليهم مستقبحا أخذ سلب إبن عمه**»1هـ.

واتبعت رياح الناصر إلى قسنطينة ثم القلعة. فأحاطوا بها. وساروا فيما حولها إلى المسيلة وطبنة من أرض الحضنة ينهبون ويخربون. وظاهرتهم زناتة. فحالفت مغراوة وغمرت الاثبج. وحالف بو توجين بني عدي. وبعث إليهم الناصر ابنه المنصور. فظهر عليهم وتقبض على امراء بني عدي ساكن بن عبد الله وحميد بن حرعل ولاحق بن جهان ثم ظهر العرب على الحماديين فملكوا الضواحي. وحجروا العمال في المدن. واختط الناصر بجاية فرارا منهم. وتقدم في دخول الهلاليين الجزائر ما وصف به الإدريسي حال الدولة والأمة معهم.

ولما ثار على المنصور أبو يكني عامله بقسنطينة وفر إلى أوراس نزل بقسنطينة صليصل بن الأحمر من رؤساء الاثبج. فصالحه المنصور عليهما بمال يبذله له. وقال صاحب المعجب:

«**صالح المنصور العرب على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرها وغير ذلك، فلم يزالوا يقبضون ذلك حتى ملك البلاد عبد المؤمن**»1هـ.

ولما خرج المنصور إلى تلمسان لحرب المرابطين كان معه الاثبج وزغبة ورياح والمعقل.

وفي أيام العزيز كبس العرب القلعة وأهلها غارون، فاكتسحوا جميع ما كان بظواهرها، ودافعتهم الحامية، فغلبوهم واخرجوهم من البلد، ثم ارتحل العرب وبلغ الخبر العزيز ببجاية، فأرسل ابنه يحي وقائده علي بن حمدون في عسكر وتعبية، فوصلوا إلى القلعة وسكنوا الأحوال، واستأمن العرب واستعتبوا فاعتبوا، وانكفأ يحي في عسكره إلى بجاية، وعلى أثر ذلك بلغ لبن تومرت بجاية قافلا من المشرق سنة **512**.

وفي سنة **529** أو سنة **522** نزع بعض عرب إفريقية إلى يحي مغضبين للحسن بن علي، فأغروه بالمهدية، ووعدوه الإعانة، وأعطوه أبناءهم رهائن على ذلك، فأرسل معهم الفرسان والمشاة لنظر كبير قواده مطرف ابن علي بن حمدون و لم يأمره بالقتال تعففا عن الدماء، فلما نزلوا على المهدية واشتدت الحال، ووقعت الحرب فتح الحسن الباب وخرج في أول الناس، وحمل على المحاصرين له وهو ينادي ان الحسن، فاجلوا مقمه وانهزموا عنه.

وكان الحماديون يختصون الاثبج دون سائر العرب بالرئاسة، واقطعوهم الكثير من أعمال الزاب والحضنة وضواحي القلعة، واستألفوا معهم زغبة، واستظهروا بهاتين القبيلتين على زناتة. ورئاسة زناتة يومئذ لأمراء تلمسان من بني يعلي المغراويين. فكان الأمير يحي من بني يعلى يستجيش مغراوة ويفرن وبني يلومي وبني عبد الواد وبني راشد وبني

توجين وبني مرين وغيرهم من زناتة، ويوجه عليهم وزيره وقائد حروبه ابا سعدي اليفرني. وكان موطن زغبة اقرب إلى مواطن زناتة، فدارت بين الفريقين حروب شديدة. هلك في بعضها أبو سعدي حوالي سنة **450**.

وكانت بين بطون الاثبج حروب. فقتل الحسن بن سرحان أمير دريد شبانةبن الأحمير شيخ كرفة. ثم لحقت به أخته الجازية مغاضبة لزوجها ماضي بن مقرب سيد قرة. فتحالفت على دريد كرفة وقرة. وظاهرتهم عياض. وكانت بين الفريقين موقف. قتل في بعضها أبناء شبانة الحسن بن سرحان. ثم ظهرت عليهم دريد. قال ابن خلدون:

«واستمرت الفتنة بين هؤلاء الاثبج وافترق أمرهم. وجاءت دولة الموحدين وهم على ذلك الشتات والفتنة»1هـ.

وبعد سقوط الدولة الحمادية ضعفت الاثبج .بما كان بينها من الفتن وذهاب الدولة التي كانوا يستدرون خيراتها. فأزال عبد المؤمن ما كان لهم من امتيازات. ونقل منهم إلى الأندلس. ثم نقل أبناؤه بعض بطونهم إلى المغرب الأقصى. فقل جمعهم بالجزائر. وتغلبت رياح على كثير من مواطنهم.

زناتة أيام الحماديين:

كانت رئاسة زناتة مفترقة في قبائلها وبطونها. والفتن متصلة بين المتجاورين منهم: بين مغراوة ويفرن وبين يلومي وبني ومانو وبين بني بادين وبني مرين. وهكذا غيرهم.

وكانت مغراوة أعظم قبائلهم وإمارة بني خزر منهم أعظم إمارات سائر القبائل فلما أجلاهم بلقين بن زيري عن المغرب الأوسط أسسوا إمارات بالمغرب الأقصى. وأمدهم بنو أمية بالرجال والأموال ليكونوا حاجزا دون سيل الدولة العبيدية.

وفي سنة **377** نزع سعيد بن خزون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة. ورأس على زناتة الحضنة والزاب. وفيها ملك ابن عمه زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر مدينة فاس. وأخذ يجلب على صنهاجة. وثار عليها أيضا فلفول بن سعيد. وظهرت قوة زناتة أيام باديس. فهزموا جيوشه مرارا حتى رماهم سنة **395** بحماد وسوغ له ما يفتحه من أوطانهم.

وفي سنة **93** استرجعت الدولة الأموية عمالها من المغرب واستقل به المعز بن زيري من عطية على شروط بينه وبين بني أمية. وقال ابن خلدون في أخبار تلمسان: «**كان ذلك سنة 96 فاستعمل المعز على تلمسان ابنه يعلى. واستقرت ولايتها في عقبة إلى ان انقرض أمرهم على يد لمتونة**» **1**هـ.

قال ابن أبي زرع: «**وقيل ان المعز بن زيري ليس له ولد الا معنصر خاصة»1هـ**. ونسب ابن خلدون في أخبار مغراوة يعلى إلى محمد أخي عبد الله ابني خزر فقال هو يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر.

وكانت إمارة بني يعلى بتلمسان تشتمل على وهران وتلك النواحي. ومدوا أيديهم إلى إخوانهم أصحاب فاس. واستعانوا على محاربة من ناوأهم من صنهاجة وغيرهم ببقية زناتة.

وظهر أمر بني ومانو وكان شيخهم ماخوخ. وله خيمة شهيرة قال أبو راس: «**وآثارها اليوم ببلاد أولاد علي»1هـ**. ونازعهم بنو يلومي. فكانت بينهم حروب وكان من شيوخهم أمير الناس ثم ابنه سيد الناس. أدركه الموحدون. ونقلوه في وجوه قومه إلى مراكش. وبها توفي أيام عبد المؤمن. وكان بنو ومانو وبنو يلومي قد غلبوا وجديجن على مواطنها كل من جهته. ثم غلبهم جميعا أيام الموحدين بنو عبد الواد وبنو توجين.

وكان شيخ اوغمرت ابن أبي حلي وشيخ توجين دافلتن بن أبي بكر المنكوشي.وينازعه ابن عمه لقمان بن المعتز حتى ظهر عليه. ثم انفرد بالرئاسة بنو دافلتن. و لم يكن يومئذ لمصاب كبير شان لافتراق جماعاتهم وتنازعهم على الرئاسة.

وكان بنو يعلى وبنو ومانو وبنو يلومي يستظهرون ببطون بني واسب. ويقرضونهم المال والسلاح والحبوب. فراشوا. واخذوا في الظهور.

وكان الحماديون كثيرا ما يجلبون على زناتة ويستعينون بهم بعضهم على بعض. وقتل حماد قبل استقلاله دافلتين بن أبي بكر في بعض حروبه ولما أعلن استقلاله نزع عنه ابن أبي حلي إلى باديس. فوصله وحمل اصحابه. وعقد له على طبنة وعملها. وأوفد لقمان بن المعتز ابنه بدرا على باديس وهو في طريقه اثر حماد، وتحيز إليه أيضا عطية بن دافلتن، وكانت لتوجين في حرب حماد آثار، ومقاتلتهم يومئذ زهاء ثلاثة آلاف. فلما انهزم حماد سوغهم باديس ما غنموه. وعقد للقمان على قومه وما يفتحه من البلاد بدعوته.

وفي سنة **430** جمع صاحب فاس حمامة بن المعز بن عطية زناتة لحرب القائد فاشترى القائد ذممهم بالمال. ولم يسع حمامة الا الخضوع. وكان بلقين كثيرا ما يجدد الغارة على المغرب، ويجمع زناتة لذلك، ثم خرج في صفر سنة **54** فاجلي عنه يوسف بن تاشفين، وعاد فقتله الناصر بتسالة في شعبان.

واستمال الناصر بني ومانو، وتزوج منهم، فكانوا أولياءه دون بني يلومي، وجرت عليه زناتة الهزيمة في وقعة سبيبة وقائدها يومئذ صاحب فاس، وزحف المنتصر بن خزرون بن سعيد بن خزرون من طرابلس في جمع من بني عدي، فنازل المسيلة واشير. وطمع في استرجاع ما كان لجده بالحضنة، فأجلاه الناصر إلى الصحراء، ورجع إلى القلعة، فعاد المنتصر عائثا في تلك الجهات، فصالحه الناصر. واقطعه ضواحي الزاب وريغة مزمعا الغدر به، وكلف بتدبير اغتياله عروس بن سندي، فاستدعاه إلى

بسكرة، واشار على حشمه بقتل المنتصر وذويه عند انكبابهم على الطعام، ففعلوا، وبعث برأسه إلى الناصر، فنصبه ببجاية وصلب شلوه بالقلعة وكان ذلك حوالي سنة **460**.

وتتبع الناصر أمراء زناتة بالقتل. وكانت غمرت ومغراوة قد ظاهرت الاثبج وبنو توجين ظاهروا عديا، فجهز ابنه المنصور إليهم، فشتت جموعهم، وبلغت سراياه ورقلة، فدخلها وولي عليها، واسر من توجين أميرهم مناد بن عبد الله وأخاه زيري وعميهما الأغلب وحمامة، فلما حضروا بين يدي الناصر وبخهم ثم قتلهم.

وكان من بني سنجاسن رئيسان احدهما أبو الفتوح بن حنوش **(وفي بعض نسخ ابن خلدون حبوس)** بلمدية ثار على الناصر فقتله، والآخر معنصر بن حماد بناحية شلف، اجلب على عامل مليانة، وقتل شيوخ بني ورسيفان، وكان الناصر مشتغلا بأمر العرب، فكاتب في شانة بني ورسيفان، فزحفوا إلى معنصر وقتلوه، وبعثوا إلى الناصر برأسه، فنصبه مع رأس المنتصر.

ثم غلب العرب على الحضنة، والجأوا غمرة إلى الجبال. فعجزت عن الظعن بعد. وتغلبوا أيضا على الزاب. وأخروا بني واسين إلى الغرب. فلاذوا بإخوانهم بني يلومي وبني ومانو وانتدب لدفاع العرب بنو يعلي. فجهز بختي منهم وزيره وصاب حروبه أبا سعدي خليفة اليفرني. فكانت بينهما مواقف صعبة. هلك في بعضها بالزاب حوالي سنة **450**.

ولم يزل بنو يعلى بتلمسان. وأيامهم مع الحماديين تختلف سلما وحربا. وتوفي بختي فخلفه ابنه العباس. وظهر أيامه المرابطون. وتغلبوا على فاس. فنزع إليه كثير من أهلها من مغراوة. ثم اجلب عليهم المرابطون. فحاربهم. ودخلوا عليه تلمسان سنة **473** فقتلوه. وبذلك انتهت إمارة بني يعلى بتلمسان بعدما عاشت نحوا من مائة سنة.

وكان الناصر يردد غزو المغرب. فوقف المرابطون بمكانهم من تلمسان إلى ان هلك. وكانت أخت ماخوخ تحت المنصور. وكان لقومه بذلك مزيد ولاية في الدولة. ولكنه وإلى المرابطين على صنهاجة لما كان المنصور مشتغلا بفتنة أبي يكنى. فدخل المرابطون أرض صنهاجة. وبعد قضاء المنصور على تلك الفتنة زحف إليهم وأخرب ثغورهم وحصون ماخوخ. وضيق عليهم. فصالحه يوسف بن تاشفين. وقبض عنه أيدي المرابطين. ثم عاد المرابطون إلى الاجلاب على صنهاجة فخرج إليهم الأمير عبد الله بن المنصور. فرجعوا أدراجهم وشن هو الغارة على بني يلومي وبني ومانو وفتح الجعبات وسيرات. وعفا عن أهلهما ورجع إلى أبيه ظافرا. والجعبات على ضفة وادي مينة اليسرى.

واعتد المنصور على ماخوخ ولاءه للمرابطين. فخرج إليه بنفسه في صنهاجة ومن والأهم. وجمع له ماخوخ زناتة. فهزمه إلى بجاية. ولم يفعل المنصور اكبر من تعديه على زوجه أخت ماخوخ. فقتلها!

إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول

استحكمت النفرة بين المنصور وماخوخ بعدها. فجمع ماخوخ بني يلومي وبني ومانو على دعوة المرابطين. وأوفد احد بنيه على محمد بن تينعمر أمير تلمسان يحرضه على بلاد صنهاجة. فخرج في جموع المرابطين وزناتة حتى نازل الجزائر وحاصرها يومين. مات عقبها فخلفه أخوه تاشفين. ومازال يجلب على صنهاجة حتى فتح أشير.

هنالك جمع المنصور عامة صنهاجة ومن الأهم من العرب. وخرج إلى تلمسان في شوال سنة **496** كما في الإعلام، وبلغت مقاتلته نحو عشرين ألفا. فأفرج له تاشفين عن تلمسان، وخرج إلى تسالة، فهزمته عساكر المنصور إلى الصخرة وعاثت في تلمسان فنهضت امرأة تاشفين إلى المنصور، وانكبت على رجليه تستعطفه وتذكره صلة الرحم الصنهاجية لرفع محنة الجند عن البلد، فأكرم المنصور مقدمها وكف جنوده عن الفساد، وخرج من الغد قافلا بهم إلى حضرته، وانعقدت السلم بينه وبين المرابطين. وعزل يوسف بن تاشفين أمره بتلمسان تاشفين بن تينعمر ترضية للمنصور.

نزل المنصور بعد قفوله بالقلعة وأثخن في زناتة بنواحي الزاب والمغرب الأوسط، ثم عاد إلى بجاية، فمات بعد أشهر، ولما ولي العزيز صالح زناتة، تزوج ابنة ماخوخ.

لما كف الحماديون عن بني ومانو وبني يلومي تذكروا ضغائنهم. وعادوا إلى العداء. فكانت بينهم حروب. هلك في بعضها ماخوخ. فخلفه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر. وكان بنو عبد الواد وتوجين وبنو

راشد وبنو ورسيفان مددا لبني يلومي. وربما مادهم أيضا بنو مرين. و لم يزالوا في فتنتهم حتى جاء الموحدون.

الحماديون والمسيحيون:

عرف المغرب في هذا العصر البربري من أمم أوروبا المسيحية أمة النرمان واصل هذه اللفظة نرثمن. ومعناها رجال الشمال. وهم من النرويج والدانمارك. انتشروا في شرق أوروبا. وانتقلوا أيام شرلمان إلى الغرب وسكنوا حوالي الأودية الفرنسية. واستقروا سنة **299** (**911**م) بنرمنديا إحدى كور فرنسا.

وكانت القرصنة بالبحر أهم أعمالهم. وهجموا على الأندلس من ناحية اشبونة سنة **229** وتكرر اجلابهم على الثغور وبلغوا سنة **245** بلد نكور من سواحل المغرب.

و لم يكن للنرمان قبل بالأساطيل العربية حتى جاء الهلاليون وضعفت دولة صنهاجة بانقسامها. واستيلاء العرب على أراضيها واستتراف ماليتها بالعطاءات تسكينا لثوراتهم واستبداد كثير من الولادة على المدن. وحدث بين الصقليين شقاق فاستعان بعضهم بالنرمان. فخفوا لنصرتهم. ولكن لما نزلوا المدن رفعوا عليها أعلامهم وذهبت صقلية شهيدة الخلاف والخديعة. فاستولى النرمان عليها سنة **485** وأصبحت مركزا عظيما للنصارى في الحروب الصليبية.

وكان الحماديون أقوياء. فلم يقدر النرمان على التوسع إلا في المملكة الشرقية الضعيفة ولم يطب آل باديس نفسا بتسليم المملكة للحماديين. فاخذوا يفاوضون المرابطين ويدعونهم لحماية ثغورهم. ولا طريق لهم إلا بالممكلة الحمادية. فشمر الحماديون عن ساعد الجد لقطع كل حركة تمس باستقلالهم حتى عقد معهم المرابطون معاهدة سلمية ودية.

كان الحماديون يرون في توهين الرومان لبني عمهم إعانة لهم على امتلاك مملكتهم يوما ما. ورأى النرمان ان لايهيجوا الحماديين بسوء. فظلت العلاقات بينهم حسنة. ولكن النرمان لما رأوهم ملكوا جربة وطمعوا في المهدية قلبوا لهم ظهر المجن.

ففي سنة **537** طرق النرمان جيجل فاحتلوها عنوة. وانتهبوا الأموال وأحرقوا المنازل وخربوا قصر النزهة الذي بناه يحي بن العزيز وسفكوا الدماء وسبوا الحريم. ولم ينج من أهلها الا من تعلق بالجبل. ثم أقلعوا عنها. وتركوها خاوية على عروشها. وفي سنة **539** فتحوا برشك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين.

ولما ملك عبد المؤمن بجاية وخضع له يحي لحق أخوه الحارث صاحب بونة بصاحب صقلية. فأعانه على البقاء بها حتى أخذها منه عبد المؤمن.

هذه علاقات الحماديين والمسيحيين السياسية وكانت بالمدن الحمادية طوائف مسيحية إما من بقايا الرومان أو من البربر الذين فقدوا

جنسيتهم ونسوا أصلهم أو من سبي أوروبا فكان الحماديون يحسنون معاملتهم ويحفظون حقوقهم على أقليتهم إحسانا وحفظا لم يوجد ما يقرب منهما في عصر يزعم القابضون على مناحي حياته أنهم أرقى دولة عرفها التاريخ وان عصرهم أزهر العصور، زعما لا مؤيد له غير القوة المادية.

وهاك ملخص ما أطال به ذوماس لتري في وصف حياة المسيحيين تحت الحماديين. قال:

«كان لبابوات رومة علائق مع الحماديين وخصوصا أشهرهم الناصر بن علناس ويلقبونهم ملوك موريطانيا السطيفية».

«ولما أسسوا القلعة تقبلوا بها المسيحيين بصدور رحبة. وأحسنوا إليهم مدة دولتهم. وضمنوا لهم حرية دينهم تحت قسيس منهم من رتبة (أفيك)».

«وفي سنة 508 (1114م) أسسوا بالقلعة كنيسة مريم العذراء. وقسيسهم يومئذ عزون. وتسميه العامة الخليفة. وابتنى لنفسه دارا حذاء الكنيسة».

«وانتخب أهل بونة أسقفا عليهم يدعى سرفاند. فسماه لهم ارشفيك قرطاجنة وصادق عليه الناصر، ولما سافر سرفاند إلى رومة حمله الناصر هدايا جليلة ورسالة ودية إلى البابا قرقوار السابع.

واشترى جميع الأسرى الذين عثر عليهم بممالكه وأرسلهم إلى البابا واعدا إياه بعتق كل أسري مسيحي يعثر عليه من بعد».

«سرت الكنيسة الرومانية كثيرا بفعل الناصر. فلما عاد سرفاند إلى بونة أرسل معه كبار رجال الكنيسة رسائل شكر وثناء للناصر. وأرسل له البابا أيضا رسالة خاصة تعد اكبر رسالة وأعظمها أرسلت من بابوات رومة إلى ملوك المغرب وذلك سنة 469(1076م)».

«ولم يحفظ التاريخ جواب الناصر عن هذه الرسالة ولا ما نشأ عنها. والرسالة تنص على ان البريك وكنشبوش من خدام قصر البابا الذين نشأوا به يرغبان رغبة شديدة في شرف خدمة الناصر برومة. وأنهما أرسلا له بعض رجالهما لتأكيد ودادهما، وتنص الرسالة أيضا على أن البابا مستعد لمعاملة كل من تعلق بالناصر معاملة ودية صادقة»1هـ. وقد أثبت ذوماس الرسالة بنصها اللطيني وترجمتها الفرنسية. ومنعنا من تعريبها طولها وما قصدنا إليه من الإيجاز.

العمران والحضارة:

كانت المملكة الحمادية تشتمل على أرض طيبة وجبال جالبة للأمطار واودية حافظة لها، وعني الحماديون بحفظ الأمن واستخراج خيرات المملكة، فلم ينوا في إطفاء الثورات الداخلية وصد الهجومات الخارجية وتنظيم البريد وتأمين السبل.

نشطت الفلاحة فأحيي موات الأرضين وازينت البوادي وضواحي المدن والقرى بالمزارع على اختلاف أنواعها ونصبت الارحاء على أرجاء الأودية والجداول وغرست البساتين الجامعة لأنواع الأشجار والأزهار.

ونفقت الأسواق بمختلف البضائع. فكانت الطرق البرية غاصة بالقوافل، والبحار والأودية الكبار تشقها أسراب السفن التجارية غادية رائحة.

وتعددت الصنائع وترقت الحرف من خشابة ونجارة وخراطة وحدادة وحياكة صوف وقطن وكتان وحرير، واستخرجت المعدن من مختلف الجهات.

وزاد الحركة العمرانية نموا فرار الناس من إفريقية إلى الحماديين أمام الهجوم الهلالي ومن صقلية أمام استيلاء النرمان ومن الأندلس أمام استيلاء المرابطين. ووطد أركان هذه الحركة بسط المرابطين لنفوذهم الفعلي على عواصم القوة الزناتية غربا التي كانت أكبر شاغل للحماديين.

وساعد هذا العمران على إنشاء حضارة من أرقى الحضارات من نقش وتزويق وغناء وبناء، وقد عثر على أوان من الخزف المطلي فيها كتابات عربية بارزة، وقارورات وبعض أدوات من الزجاج. وكلها تدل على صناعة خزفية وزجاجية راقية.

وذكر ياقوت القلعة. فقال: «**يتخذ بها اللبابيد الجيدة والأكسية القلعية الصفيقة النسج المطرزة بالذهب. ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابريسم**»اهـ.

قال جورج مارصي: «**وحوالي سنة 457 (1065م) صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات، وقصدها ارباب الصنائع من المشرق وإفريقية، ويظهر ان صناعة الفخار يومئذ بلغت بها مبلغا عظيما ويظهر عليها تأثير الفرس ومصر فنا وعملا، وجد بها من ذلك آثار كثيرة، ثم ترقت الصناعة وتطورت حسب تطور الدولة في العظمة»1هـ.**

وكانت موسيقى الجزائر الحمادية متأثرة بالموسيقى الإفريقية والأندلسية. ينشطها الملوك والأمراء. فيتخذون بمجالستهم المغنين والمغنيات. وعاش إلى جانبها أغاني العرب في باديتهم والبربر في جبالهم. فكان للحاضرين أغانيهم الفنية القابلة للتهذيب والرقي، وللبادين أغانيهم الموروثة عن أسلافهم المتعاصية عن التطور.

وقد أنشأ الحماديون القصور في مختلف المدن والمساجد والجوامع والمنائر والمنابر والأسواق والأسوار والقناطر، وأصلحوا ما تداعى من إنشاء من قبلهم وأسسوا المدينتين العظيمتين القلعة وبجاية، وبنوا حولهما القصور الشاهقة والمباني الجميلة.

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان

بنى الناصر حول القلعة قصورا شامخة مسماة بعدة أسماء، قال ابن خلدون: «**وبني ببجاية قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا»1هـ.** قال أبو راس: «**وكان بناؤه حوالي سنة 470»1هـ.**

والمنصور قال ابن خلدون: «هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة، وجدد قصورها وشيد جامعها وتانق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام، وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميميون» 1هـ.

قال صاحب الاستبصار: «وفي بجاية موضع يسمى اللؤلؤة، وهو أنف جبل داخل في البحر متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراءون أحسن منها بناء ولا أنزه موضعا. فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد، ومجالسها مبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، قد نقشت أحسن نقش، وأنزلت بالذهب، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور» 1هـ.

قال مارصي: «إن الحضارة الحمادية تظهر تحت تأثير المشرق. وآثارها لانظير لها ببقية وطن البربر، وهي شاهد قوي على رقي الحضارة الإسلامية المغروسة بالجزائر.

وكان النرمان مغرمين بالحضارة الحمادية، فوضعوا قصور بلرم على شكل قصور بجاية، وكان قصرا زيزة وكوبة ببلرم شديدي الشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب وأميميون».

وكان محمد بن حماد ببجاية ولوعا بندب آثار أسلافه الحماديين بالقلعة وما حولها من الأمكنة، فمن ذلك قوله:

أين العروسان لا رسم ولا طلـــل ... فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر بلارة أودى الزمان بـــــه ... فأين ما شاد منه الســـــادة الأول
قصر الخلافة ابن القصر من خرب ... غير اللجين وفي أرحائها زحـــــل
وليس يبهجني شيء أسر بـــــه ... من بعد ان نهجت بالمنهج السبـــل
وما ورا الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرا لكوكب التغيير والنـــدل
وقد عفا قصر حماد فليس لـــــه ... رسم ولا أثر بـــاق ولا طلـــــل
ومجلس القوم قد هب الزمان به ... بحادث قل فيه الحادث الجلـــــل
وان في القصر قصر الملك معتبرا ... لمن تغربه الأيـــام والـــــدول
وما رسوم المنار الآن ماثلـــــة ... لكنها نبذ يجـــري بها المثـــــل
حتى المصلى محت آياتها وعفت ... الا جدارا وما طلعت به الطلـــل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة ... فما تراه كذالك العمر والأجل

وله من أخرى

الا ليت شعري هل أبيتن ليلـــــة ... بوادي الجوى ما بين تلك الجداول
وهل اسمعن تلك الطيور عشيـــة ... تجاوب في تلك الغصون البلابـــل
وهل أردن عين السلام على الصدى ... فابرد من حر الضلوع النواهـــل
وانظر طيقان المنـــــار مطلــة ... على الواجنات الزاهرات الخمائل
كأن القباب المشرقـــات بأفقـــه ... نجوم تبدت في سعود المنـــــازل
فان ثنت الأيام عنهـــا اعنتـــي ... وانزلنني في غير تلك المنــــازل
فصبر جميل غيــــر ان صبابتـــي ... ستبقى بقاء الطالعات الاوافـــل

وله من أخرى

على عين السلام سلام صب غذاة ماؤها العذب النمير

تأود أيكها وجرت صباها وشم لها كما فتق العبير

وابرد مايكون الجو فيهـــا واندى حين يحتدم الهجير

وما ادري ايجري فوق در أم ابتسمت بمنبعها الثغور

وقد قام المنار على ذراها كما قام العروس أو الأمير

بناء يزدرى إيران كسرى لديه والخورنق والسديـــر

وقد ذكر في نفح الطيب قصيدة لعبد بن حمديس الشاعر الصقلي يصف بها دارا بناها الملك المنصور ببجاية، ولدقة وصفها وحسن تصويرها للحضارة الحمادية نوردها على طولها، قال:

أعمر بقصر الملك ناديـــك الـــذي أضحـــى بمجدك بيته معمـــورا

قصر لو انك قد كحلت بنـــــوره أعمى لعاد إلى المقام بصيـــرا

واشتق من معنى الجنان نسميــــــه فيكاد يحدث بالعظام نشورا

نسي الصبيح مع الفصيح بذكـــره وسما ففاق خورنقا وسديرا

لو ان بالايوان قوبل حسنــــــــه ما كان شيئا عنده مذكورا

اعيت مصانعة على الفـــــرس الإلى رفعوا البناء واحكوا التدبيرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا لملوكهم شبها له ونظيـــرا

أذكرتنا الفردوس حين اريتنــــــا غرفا رفعت بناءها وقصـــورا

فالمحسنون تزيـــدوا أعمالهـــــــم ورجوا بذلك جنة وحريـــرا

والمذنبون هدوا الصراط وكفـــرت حسناتهم لذنوبهم تكفيـــــرا

فلك من الأفلاك الا انه　　حقر البدور فاطلع المنصورا

ابصرته فرأيت أبدع منظر　　ثم انثنيت بناظري محسورا

فظننت أني حالم في جنة　　لما رأيت الملك فيها كبيرا

إذا الولائد فتحت أبوابه　　جعلت ترحب بالعفاة صريرا

غضت على حلقاهن ضراغم　　فغرت بها أفواهها تكبيرا

فكأنما لبدت لتهصر عندها　　من لم يكن بدخولها مأمورا

تجري الخواطر مطلقات اعنة　　فيه فتكبو عن مداه قصورا

بمرخم الساحات تحسب انه　　فرش المها وترشح الكافورا

ومحصب بالدر تحسب تربه　　مسكا تضوع نشره وعبيرا

تستخلف الأبصار منه إذا أتى　　صبحا على غسق الظلام منيرا

قال المقري: ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها المياه وتفنن فذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالمياه أيضا.

فقال:

وضراغم سكنت عرين رئاسة　　تركت خرير الماء فيه زئيرا

فكأنما غشي النضار جسومها　　وأذاب في أفواهها البلورا

أسد كان سكونها متحرك　　في النفس لو وجدت هناك مثيرا

وتذكرت فتكاتها فكأنما　　أقعت على أدبارها لتثورا

وتخالفها- والشمس تجلوا لونها-　　نارا والسنها اللواحس نورا

فكأنما سلت سيوف جداول　　ذابت بلا نار فعدن غديرا

وكأنما نسج النسيم لمائه　　درعا فقدر سردها تقديرا

وبديعة الثمرات تعبر نحوها　　عيناي بحر عجائب مسجورا

شجرية ذهبية نزعـــــــت إلى ... سحر يؤثر في النهى تأثيـــــرا
قد صوفحت أغصانها فكأنـــــما ... قبضت بهن من الفضاء طيــورا
وكأنما تأبى لوقع طيـــــرها ... ان تستقل بنهضها وتطيـــــرا
من كل واقعة ترى منقـــــارها ... ماء كسلسال اللجين نميـــرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت ... جعلت تغرد بالمياه صفيـــــرا
وكأنما في كل غصن فضـــــة ... لانت. فأرسل خيطها مجـــرورا
وتريك في الصهريج، موقع قطرها ... فوق الزبرجد لؤلؤا منثـــورا
ضحكت محاسنه إليـــــك كأنما ... جعلت لها زهر النجوم ثغـــورا
ومصفح الأبواب تبرا نظـــروا ... بالنفش فوق شكوله تنظيـــــرا
تبدوا مسامير النضار كما علـت ... تلك النهود من الجنان صـــدورا
خلعت عليه غلائلا موشيــــــة ... شمس ترد الطرف عنه حسيـــرا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفــه ... أبصرت روضا في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي ... حامت لتبني في ذراه وكـــورا
وضعت به صناعها أقلامهـــــا ... فأرتك كل طريدة تصويـــرا
وكأنما للشمس فيه ليقـــــــة ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما الازورد فيه مخــــــزم ... بالخط في ورق السماء سطورا
وكأنما. وشوا عليه مـــــــلاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا.

قال المقري: ثم مدح المنصور بعد ذلك. وختم القصيدة بقوله:

يامالك الأرض الذي أضحى له ... ملك الساء على العداة نصيرا
كم من قصورا للملوك تقدمت ... واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياســة ... منها ودمرت العدا تدميرا.

قال المقري: «**ولم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير غير أن فيها عندي عيبا واحدا هو ختمها بلفظ التدمير»1هـ**. واخترنا هذا البيت لختام هذا الفصل من اجل لفظ التدمير الذي تحقق في العمران والحضارة الحماديين كما هو الشأن في آثار كل الدول سنة الله قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا.

العلوم والاداب:

كان عصر الحماديين عصر إنشاء وترقية في جميع مناحي الحياة المدنية. فضربوا في العلم والأدب بسهم، ونشطوا أهلها بالجوائز والصلات فارتحل إليهم أمثال ابن حمديس الصقلي من الأدباء، وأبي الفضل بن النحوي التوزري من العلماء وكان يشبه بابي حامد الغزالي. فغضت عواصمهم بطلاب المعارف وناشريها وكان العلماء يتناظرون في مجالس بني حماد ويؤلفون لهم الكتب. وذكر ابن الآبار في التكملة ان حماد بن ابراهيم المخزومي ألف كتابا في التاريخ للعزيز.

ظهر بالجزائر الحمادية العلماء والشعراء والكتب والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم، ظهورا لا عهد للجزائر به من قبل. وكانت لعلوم الدين المترلة الأولى ويليها علوم العربية. وينسب إلى القلعة وبجاية فما دونهما من ممالك الحماديين علماء كثيرون تجد نبذا من أخبارهم

متفرقة في الدواوين. ولكيي تتصور إجمالا مبلغ الحركة العلمية بهذا العصر ننقل كلمة لياقوت ذكرها لما ذكر ريغة وانها قرب القلعة. قال:

«قال أبو طاهر بن سكينة سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد ابن يوسف الزناتي الضرير بالثغر يقول حضرت هرون بن النصر الريغي بالريغ في قراءة البخاري والموطأ وغيرهما عليه وهو يتكلم على معاني الحديث. وهو أمي لا يقرا ولا يكتب ورأيته يقرا كتاب التلقين لعبد الوهاب البغدادي في مذهب مالك من حفظه كما يقرا الإنسان فاتحة الكتاب. ويحضر عنده دوين مائة طالب لقراءة المدونة وغيرها من كتب المذهب عليه»1هـ.

ولتقدم العلوم العربية في هذا الدور ظهر من اليهود الذين دأبهم مسايرة الوسط نبغاء طار صيتهم في الآفاق وكانوا من بلغاء الكتاب العربيين.

وكانت العربية هي اللسان الرسمي للدولة. وجاء الهلاليون بلغتهم القريبة يومئذ جدا من الفصحى فنشروها بين سائر الطبقات وسهلوا على الخاصة تعلم العربية وعلى العامة تعلم دينها. ولم يبق كبير حاجة إلى التدريس أو التأليف باللسان البربري في الجزائر كما كان الأمر في أيام الرستميين.

تقهقرت البربرية من الميدان العلمي والأدبي. وزاحمتها العربية في المجالس العامة فاستعرب كثير من البربر. ولم يبق للبربرية موطن الا جبال أوراس وتيطري وجرجرة ونحوها حيث لم يختلط البربر بالعرب.

والذي دعا البربر إلى هذا الاستعراب والدولة دولتهم والحكومة حكومتهم ما يعتقدونه من شرف العربية وغناها وكونها لغة الدين. فصاروا يتشرفون بإجادة النطق بها. وهكذا تأثير الأديان في رفع الفوارق الجنسية.

سقوط الدولة الحمادية:

في سنة **539** كانت الحرب على تلمسان بين تاشفين أمير المرابطين وعبد المؤمن بن علي أمير الموحدين. واستنجد تاشفين يحي بن العزيز. فمده بجيش يقوده ميمون بن حمدون، ففتك بهذا الجيش عبد المؤمن، وانهزم ميمون إلى متيجة. فبعث منها إلى عبد المؤمن بالطاعة ووعده الإعانة على فتح المشرق وان يكون قائده. واستمرت المكاتبة بينهما بعد.

تم للموحدين الاستيلاء على ممالك المرابطين فجاوروا يحي بن العزيز وهم في دورهم الأول ودور النمو وشباب القوة الحربية، في حين ان الحماديين انغمسوا في حياة الترف، فكان يحي مشتغلا باللهو تاركا أمور المملكة بيد وزيره ميمون ابن حمدون.

ولما كان هذا الوزير غادرا بدولته مواليا لعبد المؤمن أغفل الممالك الغربية المجاورة للموحدين. وصرف عساكره إلى الناحية الشرقية حيث

ممالك بني باديس الذين إشتد ضعفهم. فانتصر هنالك عدة انتصارات زادت بحي بن العزيز غرورا بصدق خدمته، وانما صدق ابن حمدون في خدمة عبد المؤمن، فضرب دولتي صنهاجة إحداهم بالأخرى توطئة لاستيلاء عبد المؤمن عليهما.

وفي سنة **46** عزم عبد المؤمن على فنح بجاية. فخرج من مراكش إلى سبتة موهما انه يريد الأندلس. وأوقف حركات القوافل. وجعل أمناء على الطرق لئلا يسلكها احد. وغرضه كف الأخبار عن يحي ابن العزيز حتى لايستعد له، ثم أظهر العود إلى مراكش. وسلك طرقا غير معتادة. ومنع من السؤال عن وجهته. فنادى مناديه: «**أيها الناس من تكلم منكم بما معناه إلى أين هذا السفر فجزاؤه السيف!**».

وأخذ عبد المؤمن السير. فمكث بتلمسان يوما واحدا. وخرج. فملك لمدية. وبلغ الجزائر على حين غفلة. فاحتلها من غير مقاومة. وفر عاملها القائد بن العزيز إلى أخيه يحي فاخبره خبر عبد المؤمن. ولم يكن له به علم. وكان بالجزائر الحسن بن علي آخر ملوك آل باديس. فسر بعبد المؤمن. فترك الجزائر تحت نظره. وسار من الغد بالجيوش إلى بجاية.

جهز يحي الجيوش لنظر أخيه سبع وخائن دولته ميمون بن حمدون فلما التقوا بمقدمة الموحدين انهزموا من غير قتال. واستأمن بنو حمدون للموحدين وفتح لهم باب بجاية أبو عبد الله بن ميمون. فدخلوها في ذي القعدة سنة **47**.

تفرقت جيوش يحي برا وبحرا. وركب هو البحر يريد صقلية كي يتوجه منها إلى بغداد حيث خلفاؤه العباسيون. ونزل ببونة على أخيه الحارث فنكر عليه تسليمه العاصمة وأساء مقابلته. فعدل إلى قسنطينة. فنزل له عنها أخوه الحسن وأحسن مقابلته.

ولحق عبد المؤمن ببجاية بعد يومين من فتحها فاجتمعت خلائق من صنهاجة لحربه. وقدموا عليهم أبا قصبة من بني زلدوي، وانضاف إليهم خلق كثير من كتامة ولواتة وغيرهم. ولقيتهم جيوش الموحدين في عرض الجبل شرقي بجاية. فهزموا أبا قصبة وقتلوا كثيرا من أصحابه. ثم توجهوا إلى القلعة. فدخلوها عنوة وقتلوا عاملها جوشن بن العزيز وثمانية عشر ألفا من أهلها. وغنموا خيراتها. وتفرقت السرايا في الجهات. فحاصروا قسنطينة حتى نزل يحي على الأمان وبايع لعبد المؤمن.

هنالك ركب الحرث صاحب بونة إلى صقلية مستصرخا بالنرمان واجتمع العرب لدفاع عبد المؤمن. فأوقع بهم الموحدون نواحي سطيف في صفر سنة **48** وقيعة شنعاء وجاء الحارث بأسطول النرمان تحت قيادة فيليب المهدوي فحاصر بونة وأعانه العرب على فتحها. فدخلها فيليب في رجب وسبى أهلها وملك ما فيها. وأغضى عن طائفة من العلماء والصلحاء. فتركهم نجوا باهليهم وأموالهم إلى القرى. وبعد عشرة أيام سلم أمرها للحرث وركب هو إلى المهدية فصقلية. فأتى الأساقفة والقسوس والرهبان بإحراقه لرفقه بأولئك العلماء والصلحاء، فأحرق في رمضان وهكذا تطبق رحمة المسيحيين!

بقي الحرث ببونة حتى استولى عليها الموحدون سنة **551** فقتلوه صبرا وانقرض ملك بني حماد. وبقيتهم بوادي بجاية، قال ابن خلدون: **«وهم في هذا العهد في عداد الجند. ولهم إقطاع على ذلك بنواحي البلد»**.

تأسست الدولة الحمادية سنة **405** وسقطت سنة **547** فكانت مدتها **142** سقطت وهي أقوى ما يكون كما يموت المرء وهو في شبابه، وليس لهو يحي هو علة السقوط اذ لم ينشأ عنه اختلال في الدولة. ونرى لسقوطها عللا هي:

1- خيانة ميمون، وهي خيانة باردة لأنه لا يرجو في دولة عبو المؤمن أكثر من ان يكون وزيره المفوض وقد نال ذلك مع يحي.

2- ضعف العصبية القومية، فقد أكلت صنهاجة الحروب، ومالوا منذ أيام العزيز إلى الترف.

3- فقد الغيرة الوطنية من المسلمين لان كلا من الحكومتين القديمة والجديدة إسلامية، فهم لايتفانون في نصرة القديمة ولا يرون في الجديدة عدوا.

4- قوة هذه الدولة الجديدة وعظمة رئيسها عبد المؤمن الذي لا يعرف التاريخ كثيرا من أمثاله في السياسة الحربية.

وبسقوط الدولة الحمادية انقرضت الدعوة العباسية من المغرب. فلم تظهر به إلا أيام ابن عانية. ولم تنقطع قبل منه إلا أيام بني عبيد، ولهذا رأينا أن نرسم جدولا للخلفاء العباسيين من أول أمرهم إلى انتهائه من

بغداد، وقد قسمهم ابن خلدون في هذه المدة إلى أربع طبقات، الأولى ذات النفوذ العام، الثانية ذات النفوذ الخاص ببغداد وما قرب منها، الثالثة ذات الخلافة الإسلامية فاقدة النفوذ ببغداد نفسها، الرابعة المسترجعة للنفوذ ببغداد خاصة إلى أن قتل التتر المستعصم سنة **656**.

الطبقة الأولى

الخليفة	الولاية هـ	م	الخليفة	الولاية هـ	م
عبد الله السفاح	**132**	**750**	محمد الأمين ابن الرشيد	**193**	**809**
أخوه أبو جعفر المنصور	**136**	**754**	أخوه عبد الله المأمون	**198**	**813**
ابنه محمد المهدي	**158**	**775**	أخوهما محمد المعتصم	**218**	**833**
ابنه موسى الهادي	**169**	**785**	ابنه هرون الواثق	**227**	**842**
أخوه هرون الرشيد	**170**	**786**	أخوه جعفر المتوكل	**232**	**846**

الطبقة الثانية

الخليفة	الولاية هـ	م	الخليفة	الولاية هـ	م
محمد المنتصر ابن المتوكل	**247**	**861**	علي المكتفي ابن المعتضد	**289**	**902**
احمد المستعين ابن المعتصم	**248**	**862**	أخوه جعفر المقتدر	**295**	**908**
الزبير المعتز ابن المتوكل	**252**	**866**	أخوهما محمد القاهر	**320**	**932**
محمد المهتدي ابن الواثق	**255**	**869**	احمد الراضي ابن المقتدر	**322**	**934**
احمد المعتمد ابن المتوكل	**256**	**870**	أخوه إبراهيم المتقي	**329**	**941**
احمد المعتضد بن طلحة ابن المتوكل	**279**	**892**			

الطبقة الثالثة

الخليفة	الولاية هـ	م	الخليفة	الولاية هـ	م
عبد الله المستكفي بن المكتفي	333	945	عبد الله المقتدي بن محمد ابن القائم	467	1074
الفضل المطيع ابن المقتدر	334	946	ابنه احمد المستظهر	487	1094
ابنه عبد الكريم الطائع	363	974	ابنه الفضل المسترشد	511	1118
الحسن القادر بن اسحق ابن المقتدر	381	991	ابنه منصور الراشد	529	1134
ابنه عبد الله القائم	422	1031	الحسين المقتفي ابن المستظهر	530	1135

الطبقة الرابعة

الخليفة	الولاية هـ	م	الخليفة	الولاية هـ	م
يوسف المستنجد ابن المقتفي	555	1160	محمد الظاهر بن الناصر	622	1225
ابنه الحسن المستضيء	566	1170	ابنه منصور المستنصر	623	1226
ابنه احمد الناصر	575	1179	ابنه عبد الله المستعصم	640	1243
			سقوط بغداد	656	1258

العواصم الصنهاجية بالجزائر:

عواصم صنهاجة بالجزائر ثلاث هن: أشير والقلعة وبجاية. أشير بفتح فكسر.

كانت بين صنهاجة وزناته حروب بسبب الجوار في الموطن. فلما قوي أمر زيري بن ماند في قومه ارتاد مكانا حربيا اقتصاديا يجمع بين المناعة والإشراف على مواطن زناتة وكثرة المياه وسعة الفضاء. فوقع اختياره على موضع أشير. فشرع في إنشاء مدينته سنة **324** (**936**) وجلب البنائين من المسيلة وطبنة وغيرهما.

وهي في سفح جبل تيطري بالجنوب الشرقي من البرواقية وغربي جبل شعبة وشمال قصر البخاري قرب ثلاثاء الدوائر، وكانت الطرق تخرج منها إلى سوق حمزة غربا على طريق شعبة وإلى متيجة شمالا على طريق لمدية وإلى تيهرت غربا وإلى مليانة على شلف شمالا غربيا وإلى المسيلة جنوبا شرقيا. ويوجد بين برج بوعريريج والمنصورة جبل يدعى أيضا أشير. وبه آثار مدينة عظيمة. وهنالك محطة للقطار تدعى بهذا الاسم. وقد غلط أبو رأس. فظن أشير زيري هنالك اذ قال: «**وهي الآن خراب غربي أرض بني مقران»1هـ**. وأرض بني مقران هي سهل مجانة في الشمال الغربي من برج بوعريريج .

ولما أخذ زيري بدعوة بني عبيد إذن له المنصور بن القائم في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات باشير. وطبع بها نقودهم ذهبا وفضة. وعني

بها أبناؤه من بعده. فابتنوا خارجها فحوصا. واستبحر عمرانها واتسعت خطتها. فرحل إليها من البلاد القاصية التجار والعلماء.

قال ياقوت: «**ومن أشير هذه الشيخ الفاضل أبو محمد عبد الله بن محمد الاشيري إمام أهل الحديث والفقه والأدب بحلب خاصة وبالشام عامة. استدعاه الوزير عون الدين أبو المظفر يحي بن محمد ابن هبيرة وزير المقتفي والمستنجد. وطلبه من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي. فسيره اليه. وقرأ كتاب ابن هبيرة الإيضاح في شرح معاني الصحاح بحضوره. ثم سار من بغداد إلى مكة ثم عاد إلى الشام فمات في بقاع بعلبك سنة 561»1هـ.**

ولما أسست القلعة أخذت عمارة أشير تتراجع. وخربها يوسف ابن حماد أيام ثورته على ابن أخيه محسن. ثم عمرت حتى جاء الهلاليون. ونزل بنو حصين بسائطها. واعتزوا على الدول وصاروا موئلا لكل ثائر. فنازلتهم جيوش عبد الواد مرارا. ويظهر أن خرابها كان أثناء تلك الفتن. ولم يبق اليوم منها الا رسوم وآثار أسوار.

قال البكري: «**وأشير جليلة حصينة. يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما. ولا يوصل إلى شيء منها بقتال الا من موضع يحميه عشرة رجال. وهو في شرقيها الذي ينفذ إلى عين مسعود. وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الإقدام. وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها. وداخل مدينتها عينان ثرتان لايبلغ لهما**

غور ولا يدرك قعر إحداهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تلا نتيرغ. والذي بنى سورها بلقين بن زيري سنة 367 وخربها يوسف بن حماد واستباح أموالها وفضح حرمها وذلك بعد أربعين واربعماية ثم تراجع الناس إليها بعد خمس وخمسين»1هـ.

القلعة:

كان حماد بن بلقين بن زيري متوليا حروب زناتة لابن أخيه باديس. وكانت زناتة صعبة المراس وحول باديس منافسون لحماد. فخشي أن يتغير عنه يوما ما باديس أو تحيط به زناتة. فارتاد مكانا يفوق أشير حربيا واقتصاديا يكون له موئلا من زناتة أو باديس .فوقع اختياره على جبل كيانة. فشرع في إنشاء القلعة به سنة **398** (**1007**م) وتم تمصيرها سنة **400**.

وجبل كيانة كان لعجيسة وهو جنوب برج بوعريريج تتصل به سهول وبأعلاه حصن تاقربوست يطل منه على بحيرة الحضنة. ومكان القلعة كان يدعى قلعة أبي طويل. تقرب منه مدينة الغدير على نحو خمسة عشر ميلا في الجهة الشرقية. وكانت الطرق تخرج منها إلى سائر الجهات.

وفي سنة **405** أحاط حماد بجبل كيانة سورا من الحجارة يقرب ارتفاعه من ذراعين ويمتد حوله على استدارة سبعة أميال. ونقل حماد إلى القلعة قبيلة جراوة من أسافل وادي ملوية وأهل المسلة وحمزة. وشيد بها القصور والفنادق واستكثر من المساجد. فاستبحر عمرانها ورحل إليها

أهل البلاد النائية من التجار وأرباب الصنائع وأهل العلم. وعني بها أبناء حماد من بعده. فابتنوا حولها القصور وغرسوا الجنات وأكثروا من المنتزهات. وجلبوا إليها الماء وأجروه بها سواقي وجداول وفرقوا المياه بالحارات والدور والمساجد في القنوات علاوة على ما بها من المآجل والصهاريج. وكان لها أبواب منها باب الجنان يخرج منه على جسر إلى المسيلة، وباب جراوة به جسر على وادي الفرج،وباب الأقواس يفضي إلى حارة جراوة.

قال البكري: «**وقلعة أبي طويل قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة، وتمصرت عند خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل إفريقية: وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب. وهي مستقر مملكة صنهاجة. وبها كان إحتصن أبو يزيد بن كيداد**»**1هـ.**

وقال الإدريسي: «**هي من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وخصبا**»**1هـ.**

ولما جاء الهلاليون استولوا على بسائطها أيام الناصر. فأسس فرارا منهم مدينة بجاية. ونقل هو وأبناؤه كثيرا من موادها إلى بجاية. فأخذت في الضعف وحرق الموحدون مساكنها ثم استولى على الجبل عياض. فخربت قلعة حماد كما خربت أشير جده زيري ولكن بلقين كان اسعد

حظا من أبيه وابنه فلم تزل مدنه الثلاث عامرة وهي الجزائر والمدية ومليانة.

بجاية: بكسر الباء وتخفيف الجيم.

بعد واقعة سبيبة سنة **457** استولى العرب على ما حول القلعة ووضعوا أيديهم على طرقها، فرأى الناصر عاصمته مهددة بخطرهم، ففكر في إنشاء عاصمة بعيدة عنهم، وندم على منازعته لابن عمه تميم ابن المعز، فأنفذ إليه رسولا يرغبه في الصلح، فوافق ذلك هوى تميم، وأرسل من طرفه محمد بن البعبع لأحكام الصلح.

مر ابن البعبع في طريقه بأبيات قليلة لقوم من صنهاجة يدعون بجاية. ولما بلغ الناصر اختلى به وطعن له في وزيره أبي بكر بن أبي الفتوح وفي ابن عمه تميم ورآه يفكر في أي مكان يؤسس عاصمته الجديدة فدله على مكان بجاية وزينها له بان منها يكون امتلاكه للمهدية ووعده الانتقال إليه والقيام بدولته. ثم عاد إلى مرسله تميم فنم عليه ابن أبي الفتوح لتميم بما دار بينه وبين الناصر. فقتله وألحق به عاقبة الغدر.

شرع الناصر سنة **460** (**1067**م) في تأسيس بجاية على مقربة من مينى صلداي الفينيقية. ونقل الناس إليها واسقط الخراج عن ساكنيها. وانتقل إليها سنة **61** وسماها الناصرية. ولكن غلب عليها اسم بجاية. وإنما اختار مكانها لكونه في سفح جبل يحفظها من غارات الهلاليين وأمامها خليج مأمون يسع أسطولا ضخما يهيمن به على البحر، وسوادها خصب.

قال صاحب الاستبصار: «ليس لبجاية طريق سهلة الا من ناحية الغرب وباقي طرقها شرقا وجنوبا على اوعار فلم يكن للعوب إليها سبيل. وكان لايدخلها منهم الا من يبعث إليه الملك الحمادي لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها. فيدخلونها أفذاذا وفرسانا دون عسكر».

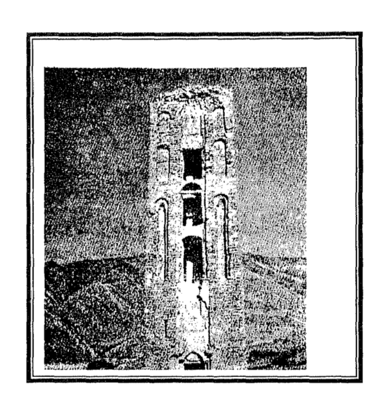
«ولها داران لصناعة المراكب. ومنها تغزى بلاد الروم. ومرساها عظيمة ترسى بها سفن الروم من الشام وغيرها وسفن المسلمين من الإسكندرية طريق مصر واليمن والهند والصين وغيرها»اهـ.

قال الإدريسي: «ومدينة بجاية كانت مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد. والسفن إليها مقلعة. وبها القوافل منحطة. والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة. والبضائع بها نافقة. وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجانسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء والمشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة. ولها بواد ومزارع. والشعير والحنطة بها كثير. والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد.

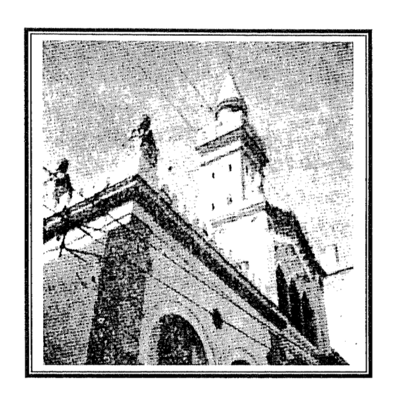
وبهادار صناعة لإنشاء الأساطيل للقتال ولإنشاء السفن الحمالة والمراكب النقالة لان الخشب في أوديتها كثير. ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران. وبها معادن الحديد الطيب موجودة ممكنة. وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة. وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم»اهـ.

ولم تزل بجاية في اتساع عمارة ورقي حضارة أيام الحماديين ثم الموحدين ثم الحفصيين حتى أخذها الإسبان سنة **915**، ثم أخرجهم منها الأتراك. فضعفت لتوالي الحوادث عليها. ولولا أهميتها البحرية لكان سبيلها سبيل القلعة.

وكانت بجاية أيام عظمتها عاصمة علمية تدرس بها العلوم العقلية والنقلية على اختلاف فنونها. وقد جمع الغبريني في تراجم أهل القرن السابع فقط كتابه عنوان الدراية. وبها تعلم ليونار فبونتشي الإيطالي الرياضي المهندس الشهير. تعلم بها الحساب والجبر والهندسة وفي لروس **«أنه ولد بمدينة بيزا حوالي سنة571 (1175م) وقام بأعمال لرياضية جليلة. وهو أول من طبق عمليات الجبر على الهندسة»1هـ.**



الفن الديني الإسلامي



الفن الديني الإسلامي

الباب الثالث

في دولة المرابطين



تمهيد:

انتقل بنو عبيد من المهدية إلى القاهرة و لم يستطيعوا توحيد المغرب تحت إدارتهم، فكانت فتن بين صنهاجة العبيدية وزناتة الأموية لم تنتج أكثر من تأخر زناتة إلى المغرب الأقصى وتأسيسهم فيه دويلات مغراوية ويفرنية عاشت قرنا وأقواها دولة بني زيري بن عطية بفاس، قال ابن أبي زرع:

«وفي أيامهم عظم شأن فاس وحصنت أبوابها وزيد في جامعي القرويين والأندلس زيادة كبيرة واتسع الناس في البناء وكثرت الخيرات واتسع الأمن والرخاء إلى أن ظهر المرابطون وقد ضعفت أحوال مغراوة ونقص ملكهم وجاروا على رعيتهم، فاخذوا أموالهم وسفكوا دماءهم وتعرضوا لحرمهم، فانقطعت عنهم الموارد وكثر الخوف في البلاد وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات في فاس وأعمالها أيام الفتوح بن ذو ناس ومن بعده حتى بيعت أوقية الدقيق بدرهم»1هـ. باختصار.

ولم تكن حال الأندلس أحسن من حال المغرب الزناتي. فان البربر الذين استوطنوها أيام بني أمية أصبحوا يعملون للفوضى ورؤساء العرب اقتسموا ولايتها وتخاذلوا أمام أعدائهم المسيحيين. فقويت شوكة الإسبان وشجعوا الابتلاع الأندلس.

أثناء هذه الظروف الحرجة ظهرت بالصحراء دولة المرابطين وانتشرت أنباء عدلها ورفقها بالرعية. فكاتبهم علماء المغرب يستحثونهم لإنقاذه من عسف زناتة. ثم راسلهم عقلاء الأندلس لصد غارات الإسبان عنهم. فخرجوا من صحرائهم تلبية لصوت الواجب. واستولوا على سجلماسة سنة **447** وعلى اغمات وتادلا سنة **49** وعلى فاس سنة **62** ثم أجازوا إلى الأندلس وكفوا عادية الإسبان عنها وجمعوا شملها بالقضاء على ملوك الطوائف.

أصبحت مملكة المرابطين تشمل الصحراء إلى حدود السودان والمغرب الزناتي والأندلس من شرقها إلى غربها. وكانت مدريد ولشبونة عاصمتا الإسبان والبرتغال اليوم من مدنهم البسيطة.

وفي سنة **454** أسس المرابطون عاصمة دولتهم مدينة مراكش على مقربة من وطنهم الصحراوي وفي سفح جبال درن وطن منافسيهم المصامدة. واتسعت خطتها باتساع المملكة وعظم عمرانها، فلم تزل عاصمتهم حتى انقضى أمرهم.

المرابطون:

كان من صنهاجة اللثامية ملوك كبار بالصحراء. منهم الأمير يحي بن ابراهيم القدالي: ذهب حاجا سنة **427** ولما عاد من نسكه اجتمع في القيروان بابي عمران الفاسي المالكي. وعرفه بجهل قومه ورغب منه ان يوجه معه بعض تلاميذه لبث حقائق الدين بوطنه. فكتب له أبو عمران رسالة إلى تلميذه وقاق بن زلو اللمطي السوسي ليرسل بعض تلاميذه مع الأمير يحي. وكان الشيخ وقاق بمدينة نفيس من أرض المصامدة يدرس العلم في رابطة له.

بلغ الأمير يحي نفيس سنة **430** وسلم الرسالة للشيخ وقاق.فعرضها على تلاميذه فانتدب منهم لصحبة الأمير يحي عبد الله بن يس الجز ولي. وكان من حذاق الطلبة دينا فاضلا تقيا ورعا فقيها أدبيا مشاركا ذا نباهة وسياسة.

رجع الأمير يحي إلى قومه بعبد الله بن يس. فأخذ يعلمهم الدين ويأمرهم بالمعروف ويناهم عن المنكر. فثقل عليهم أمره. فهجروه. واعرضوا عن إرشاده. فعزم عبد الله على الذهاب إلى السودان. ولكن الأمير يحي نبذ إمارته وتمسك به وأشار عليه بالانعزال في ربوة يحيط بها وادي النيل. فقبل إشارته وذهب هو والأمير يحي وسبعة من قدالة إلى تلك الربوة. فبنوا بها رابطة للعبادة واخذ الناس يلتحقون بهم حتى اجتمع بها من إشراف صنهاجة نحو ألف رجل ففقههم عبد الله في دينهم.

وسماهم المرابطين للزومهم رابطته. ثم أمرهم بالذهاب إلى قومهم لإنذارهم ففعلوا. ولكن لم يجدوا أذنا صاغية وقلبا رقيقا.

وفي صفر سنة **434** رفع المرابطون سلاحهم على كل مسلم لم يمتثل أوامر دينه. فحاربوا قدالة ثم لمتونة ثم مسوفة. فاستقاموا على نهج الكتاب والسنة. وتوفي الأمير يحي بن ابراهيم القدالي. فخلفه الأمير يحي بن عمر بن ابراهيم اللمتوني ثم أخوه أبو بكر ثم ابن عمهما أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن ابراهيم. وهكذا تأسست دولة المرابطين.وتوفي عبد الله يس شهيدا في قتال برغواطة يوم الأحد الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة **451** ودفن هناك. وبني عليه مسجد. وكان متحريا لأكل الحلال. وله فتاوي شاذة ونوادر تدل على شدته في الحق وحسن اعتقاده المرابطين فيه وقوة انقيادهم له. وأوصاهم عند احتضاره بالاتحاد والتعاون على الحق ونبذ الخلاف والتحاسد على الرئاسة.

المرابطون بتلمسان:

في سنة **472** بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو تلمسان، في عشرين ألفا من المرابطين. فعاث في نواحيها. ثم عاد إلى أميره يوسف بمراكش.

وفي سنة **74** نهض يوسف نفسه إليها. وعسكر إليها. وأسس بمعسكره مدينة سماها تاقرارت. ومعناها المحلة. وقد أصبحت من بعد مع

تلمسان مدينة واحدة واتخذها المرابطون عاصمة مملكتهم بالوطن الجزائري. وانزلوا الجند بتاقرارت.

فتح يوسف في نهضته هذه تلمسان من أيدي بني يعلي الخزريين ثم وهران وتنس ووانشريس وأعمال شلف. وبلغ مدينة الجزائر. ثم قفل إلى مراكش. فدخلها في ربيع الأخير سنة **75**.

ولي أمارة تلمسان محمد بن تينعمر المسوفي. واجلب على مملكة بني حماد الغربية. ومات محاصرا للجزائر. فخلفه أخوه تاشفين وحارب الحماديين. ثم صالحهم يوسف بن تاشفين. وعزل تاشفين بن تينعمر بالقائد مزدلي اللمتوني. فلم يزل بها إلى أن نقله أمير المسلمين علي بن يوسف إلى قرطبة، وبها توفي سنة **508**.

عادت إمارة تلمسان بعد مزدلي إلى مسوفة، وكان منهم بها لاول ظهور الموحدين يحي بن اسحق الملقب انكمار، ووقعت فتنة بين مسوفة ولمتونة، فلحق انكمار وكثير من رجال مسوفة بعبد المؤمن بن علي قبل دخوله المغرب الأوسط، فعادت ولاية تلمسان إلى لمتونة ووليها منهم محمد بن يحي ابن فانو.

ولما فتح عبد المؤمن حصون ملوية بعث سريتين إحداهما ذهبت مع الساحل إلى وهران بقيادة ابن زقو، فقتل القائد، ولم تفتح وهران، والثانية قصدت مديونة وخرج إليها ابن فانو في جنود لمتونة وزناتة، فانخذلت زناتة، وانهزمت لمتونة وقتل ابن فانو، فولي بعده أبو بكر بن مزدلي وعليه انقرضت دولة المرابطين من الجزائر.

حكومة المرابطين:

الدولة المرابطية مستقلة استقلالا تاما. ولكن حكومتها وهي أقوى نفوذا من خلفاء بني العباس كانت تعترف بسيادتهم. فتذكر أسماءهم في سكتها وخطبها. واستفادت من ذلك قوة أدبية لان الناس يومئذ لا يسلمون دعوى الخلافة لغير العرب.

والحكومة المرابطية مقيدة بالكاتب والسنة لا يمضي أمراؤها وعمالها أمرا الا باستشارة شيوخ الدين وموافقتهم، منذ استولى يوسف بن تاشفين على الأندلس تلقب بأمير المسلمين، وجرى على ذلك خلفه، ولم يتلقبوا بأمير المؤمنين لأنه شعار الخلافة التي سلموها لنبي العباس، وللأمير وزراء في حضرته وعمال على الجهات وقضاة بعاصمته وغيرها.

والقضاء مستقل عن الإدارة كل الاستقلال، وكان على مذهب مالك لان المرابطين ما عرفوا الدين الا على يد عبد الله بن يس المالكي ثم ملكوا الأندلس أهم ممالكهم وأهلها أيضا مالكيون ولم تكن المالكية يومئذ عبارة عن جمود محض ووقوف عند أقوال الكاتبين في المذهب. بل هي أتباع لمالك عن بينة وبصيرة وخبرة بكتاب الله وسنة رسوله واقضية السلف.

وكانت عناية الحكومة بحفظ الأندلس من هجمات المسيحيين. ولم تشغل نفسها بمحاربة جيرانها من الدول الإسلامية بل سالمتهم وأحسنت جوارهم. فاتخذت للجهاد وحماية البلاد جيشا من لمتونة ومسوفة وغيرهم من الملثمين. وقد وصفهم البكري وهم في صحرائهم بقوله:

«ولهم في القتال شدة وجلد ليسا لغيرهم. يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف. يقاتلون على الخيل والنجب. وأكثر قتالهم رجالة صفوفا، بأيدي الصف الأول القنا الطوال للمداعسة والطعان. وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق.يحمل الواحد منهم عدة. يزرقها فلا يكاد يخطيء ولا يشوي. ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية. فهم يقفون ما وقفت منتصبة. وان أمالها إلى الأرض جلسوا جميعا فكانوا أثبت من الهضاب»1هـ.

وفي سنة 64 عزز يوسف جيشه باشتراء جملة من العبيد السودان. بلغوا نحو ألفين فاركبهم فرسانا وبعث إلى الأندلس في شراء العلوج فانتهى عنده منهم خمسون ومائتا فارس، ثم استعمل ابنه علي جيشا من الروم واركبهم وقدمهم على جباية المغارم. قال صاحب الحلل الموشية: «وعلي بن يوسف أول من استعمل الروم بالمغرب»1هـ.

وكانت مالية الدولة تجمع من الجبايات الشرعية زكاة وجزية وأخماس غنائم قال ابن أبي زرع: «ولم يجر في عمل المرابطين طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولاخراج لافي بادية ولافي حاضرة»1هـ. وقال أيضا: «جبى يوسف بن تاشفين من المال على وجهه ما لم يجبه أحد قبله. فيقال أنهم وجدوا في بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب المطبوعة»1هـ.

وهذا شاهد بثروة الأمة واقتصاد الأمراء، وقد اتفقت كلمة المؤرخين على وصف حكومة المرابطين بالعدل وإقامة الأمن، قال ابن أبي زرع:

«وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن، بيع القمح أيامهم أربعة أوسق بنصف مثقال، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال، والقطاني لا تباع ولا تشترى، كان ذلك مصطحبا بطول أيامهم، وكثرت الخيرات، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة بهم، ولم يكن قطاع ولا من يقوم عليهم إلى ان خرج عليهم مهدي الموحدين سنّة 515»اهـ.

وكان أمراء المرابطين يطبعون السكة باسمهم، وبعد واقعة الزلاقة جدد يوسف بن تاشفين السكة، قال ابن أبي زرع:

«ونقش في ديناره لا اله الا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وكتب في الدائرة ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، وكتب في الصفحة الأخرى الأمير عبد الله العباسي، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته»اهـ.

أمراء المرابطين:

تغلب أبو بكر بن عمر اللمتوني بجيوش المرابطين على اغمات، وقتل أميرها لقوط المغراوي. وتزوج زوجه زينب بنت اسحق الهوارية، أصلها من القيروان وكان أبوها تاجرا. وكانت هي إمراة حازمة لبيبه ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور حتى كانت تلقب الساحرة.

وفي ذي القعدة سنة **453** عاد أبو بكر إلى وطنه لإصلاح حال قومه. ففارق زينب شفقة عليها من حر الصحراء وأوصاها أن تتزوج ابن عمه يوسف بن تاشفين خليفته على المغرب. فتزوجها يوسف. وأعنته بسياستها على فتح أكثر البلاد. وتوفيت سنة **464** ثم سلم أبو بكر الأمر ليوسف فاستقل بإمارة المرابطين **65**.

وفي سنة **67** رأى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية وأعظم ملوك الطوائف استدعاء يوسف إلى الأندلس برسم الجهاد. فلامه بقية ملوك الأندلس وحذروه عاقبة مجيئه. ولكنه كان يتحقق عجزهم عن مدافعة الإفرنج والجلالقة (**الصبنيول**) فأجابهم بكلمته الخالدة: «**رعي الجمال خير من رعي الخنازير**». وقبله قال صفوان بن أمية يوم حنين: «**لان يربني رجل من قريش خير من ان يربني رجل من هوازن**». وما زال ابن عباد بابن تاشفين حتى لبى دعوته سنة **79** وكانت وقعة الزلاقة المشهورة. ثم كانت بعدها نكبته لابن عباد وسجنه باغمات حتى مات.

وكان يوسف جاهلا بالعربية لا يكلم الا بترجمان، سخيا شجاعا سياسيا حازما عادلا زاهدا لباسه الصوف وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها وكان أسمر نحيفا معتدل القامة أكحل العينين أقنى الأنف مقرون الحاجبين جعد الشعر له وفرة إلى شحمة أذنيه وعاش مائة سنة. ولد بالصحراء سنة **400** وتوفي بمراكش غرة محرم سنة **500**.

وخلفه ابنه علي. وله أخوة بعضهم أكبر منه. فسلموا له الأمر لأن أباهم عهد به إليه سنة **96** وسار بسيرة أبيه في جميع أموره. وكان بالزهاد والبعاد أشبه منه بالأمراء. ومن هنات أبيه حبسه لابن عباد وقسوته عليه، ومن هناته هو حرقه لكتاب الأحياء للغزالي لما أفتى له العلماء بذلك. وقد كان عليه أن يكلفهم بنقضه والرد عليه.

وأم علي رومية. فكان ابيض مشربا بحمرة تام القد اسيل الوجه ألفج اقني اكحل العينين سبط الشعر. ولد بسبتة سنة **477** وتوفي سنة**537**.

وخلفه ابنه تاشفين. وكان واليا بالأندلس. وله في الجهاد هنالك مقامات محمودة. ثم ظهر الموحدون فاستدعاه أبوه سنة **32** ثم عهد إليه بالأمر بعده. وقضى جميع مدته في محاربة الموحدين حتى انتهى إلى وهران. فتردى في ليلة مظلمة. وألفي صباحا بجانب البحر ميتا. فاحتز رأسه وحمل إلى تينملل. فعلق على شجرة وكان ترديه ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة **39**.

وكان تاشفين قد عهد إلى ابنه ابراهيم. فلما بلغ نعيه مراكش وبويع ابراهيم نازعه عمه اسحق بن علي. وكانا صغيرين غير شاعرين بجراحة الحال. فاستمر الخلاف بينهما إلى ان دخل الموحدون مراكش في شوال سنة **541** فقتلوهما وغيرهما من المرابطين. وكان الحادث جللا.

سقوط دولة المرابطين:

ظهر أيام علي بن يوسف بجبال المصامدة محمد بن تومرت. وأعلن حربه على المرابطين. ثم توفي. فخلفه عبد المؤمن بن علي. واستولى على جهات من المغرب الأقصى قوي بها جمعه.

وفي سنة **534** خرج عبد المؤمن من تينملل عازما على استئصال دولة المرابطين وسلك طريق الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة. لايخشى فيها مكروها ولايعدم حطبا ولا ماء. وخرج تاشفين بن علي من مراكش محاذيا له في البسائط معرضا لكل خطر من هجوم وبرد ووحل وغير ذلك. يسير بسير عبد المؤمن ويقف بوقوفه ويدافع هجومه. فسئم الناس من خطته وأخذوا يتسللون لعبد المؤمن حيث لا يعدمون مرافق الحياة، وتنازعت مسوفة مع لمتونة. فانضم كثير من قوادها وعظمائها إلى عبد المؤمن.

تفدم عبد المؤمن نحو المشرق بعد وفاة علي بن يوسف وبث السرايا في عمل تلمسان. فخضعت له مديونة، ونزع إليه بنو ومانو، فوفد منهم عليه وهو الريف زيري بن ماخوخ، وقلة بنو مكود في عودة، ثم وفد

عليه أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدر من أمرائهم، فسرح معهم عسكرا مع يوسف ابن وانو دين وابن يغمور فأثخنوا في بلاد بني يلومي وبني عبد الواد، فاستصرخوا تاشفين بن علي، فأمدهم بالعساكر معها الربرتير قائد الروم ، ونزلوا منداس، واجتمع إليهم بنو ورسيفان وبنو توجين وبنو ينكاسن من مرين، فكانت لهم الكرة، واستنقذوا أموالهم، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستمائة من قومه، وتحصن الموحدون وفل ومانو بجبل سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ بعبد المؤمن صريخا فارتحل معه إلى تلمسان، ثم سيرات، وأوقع بجنود لمتونة وزناتة.

سبق تاشفين بن علي عبد المؤمن إلى تلمسان، فضبطها وعسكر بسطفسيف وهو نهر يمر بتلمسان به غلات أهلها، ونزل عبد المؤمن بمديونة، وأغارت سراياه على بني يستيتن وبني سنوس وبني وردروسن وبني ستلتن، وبعث تاشفين بن علي قائده الربرتير لاعتراض غنائم السرايا. فقتل و لم ينج من عسكره الا ثلاثة من الروم وثلاثة من بني وأنار وذلك عام **39** ثم نزل عبد المؤمن بين الصخرتين وهو جبل مطل على تلمسان من قبليها. فبنى به لجنوده حصنا. وأقام يقاتل تاشفين من هناك مدة شهرين.

بعث تاشفين إلى الجهات مستمدا فوافته العساكر من الجهات منها عسكر بجاية. فأوقع بهم الموحدون وفوقوهم شذر مذر. واعترض تاشفين بن ماخوخ فل بجاية في قفولهم فنال منهم أعظم النيل. و لم يبق لتاشفين بن علي أمل في الانتصار فغادر تلمسان في شعبان إلى وهران. وأرسل إلى

قائد أسطوله بالأندلس محمد بن ميمون. فأتاه بعشرة أساطيل. وأرسى قريبا من معسكره.

ترك عبد المؤمن جيشا لحصار تلمسان. وخرج اثر تاشفين وأمامه أبو حفص عمر بن يحي في ثمانين ساقة من الموحدين وبني ومانو. وقصد بلاد بني يلومي وغيرهم. فكانت بينهم معركة منداس. انتهت بخضوع زناتة. فلحق أبو حفص بوهران ونزل إزاء معسكر المرابطين.

ووصف صاحب الحلل الموشية معركة منداس هذه بما ملخصه:

«قال ابن اليسع حدثني غير واحد من الموحدين قالوا لما نزلنا من جبل تلمسان نريد بلاد زناتة اتبعنا المرابطون. فنزلنا بسيطا. وأردنا به أربعة صفوف من الرجال بيد الصف الأول القنا الطوال. وبيد الثاني وهو خلف الأول الحراب والدروق. وبيد الثالث مخالي الحجارة. والصف الرابع من الرماة. والخيل وسط الدائرة. قد ترك لها فرج بالصفوف للكر والفر. فإذا هجمت خيل المرابطين رماها الصفوف بسلاحهم. وإذا أدبرت خرج أثرها خيل الموحدين فتصيب منهم فاذا كر عليها المرابطون رجعت إلى دائرها. وعرف هذا اليوم بيوم منداس. ففقد فيه من جيوش المرابطين ما لايحصى. وظهر فيه أمر عبد المؤمن وكثر جمعه»1هـ.

ولما إنتقلت الحرب إلى وهران فشل كثير من قواد المرابطين فتفرقوا. ورأى تاشفين بن علي أنه أحيط به. وكان قد بنى حصنا على

شاطئ البحر. فترك بوهران خيامه وجنوده. وصار إلى الحصن ليقترب من أسطوله فينجو فيه إلى الأندلس عسى أن يحفظ هناك دولته من السقوط كما فعل قبله بنو أمية. ولكن الموحدين لم يمهلوه. فحالوا بينه وبين أساطيله واحدقوا بالحصن وأضرموا حوله النيران كي لايخفى عليهم شأنه. وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان ـ وكانت ممطرة مظلمة ـ خرج كي يضرب في جيش الموحدين ويوجد الفرصة لخرق الحصار واللحاق بأسطوله. فتردى به فرسه وهلك. ففر كثير من المرابطين إلى تلمسان وغيرها. واستعد بعضهم للحصار بوهران، فجهدهم العطش. ونزلوا يوم عيد الفطر على حكم عبد المؤمن، فحكم بقتلتهم، ولم ينج منهم الا واحد.

وبعد فتح وهران توجه عبد المؤمن نحو تلمسان، فدخل اقادير، وعفا عن أهلها ودخل تاقرارت حيث المرابطون عنوة، فقتل رجالها وغنم أموالها. وذكر ابن اليسع أن عدد القتلى بها بلغ مائة ألف أو أزيد، وبعد سبعة أشهر من فتح تلمسان عاد عبد المؤمن إلى المغرب الأقصى. فقطع منه دعوة المرابطين بفتحه مراكش سنة **41**.

وهكذا انتصر عبد المؤمن بما مهد له ابن تومرت قبل من نشر رسائل الطعن في المرابطين حتى سقطت هيبتهم ثم بأحكامه خطته الحربية حيث سار بالجبال الكفيلة بحاجيات الجيش الممتنعة على العدو. وملك بذلك زمام الحرب. فصار يقاتل متى أراد القتال ويستريح متى شاء. وطاول المرابطين في هذه الحرب سبع سنوات حتى سئم جيشهم وقلق

الناس مما يكون عادة لازما للحرب من اشتداد الأزمات وارتفاع الأسعار.

ولقد كانت دولة المرابطين يومئذ في منتهى عظمتها وريعان شبابها. فما كانت لتسقط بهذه السرعة لولا قوة العلة التي نزلت بها وكان عنصرا علتها ابن تومرت وعبد المؤمن. وما من حركة يكون عنصراها مثل هذين الرجلين الا كان الفوز حليفها. ولكي تطمئن النفس إلى سقوط هذه الدولة من غير تدريج نلخص عللها فيما يلي:

1- دهاء ابن تومرت السياسي البارع في طرق نشر الدعوة وإسقاط هيبة الحكومة المرابطية.

2- إحكام عبد المؤمن لخطته الحربية جغرافيا وسياسيا.

3- قدم العداوة بين المصامدة والملثمين.

4- طبيعة البربر التي تمثل الكلمة الشائعة: «**لكل جديد لذة**». فنصر من نصر منهم الموحدين لا لسخط على المرابطين ومن نصر من زناتة المرابطين فإنما نصروهم منافسة ومخالفة لمن كانوا مع الموحدين منهم.

5- حدوث غلاء مقلق.

6- اضطراب البلدان لخلوها من الحامية.

7- اضطراب مركز القيادة العامة وتناقض أوامرها تكتب بالأمر وتعقبه بضده.

8- موت علي بن يوسف على حين شباب الفتنة.

9- إسلام مسوفة للمتونة في وقت الحاجة والضرورة.

10- اضطرار أمير المسلمين تاشفين ليقادة الجيوش بنفسه وتعرضه للتلف.

11- تنازع ابراهيم وعمه اسحق على الأمر بعد هلاك تاشفين وكلاهما صغير مضعف. ففقد المرابطون بتاشفين أميرا قويا على جمع الكلمة.

12- تفريط المتنازعين في تحصين عاصمتهم مراكش وشحنها بالأقوات. فبعد قليل من حصار الموحدين لها اضطر أهلها إلى أكل الجيف والدواب. وكان معهم جيش من الروم لم يصبروا على هذه الأزمة. ففتحوا للموحدين أحد أبواب المدينة. وكأنما فتحوا للمرابطين دولتهم قبورهم.

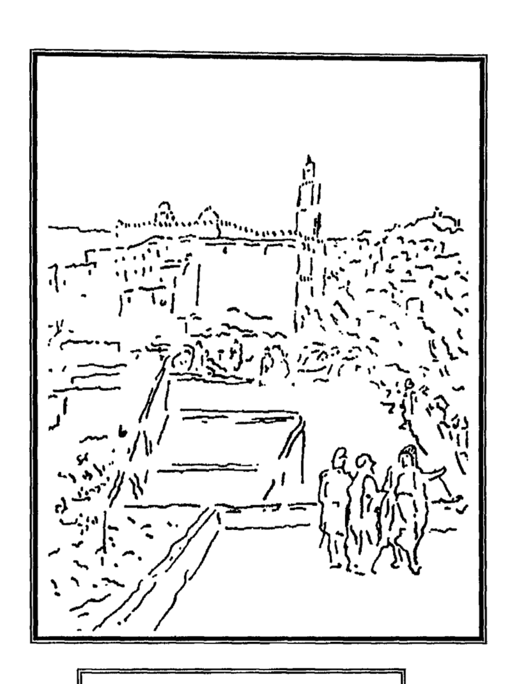
وهكذا تفقد الأمم استقلالها متى فقدت من بنيها كفؤا لجمع كلمتها ووجد من بينها خونة لا يهمهم مستقبلها ولا ينظرون لأبعد من خيال مصلحتهم الخاصة.

وكان تأسيس دولة المرابطين بالصحراء على يد عبد الله يس سنة **434** وثبتت قدمها بالمغرب بتأسيس مراكش سنة **454** واستقر أمرها بالجزائر منذ تأسيس تاقرارت **(تلمسان الجديدة)** سنة **474**.

وانتهت في الجزائر بموت تاشفين سنة **539** وبالمغرب بفتح مراكش سنة **41** ولم يحفظوا دولتهم بالصحراء لتفرق عشائرهم في الممالك

الشمالية المغرب والأندلس. وكانت مدتهم بالجزائر خمسا وستين سنة. وكل جديد فإلى بلى.

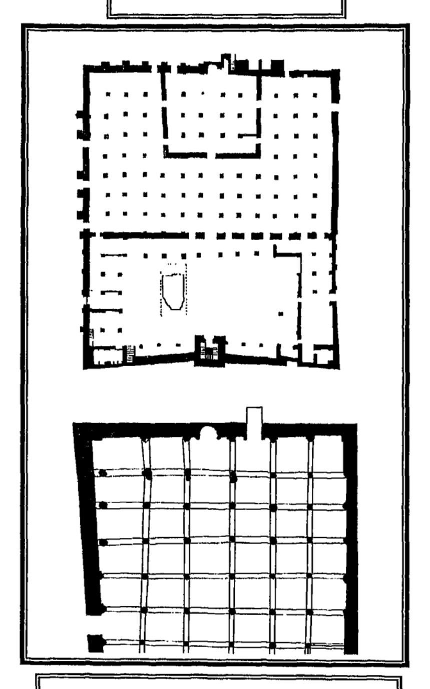
لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكموا يصير إلى ذهاب



منظر عام لجامع سيدي أبو مروان

"الرسام بربروغر"

مخطط جامع قلعة بني حماد



مخطط غرفة الصلاة للجامع الكبير في قسنطينة



فناء جامع سيدي أبو مروان

"الرسام لوسور ووايلد"



فناء جامع سيدي أبو مروان

"الرسام بريروغر"



الباب الرابع

في الدولة الموحدية المومنية



تمهيد:

كانت الخلافة الإسلامية بالقرن الخامس لبني العباس ببغداد وبني عبيد بمصر. وكان خلفاء الأسرتين معا مستضعفين وقوادهم وأمراؤهم عليهم مستبدين.

وكان مغرب آل زيري تعبث ببواديه العرب وتغير على سواحله سفائن النرمان، ومغرب الملثمين في دعة وهناء لا يخشى عليه أدنى خطر داخلي أو خارجي.

وفي أواخر هذا القرن ولد بهرغة من جبال درن محمد بن عبد الله تومرت. ونشأ فقيرا طالبا للعلم. فأخذ بعض المبادئ بوطنه وارتحل سنة **500** إلى الأندلس فدخل قرطبة. ثم ارتحل إلى المهدية. وأخذ عن المازري ثم انتقل إلى الإسكندرية ثم بغداد، ولازم الغزالي ثلاث سنوات، ولقي غيره من جلة العلماء وفحول النظار فاستفاد علوما جمة، ومهر في الحديث والأصول والجدل، وأخذ بعقائد الأشعري وأضاف إليها من عقائد الشيعة الأمامية القول بالإمام المعصوم.

درس ابن تومرت في رحلته هذه حالة المسلمين السياسية فعرف ضعفها ولا سيما بالمشرق، ورأى ان الخلافة الإسلامية في خطر فحدثته نفسه – وكان بعيد الهمة – بإنشاء خلافة بالمغرب تجمع شمل أهله على الأقل. وبهذه النية توجه نحو وطنه.

في غرة ربيع الأول سنة **510** قفل إلى المغرب وعرج في قفوله على العواصم العلمية و السياسية كمصر وطرابلس والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش، وحيثما حل درس العلم وأمر بالمعروف وغير المنكر بيده، فعرض نفسه مرارا للخطر، ولكنه كان يحسن الخلاص، وبهت العلماء من فصاحته ودهش الأمراء من جراءته ومال إليه العامة لديانته، فما غادر مدينة الا وترك بها سمعة واسعة وأنصارا عديدين.

نزل بقسنطينة على الفقيه عبد الرحمن الميلي وغيره وببجاية في مسجد: لريحانة، وأمه ابراهيم بن محمد الميلي وغيره من الفقهاء، ثم خشي سطوة العزيز بن المنصور، فخرج إلى ملالة ضيعة لبني ورياغل على فرسخ من بجاية، فأقام بها مدة، وهنالك جمعه القدر بعبد المؤمن بن علي الكومي، فأعجب بذكائه، وأعجب عبد المؤمن بعلمه فصحبه وخرجا فيمن معهما إلى متيجة فوانشريس فتلمسان، وبلغوا هرغة سنة **514**.

وصحب ابن تومرت من تونس أبو بكر بن علي الصنهاجي المدعو بالبيذق وكتب في كتابه أخبار المهدي عن طريقه من تونس إلى هرغة نحو عشرين صفحة، فصل فيها أخباره وحوادثه.

وكان ابن تومرت من تونس أبو بكر بن علي الصنهاجي المدعو بالبيذق وكتب في كتابه أخبار المهدي عن طريقه من تونس إلى هرغة نحو عشرين صفحة، فصل فيها أخباره وحوادثه.

استهوى ابن تومرت المصامدة بمكايده وسحرهم بعذوبة لفظه فقد كان فصيحا في العربية والبربرية حتى صاروا يستغيثون به في شدائدهم ويتبركون بذكره على موائدهم، قال ابن قنفذ في الفارسية ما ملخصه :

«داره بجبل هنتاتة يتبرك الآن بالدخول إليها، ودخلتها أنا لهذا الوجه سنة 763 وأماكن جلوسه بالجبل معلومة لا يمر بها راكب إلا نزل»1هـ.

فصل ابن تومرت علمه وعمله بمقدار غايته السياسية فاختار عقيدة الأشعري وهي خلاف عقائد أهل المغرب يومئذ، ليجد سبيلا إلى الطعن في عقائدهم، وأشهر ذكره بانتحاله تغيير المنكر في طريقه. وانتسب في آل البيت واعتقد عصمة الإمام ليمهد لدعواه انه المهدي المنتظر. وتظاهر بالزهد والصلاح كي تقبل العامة مكائده وحيله باسم الكرامات.

درس ابن تومرت بمصموده وألف ونشر الدعاة لبيعته فبويع في رمضان سنة **515** تحت شجرة خرنوب بعدما خطب في الناس وذكر المهدي وانه يظهر من المغرب الأقصى وإن نسبه كنسبه واسمه كاسمه وفعله كفعله وعرف الناس بما يكون عليهم في القيام بدعوته من الأرزاء والمحن. فالتزموا ذلك. وسماهم الموحدين وكفر المرابطين ولقبهم المجسمين وحاربهم بسيفه وقلمه، حتى توفي على ما حققه ابن أبي زرع وغيره فيما

رمضان سنة **24** وكانت ولادته سنة **471** وقيل **84** وقيل **86** وقيل **91** ولم يترك خلفا لأنه لم يتزوج وله تآليف لطيفة جمع بعضها وطبع بالجزائر سنة **1321**هـ وجمع البيدق بعض رسائله طبعت مع كتابه أخبار المهدي. واستيعاب أخبار ابن تومرت ودرسها بصفة فنية يستدعي تآليف مستقلة. فإنه قد أحدث إنقلابا عاما بالمغرب في السباسة والعلم والدين ولم يكن كسائر الانقلابات البربرية الناشئة من أسباب قومية ومنافسات بين القبائل القوية. ولانتيجة لها غير سقوط دولة وقيام أخرى.

ودولة الموحدين تشبه دولة المرابطين من حيث ابتناؤهما على دعوة دينية. ولكن الفرق بين مؤسسيهما عبد الله بن ويس وابن تومرت فلم يكن عبد الله بن ويس في علم ابن تومرت ولا دهائه ولكن كان أطهر منه عقيدة وأصفى سريرة. ولم تكن دولة المرابطين في قوة دولة الموحدين ولا حسن إدارتها و لا اتساع معارفها ولكن كانت أعف عن الدماء وأرفق بالرعية.

تأسيس الدولة الموحدية المؤمنية:

ابن تومرت هو مؤسس هذه الدولة وكان يؤثر من أتباعه عشرة ويقرب من بينهم عبد المؤمن بن علي الكومي. فلما توفي قدم العشرة من بينهم أبا علي عمر الصنهاجي. وبعد أيام سلمها لعبد المؤمن قائلا أنه الذي أشار به المهدي. فبايعوه سرا. وكتموا موت المهدي عن العامة وموهوا عليهم بأنه مريض وصار عبد المؤمن يتقدم إليهم بالأوامر على

لسان المهدي حتى ركنوا إليه فأعلنوا بيعته للعامة سنة **26** واختاروه لغربته فيهم فهو أقرب إلى العدل.

حكى ابن أبي زرع انه لما مات المهدي تشوق كل واحد من العشرة إلى الخلافة، وكانوا من قبائل شتى، فتنافسوا وتحاسدوا ثم تآمروا. وخافوا افتراق الكلمة فاتفقوا على عبد المؤمن لكونه غريبا بينهم مع ما كانوا يرونه من ميل المهدي إليه **1**هـ.

أخذ عبد المؤمن في فتح المغرب. ففتحه في ثلاث كرات:

الأولى فتح فيها مغرب المرابطين وأقام محاربا لهم سبع سنوات ومسكنه الجبال وطاولهم هذه المدة كلها ليحفظ بها قوة رجاله ويضعف الدولة بكثرة النفقات وقلة ما تقبضه من المغارم حتى تختل طاعة الجند وتسأم الرعية، وذلك ما وقع.

الثانية فتح فيها بجاية. و لم يعلن عليها الحرب ولا طاولها بل استعان عليها بالدسائس و لم يتريث في السير إليها، ولولا ذلك ما نجح في فتحها ذلك النجاح .

الثالثة فتح فيها المهدية استعد لفتحها ثلاث سنوات حفر فيها الآبار على طول الطريق وأمر بحفظ الزرع في سنابله وخرج إليها في صفر سنة **54** في جيوشه جرارة وأساطيل محاذية له بحرا، وسار سيرا في غاية النظام وكمال العدة، و لم يسرع في سيرة فبلغ تونس أواخر جمادى الثانية، فاحتلها وتقدم إلى المهدية، فحاصرها حتى فتحها يوم عاشوراء سنة **555** وإنما سلك في فتحه المهدية غير مسلكيه في فتح بجاية وحرب المرابطين

لأنه ليس بإفريقية يومئذ دولة فاشتد أذى النرمان للمسلمين. ووفد عليه جمع منهم بمراكش يستنصرونه، فوعدهم النصرة ولكن تريث في تنفيذ وعده كي تقوى في الناس الغيرة الدينية بما يتكرر عليهم من معرات العدو ويستيقنوا ان لا ناصر لهم غير عبد المؤمن فلا يعترضون سبيله يوما ما، ولكّي يجمع هو قوته فيدهش بها القبائل التي يمر بها عربية وبربرية فلا تحدث نفسها بالثورة عليه. وذلك ما وقع، فقد كان الناس ينضمون إلى جيشه حيثما حل ففي كل مرحلة يزداد جمعه، وما فتح المهدية وطرد النرمان حتى أتاه رؤساء المدن طائعين.

وهكذا تم لعبد المؤمن فتح المغرب. ودخلت في طاعته جزيرة الأندلس فكانت مملكته تنتهي شرقا إلى التراب المصري شرقي طرابلس حيث سويقة بني مضكود، وغربا إلى البحر المحيط، وجنوبا إلى الصحراء وشمالا إلى البحر الأبيض وتجاوزه إلى الأندلس فشملها من الجزائر الشرقية إلى أشبونة.

وقد استعد عبد المؤمن لإخراج الأمر من المصامدة إلى قبيلته وبينه فجمع ثلاث آلاف ولد كأنهم أبناء ليلة واحدة جمعهم من المصادمة وغيرهم. وأخذهم بحفظ كتاب الله وحفظ الموطأ وكتاب ابن تومرت ورباهم على ركوب الخيل والرمي والسباحة ببحيرة صنعها خارج بستانه بمراكش. وكانت نفقتهم وخيلهم من عنده. فلما أكمل تأديبهم على ما أراد عزل بهم أشياخ الموحدين. وقال لهم العلماء أولى منكم. فسلموا لهم الأمر. وظهر من أبنائه ثلاثة عشر ولدا على تلك الصفات. فأشار عليه

أشياخ الموحدين بتقديمهم للأعمال. فتظاهر بالامتناع حتى ألحوا عليه فولاهم على الأقاليم. وذلك سنة 549 وفيها عهد بالأمر من بعده لابنه محمد بعد ما دس إلى رؤساء من العرب كان قد أحسن إليهم ان يطلبوا منه ولاية العهد لأحد أبنائه. وكان ولي عهده أبا حفص عمر الهنتاني جد الحفصيين. فلما طلبوا منه ذلك أنكر عليهم. وشعر أبو حفص بسر القضية. فخشي على نفسه وخلعها من ولاية العهد. وفيها ثار عليه عبد العزيز وعيسى اخوا المهدي لما رأياه من تقديم أبنائه. وكان هو بسلا وهما بفاس. فلحقا بمراكش. ودخلاها وقتلا نائبه بها. فأرسل أثرهما وتوجه نحو مراكش. فقتلا وقتل كل من شاركهم في الثورة.

وفي سنة 557 قدم على عبد المؤمن قومه كومية في أربعين ألفا فارس. وكان هو الذي استقدمهم ثم تجاهل سبب قدومهم تسكينا للمصامدة وتمويها عليهم وقرب موته عزل إبنه 9 محمدا من ولاية العهد. وجعلها لابنه يوسف فلما مات لم يبايع يوسف أبو حفص الهنتاني إلى سنة 563 ويومئذ تلقب يوسف بأمير المؤمنين لما تم له الأمر بمبايعة أبي حفص.

وهكذا تأسست دولة الموحدين واخرج عبد المؤمن الأمر من شيوخ مصمودة إلى أبنائه وكانت عاصمتهم مراكش ولم يعرف المغرب قبل عبد المؤمن وبنيه ولا بعدهم دولة أحسن إدارة ولا أرقى معارف وحضارة من دولتهم.

الحكومة الموحدية المؤمنية:

الدولة الموحدية المؤمنية مستقلة استقلالا تاما. وهي أول دولة بربرية غير خارجية ادعت الخلافة. وكانت أهلا لها اذ لم يكن بنو العباس ولا بنو عبيد يومئذ شيئا مذكورا. وتوسلوا لها من حيث النسب بدعوى ابن تومرت النسب في آل البيت وانتساب عبد المؤمن إلى قيس بن مضر وتعلقه بآل البيت من جهة بعض جداته.

وحكومتها مقيدة بالكتاب والسنة من غير انتماء إلى مذهب خاص. ورئيسها خليفة يدعى أمير المؤمنين ومنهم من تلقب بالألقاب كالمنصور والناصر. وكان الخليفة يعين بالعهد إليه من سلفه. ثم سار أيام انحطاط الدولة يدعي الخلافة دعوى ويتغلب عليها بالقوة. ولكنها انحصرت في بني عبد المؤمن على كل حال.

ويساعد الخليفة ولاة بالأعمال الواسعة ووزراء مختلفو النفوذ وكتاب متفاوتو الدرجات حسب مهماتهم وللخليفة وولاته مجالس شورية يلقب أهلها الشيوخ من أهل العلم والدين لايكونون من غير الموحدين. وقد أخذت الحكومة أنظمتها الإدارية من دولتي صنهاجة وزادتها اتقانا ودقة.

والقضاء يختار له العلماء المجتهدون وأماثل المقلدين للإمامين مالك والشافعي وهو مستقل عن الإدارة. والناس أمامه سواء لا فرق بين أمير وسوقة.

والمالية تجمع من الزكوات وخراج الأراضي الدولية وأخماس الغنائم ليس فيها مكس ولا جور قال ابن أبي زرع:

«أمر عبد المؤمن بعد فتح المهدية بتكسير الأرض فكسرت من برقة إلى نول من بلاد السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا فاسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والخروق. وقسط الخراج على مابقي وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق. وهو أول من أحدث ذلك في المغرب»1هـ.

وكانت المالية وافية بمصارف الدولة من إنشاء البنايات العامة كدور الحكومة والمساجد والقناطر والمستشفيات، ومن عطاء الجنود والموظفين وجوائز الشعراء والعلماء.

وللحكومة جيش من الموحدين ومرتزقة العرب والبربر عدا ماهو مفروض على القبائل من الجنود، ويبلغ أيام الحرب أربعمائة ألف فارس عدا المشاة، وبلغ جيش الناصر الذي خرج به إلى الأندلس مليون من الفرسان والمشاة من سائر الأقسام العسكرية غير المرتزقة.

ولها أسطول ورثته من صنهاجة وزادت فيه وعنيت بصنع الأسلحة والمجانيق والرعادات وأنشأ عبد المؤمن سنة 557 أربعمائة قطعة فرقها على سواحل المغرب والأندلس. وكان يضرب له كل يوم عشرة قناطير من السهام.

وللجيش طبول ورايات. فإذا أريد النفير ضرب طبل كبير مستدير الشكل دوره خمس عشرة ذراعا من خشب أخضر اللون مذهب. يضرب فيه ثلاث ضربات فيرتحل الناس. يسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع. يتقدم الأمير نحو مائة فارس ويأتي وراءه مدبرو دولته ثم بقية الناس حسب مراتبهم. ويصحب الجيش الصناع وأصحاب الحرف وكل ما يحتاج إليه في السفر حتى كأنهم مقيمون.

ومرتبة الموحدين في الجيش ومناصب الحكومة أعلى الرتب. وهم أنفسهم درجات لايتعدى صنف مرتبته سفرا وحضرا. وذكر صاحب المعجب القبائل التي تلقب بالموحدين ورتبهم حسب درجاتهم هكذا: هرغة ثم كومية ثم أهل تينمل ثم هنتاتة ثم قنقيسة ثم قدميوة ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض بطون هسكورة، قال:

«فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث. وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية»1هـ.

وإنما خصت هذه القبائل باسم الموحدين لكونها لبت الدعوة قبل فتح مراكش، ورتبوا في الدرجات حسب ترتبهم في إجابة الدعوة.

وكانت الحكومة حافظة لممالكها حامية لثغورها تعاهد من سالمها وتحارب من حاربها لاتنقض عهدا ولا تخلف وعدا، ارتبطت مع جمهورية جنوة بمعاهدة تجارية، واختلف حالها مع ملوك المسيحية بالأندلس سلما وحربا، يعاهدونها إذا ضعفوا وان وجدوا فرصة نقضوا العهد، وكانت

مسالمة لأصحاب صقلية، قال صاحب المعجب: «**كان صاحب صقلية يؤدي اتاوة لأبي يعقوب، وإتصلت إليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها»** 1هـ.

وكانت الحالة الداخلية على غاية من الاطمئنان، فكثرت الأموال وتأمنت الطرق وصلح أمر الناس في البادية والحاضرة وعم الأمن والرخاء وكانت الظعينة تخرج من بلاد نول إلى برقة وحدها لاترى في سفرها ما يؤذيها، كل هذا بعدل بني عبد المؤمن وحسن سياستهم.

وبعد الناصر ولي ابنه المنتصر صبيا، فتحكم في الدولة الحاشية، واختلت الدولة حتى ظهرت زناتة على مسرح السياسة وطمع الحفصيون في عرش بني عبد المؤمن، فتغيرت الأحوال بما أدى إلى سقوط هذه الدولة.

وكانت للدولة سكتها دنانير ودراهم وانصاف درهم وأرباعه وأثمانه والخراريب، والدرهم المؤمني نصف درهم الزكاة، وكان مربعا، يكتب على السكة إسم المهدي حتى ولي المأمون بن منصور ودخل مراكش سنة **627** فدور الدرهم وقطع منه إسم المهدي.

عبد المؤمن وبنوه:

كان عبد المؤمن وبنوه أهل علم وأدب ولهم عناية بالجهاد. قد صرفوا قواهم لحماية الأندلس حتى أن المنصور لما حضرته الوفاة جمع بنيه والموحدين وقال لهم: «**أوصيكم بالأيتام واليتيمة؟ قيل له وما الأيتام**

واليتيمة؟ قال اليتيمة الأندلس والأيتام أهلها. انه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها، ولو مد الله في أجلنا لم نتوان في جهاد كفارها حتى نعيدها دار إسلام. فإياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد أسوار وحماية ثور وتربية الأجناد وتوفير الرعية».

وكانت العلامة السلطانية عندهم «**الحمد لله وحده**» يكتبها الخليفة بيده بخط غليظ في رأس الرسالة أو المنشور. وفي ذلك تقول حفصة الأندلسية تخاطب عبد المؤمن :

ياسيد الناس يا من يؤمل الناس رفده
امنن علي بطرس يكون للدهر عده
تخط يمناك فيـــه «الحمد لله وحده».

وكان بنو عبد المؤمن يعرفون بالسادة لاينعت بالسيد لعهدهم سواهم.

ولد عبد المؤمن بقرية تاقرا من ساحل تلمسان على ثلاثة أميال من مرسي هنين سنة **487**. وكان والده علي فخارا يعمل النوافيخ، وقيل كان قاضيا. وليس لقبيلته كومية شأن. ونشأ هو فقيرا طالبا للعلم فارتحل إلى بجاية. فاتفق أن كان ابن تومرت قد أخرج منها إلى ملالة، ووجد له ذكرا، فقصده. وألفى بغيته لديه فصحبه واستفاد من علمه ثم استغل جهوده في تأسيس هذه الدولة.

وكان عبد المؤمن أبيض مشربا بحمرة تام القد اجعد تبلغ وفرته شحمة أذنيه أكحل العينين أزج الحاجبين قويم الأنف عريضه فصيحا فقيها جدليا أصوليا محدثا إماما في النحو والأدب والقراءة ذاكرا للتاريخ وأيام الناس مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية حازما سياسيا مقداما سري الهمة حسن السيرة سخيا مقربا لأهل العلم والأدب منفقا لبضاعتهم.

وتوفي عبد المؤمن وترك ستة عشر ذكرا وبنتين. فخلفه منهم أبو يعقوب يوسف. وسار بسيرة أبيه. وأجاز إلى الأندلس مجاهدا. وتوفي بها شهيدا. وعني بالعمران وبناء القناطر والمساجد والمستشفيات. وكان له أطباء وفقهاء يجالسونه.

وكان يشبه أباه خلقا وخلقا عاقلا ورعا مباشرا أمور المملكة بنفسه. وكان من كتابه أبو الفضل بن طاهر البجائي من أهل العلم والفضل والدين والتقى كان كاتبا بليغا مترسلا. وكتب بعده للمنصور ثم الناصر.

وترك أبو يعقوب ثمانية عشر ذكرا. خلفه منهم يعقوب المنصور. أقام العدل وأرجع الولاة والعمال إلى أحكام القضاة. وكانت له بالأندلس وقعة الأراك على النصارى سنة **591** وكان كأبيه وجده علما ودينا وسياسة كثير التواضع يشهد جنائز الفقهاء والصلحاء.

وترك من الذكور أربعة عشر. ولي الخلافة منهم ثلاثة الناصر والعادل والمأمون وخلفه منهم محمد الناصر أمه بنت أبي اسحق بن الخليفة

عبد المؤمن، وفي أيامه عظم أمر ابن غانية بإفريقية، فولي عليها أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص، وكان ذلك مبتدأ الدولة الحفصية، ثم كانت عليه واقعة العقاب بالأندلس سنة **609** وكان غليظ الحجاب لا تكاد تصله الأمور، وذلك سبب ضعف الدولة.

وعهد إلى ابنه يوسف المنتصر، فخلفه وهو دون البلوغ، وقام بالدولة الحاشية من الموحدين، وأوقعوا بني عبد المؤمن في فتنة التنافس على الملك وصاروا لهم كالأتراك لبني العباس، ولم يخرج المنتصر من مراكش حتى توفي. وقد ظهرت زناتة على مسرح السياسة.

وخلفه أخو جده عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، قدمه الموحدون على كراهية منه لكبر سنه وظهور الاستبداد على الخليفة، وكان صالحا فاضلا ورعا ولم يستقم له الأمر غير شهرين، وقام عليه العادل ابن أخيه. فخلع وقتل، وكان أول مخلوع ومقتول في هذه الدولة.

وأبو محمد عبد الله العادل هو ابن المنصور، تغلب على الخلافة ثم قتله الموحدون وبايعوا ابن أخيه يحي المعتصم ابن الناصر، واضطربت أموره لصغره واختلال الدولة، فانتقل إلى تينملل سنة **26** فدخل عمه المأمون مراكش سنة **27** وبقي يحي بتينملل محاربا للمأمون وابنه الرشيد حتى قتل سنة **633**.

تغلب على مراكش أبو العلاء إدريس المأمون بن المنصور، وأعلن لعن المهدي، وقتل كثيرا من شيوخ الموحدين العابثين بالخلافة، وسعى في إصلاح الدولة، ولكن عاجلته المنية فمات ولم يحقق أمنيته.

وخلفه ابنه ابو محمد عبد الواحد الرشيد وهو في سن الرابعة عشرة. فكانت خلافته قوة لمنافسي دولته، ولما مات خلفه أخوه أبو الحسن علي الملقب بالسعيد وبالمعتصم، وكان بطلا مقداما بعيد الهمة، لكنه جاء بعد استفحال الداء، وقتل في حربه مع يغمرا سن ابن زيان .

وخلفه أبو حفص عمر المرتضى بن اسحق بن يوسف بن عبد المؤمن، وقتله ابن عمه أبو دبوس إدريس الواثق بن أبي عبد الله ابن عمر بن عبد المؤمن، واستولى مكانه حتى دخل عليه بنو مرين وقتلوه في المحرم سنة **668**.

وبه انقرض أمر بني عبد المؤمن رغم محاولتهم لإرجاع سلطانهم، فقد فر الموحدون من مراكش إلى جبل تينملل وبايعوا اسحق أخا المرتضى، فقبض عليه سنة **674** وجيء به إلى يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين، فقتل في جملة من أبنائه وذوي قرابته، وفي سنة **705** ظهر بإفريقية عثمان بن أبي دبوس كان بطرابلس، فاستقدمه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب من سليم، وبايعه واجلب به إلى تونس، فقبض عليهما وأودعا السجن، وفي آخر سنة **748** بايع العرب أحمد بن عثمان بن أبي دبوس وكان خياطا بتوزر، واجلبوا به على تونس، ثم خذلوه سنة **49** وسلموه لأبي الحسن المريني المستولي يومئذ على تونس فاعتقله. وانقطع أمل بني عبد المؤمن في إحياء دولتهم.

عبد المؤمن بنوه

الخليفة	الولاية		الخليفة	الولاية	
	هـ	م		هـ	م
عبد المؤمن بن علي	524	1130	يحي المعتصم ابن الناصر	624	1227
ابنه يوسف	558	1163	إدريس المأمون ابن المنصور	627	1230
ابنه يعقوب المنصور	580	1184	ابنه عبد الواحد الرشيد	630	1232
ابنه محمد الناصر	595	1199	اخوه علي السعيد	640	1242
ابنه يوسف المنتصر	610	1213	عمر المرتضى بن اسحق	646	1248
عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن	620	1 224	إدريس الواثق	665	1266
عبد الله العادل بن المنصور	621	1224	سقوط الدولة	668	1269

ولاة الجزائر المؤمنية:

كانت الجزائر المؤمنية مقسمة إلى ولايتين كبيرتين: ولاية تلمسان من ملوية غربا إلى نهر مينة شرقا، وولاية بجاية إلى حدود عمالة قسنطينة اليوم شرقا فقد ذكر صاحب المعجب من مدنها قالمة بلفظ قالم تحريفا. وفتحت مدينة الكاف في غزوة المهدية. فيظهر أنها تابعة لولاية تونس وربما تبع الزاب ولاية تونس وكان للولاة وزراء وكتاب ومجالس شورى من شيوخ الموحدين.

ولي تلمسان لما فتحت سليمان بن محمد وانودين الهنتاني وقيل عمه يوسف وولي بجاية لما فتحت طلبة من الموحدين، وفي سنة **49** بعث عبد المؤمن على تلمسان ابنه أبا حفص عمر واستوزر له أبا محمد عبد الحق بن وانودين، واستكتب له أبا الحسن عبد الملك ابن عياش القرطبي، وبعث على بجاية ابنه أبا محمد عبد الله واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن، واستكتب له أبا العباس بن مضاء.

ولما ولي الخليفة يوسف امتنع مع بيعته أخوه عبد الله ببجاية، ثم أتاه مبايعا سنة **59** فعفا عنه ووصله وأحسن اليه، ثم مات.

وفي سنة **61** ولى الخليفة يوسف أخاه زكرياء ببجاية، وأمره بتفقد أحوال إفريقية ورفع مظالمها وقطع طغاتها، وتوفي بالطاعون في مراكش سنة **71**.

وفي سنة 76 ولى يوسف على بجاية أخاه أبا موسى عيسى، ثم ولو بعده ابن أخيه السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، فلم يزل بها حتى استولى عليها علي بن غانية سنة 80 ثم ولي تلمسان.

وفي سنة 555 استقدم عبد المؤمن ابنه أبا حفص من تلمسان، ثم استوزره أخوه يوسف، ومات سنة 75 وولي على تلمسان السيد أبو عمران موسى بن عبد المؤمن سنة 56، ووفد على أخيه يوسف بمراكش هو وصاحب بجاية أبو زكرياء في وجوه أهل إفريقية من العرب وغيرهم، وكان دخولهم مراكش سنة 64 فكان يوما مشهودا، ثم نهض الخليفة إلى غزو الأندلس سنة 66 فاستخلف على مراكش أخاه أبا عمران وبها توفي بالطاعون سنة 71.

ثم ولي تلمسان أبو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن، وقدم عليه أخوه أبو زيد من إفريقية فارا من ابن غانية فتنبه لتحصين بلاده ورم أسوارها ثم عاد أبو زيد لحرب ابن غانية بأمر ابن عمه المنصور فخلص بجاية، ونزلها، ثم استقدمه المنصور منها، وولى مكانه أخاه السيد أبا عبد الله بن عمر. ثم خرج المنصور نفسه لحرب ابن غانية.

وفي سنة 584 قفل المنصور إلى مراكش، فعقد لأبي زيد على تونس ولأخيه أبي الحسن على بجاية. فأقام بها إلى أيام الناصر، ولم يغن في دفاع ابن غانية، وكان مولعا بالأدب والطرب، فعزل عنها. وله نفس عالية زكية وحكايات في الجود برمكية، ومن شعره قوله يخاطب المنصور في قضاء ديونه:

وجوه الأماني بكم مسـفره وضاحكة لي مستبشرة
ولي أمل فيكم صادق قريب عسى الله أن يسـره
علي ديون وتصحيفـها وعندكم الجود والمغفره

وولي تلمسان بعد انتقال أبي الحسن إلى بجاية السيد أبو الربيع ابن عبد الله بن عبد المؤمن، وتوفي هو وأبو الحسن سنة **604** فولى الناصر بتلمسان السيد أبا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن سنة **605** وقتل في حرب ابن غانية، فولى الناصر مكانه أبا زيد ابن يزجان، وعزله المنتصر بابي سعيد بن المنصور.

وممن ولي ببجاية بعد أبي الحسن ابن يغمور، فلما أفضى الأمر إلى العادل عزله بيحي بن الأطاس التينمللي، وفي سنة **624** بايع أهل الأندلس إدريس المأمون باشبيلية قال ابن خلدون: وبايعه صاحب تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان وصاحب سبتة أبا موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن أخيه ابن الأطاس، وفي بعض نسخه ابن أخته ابن الأطامي.

وفي سنة **27** خلع أبو زكرياء الحفصي طاعة المأمون فقعد المأمون على بجاية للسيد أبي عمران بن محمد بن يعقوب المنصور، وفي سنة **28** فتح أبو زكرياء قسنطينة وبجاية، واعتقل السيد أبا عمران، وثقفه بتونس، فانقرضت كلمة بني عبد المؤمن من عمل بجاية، وقامت بها دعوة الحفصيين.

وكان المأمون قد ولي على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد، وكان مغفلا ضعيف التدبير، ومعه الحسن بن حبون الكومي عاملا على الوطن،

فغلب على أبي سعيد وأغراه ببني عبد الواد. فقبض على طائفة من مشيختهم، وشفع فيهم ابراهيم ابن اسمعيل بن علان زعيم الجند اللمتوني بتلمسان، فردت شفاعته، فقام بدعوة ابن غانية، واغتال الحسن بن حبون وثقف السيد أبا سعيد، وسرح مشيخة بني عبد الواد. ونكروه فقتلوا ابراهيم ابن اسمعيل ودخلوا تلمسان بدعوة المأمون، واستمرت ولايتها في مشيختهم حتى استقل بها يغمراسن بن زيان.

وهكذا خرجت الجزائر من يد السادة بني عبد المؤمن إلى الحفصيين وبني عبد الواد، فكانت ولايتهم بها نحو ثمانين سنة.

ثورة ابن غانية:

كان علي بن يحي المسوفي مقربا لدى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين. فزوجه إمرأة من أهل بيته تسمى غانية. فولدت له محمدا ويحي. وعقد علي بن يوسف لمحمد على الجزائر الشرقية سنة **520** فنزل ميورقة. ولما هلك خلفه ابنه اسحق. وسقطت أيامه دولة المرابطين، ووفدت عليه فلولهم. فأحسن إليهم. وغني بالغزو. واستمر على الدعاء لبني العباس. واغفل الموحدون شأنه. واستشهد سنة **579** وترك أبناء منهم علي خليفته من بعده ويحي. وفي ربيع الأخير من هذه السنة استشهد بالأندلس أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن.

هنالك أراد أبناء غانية إحياء دولة المرابطين بالمغرب وإعادة الدعوى العباسية اليه. واتفق معهم أهل بجاية من الحماديين وغيرهم على ذلك.

وظنوا كلمة الموحدين تختلف فيمن يخلف يوسف لكثرة أبناء عبد المؤمن ولعل في المصامدة من يدعو إلى نفسه. وأمير الجزائر الشرقية من أبناء غانية يومئذ علي بن اسحق المعروف بالميورقي لكونه يقطن ميورقة. وما زال لفظ الميورقي معروفا لدى العوام ببعض جهاتنا الجنوبية يقولون المورقي بحذف الياء.

خرج علي بن اسحق من ميورقة في اثنتين وثلاثين قطعة ومعه بعض إخوته منهم يحي. وحمل أسطوله نحو مائتي فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل. فأرسى على بجاية يوم الجمعة من شعبان سنة **580** ودخلها وقت الصلاة من غير قتال. والناس آمنون. ووالي المدينة السيد سليمان بن عبد الله خارجها بايميلول. ولم يترك بها حامية للأمن من طروق العدو.

لما دخل علي بن اسحق قصد الجامع الأعظم وأدار به الخيل والرجال. فمن بايعه خلى سبيله ومن أبى قتله. وألفى بها والي تونس السيد أبا موسى بن عبد المؤمن. فاعتقله. وكان والي القلعة قاصدا مراكش. فبلغه الخبر وهو بمتيجة. فعاد لمظاهرة السيد سليمان. وقصدا استرجاع بجاية. فاجتمع من الموحدين ثلاثماية فارس ومن العرب وقبائل تلك الجهات نحو ألف فارس. واجتمع إلى الميورقي نحو ألف فارس. وتقابل الجمعان. فانخزل من كان مع الموحدين إلى الميورقي. فانهزم السيد سليمان إلى تلمسان. وغنم الميورقي أمواله وأبنيته.

استألف علي بن اسحق العرب بالمال، واستخلف أخوه يحي ببجاية وخرج لافتتاح ولايتها. ففتح الجزائر ومليانة ومازونة والقلعة. وتوجه إلى

قسنطينة فحاصرها وقطع الماء عن أهلها حتى أغاثهم الله بمطر غزير فكسر واديها سده.

وبلغ المنصور بن يوسف خبر بجاية وهو قافل من الأندلس فأرسل عسكرا في البر لنظر السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن، وبعث الأساطيل في البحر يقودها أحمد الصقلي وعقد عليها لأبي محمد ابن ابراهيم بن جامع، فاسترجعوا ما استولى عليه الميورقي من البلدان. ونزلوا على بجاية في صفر سنة **81** بجنود لا قبل ليحي بها، ففر ومن معه من الملثمين. ولحقوا بعلي وهو محاصر لقسنطينة. فكانت مدتهم ببجاية سبعة أشهر خطبوا فيها لبني العباس. وخطيبهم أبو محمد عبد الحق الاشبيلي الذائع الصيت.

عسكر السيد أبو زيد بتيكلات من ظاهر بجاية وأطلق عمه أبا موسى من معتقله. ثم رحل اثر ابن غانية. فأجلاه عن قسنطينة واتبعه إلى نقاوس ومقرة، ودخل علي بن اسحق الصحراء. وملك قفصة واستقر بها، واستقر أبو زيد ببجاية.

ثم ظهر غزي الصنهاجي في جموع من الملثمين والعرب وتغلب على أشير. فسرح إليهم السيد أبو زيد ابنه عمر ومعه غانم بن مردنيش فأوقع بجموع غزي وقتله ونصب رأسه ببجاية. وغرب أبو زيد بني حمدون إلى سلا لاتهامهم بتأييد ابن غانية. ثم استقدم المنصور أبا زيد من بجاية.

واجتمع إلى ابن غانية بإفريقية جموع العرب من رياح وغيرهم. وانصاف إليه قراقوش بمن هنالك من الأتراك. وبايعوا علي بن اسحق.

ولقبوه أمير المسلمين فجدد رسوم الملك واتخذ الآلة. وأوفد إلى بغداد ابنه وكاتبه عبد البر بن فرسان بالبيعة وطلب المدد. فأمر الخليفة عماله بمصر والشام بمدده. فعظم سلطان علي بن غانية واستولى على إفريقية وانزل بأهلها وعمرانها بلاء لم ينزل بها أيام دخول الهلاليين ذكر تفصيله ابن الأثير وأهم المنصور أمره فخرج بجموعه إلى إفريقية سنة **83** وكانت بينه وبين ابن غانيه وقائع غير فاصله. ثم عاد إلى مراكش سنة **84** ومات في هذه السنة علي بن غانية بنفزاوة من ناحية الجريد. فخلفه أخوه يحي. ونقل الحرب إلى المغرب بعد سنة **597**.

خرج من بجاية واليها السيد أبو الحسن في جيش عظيم للقاء يحي. قال صاحب المعجب: «**لم أر للموحدين جيشا أضخم منه ولا أكثر سلاحا ولا أحسن عدة. وفيه من أعيانهم وشيوخهم جملة وافرة»اهـ.**

التقى الجمعان قرب قسنطينة من ناحية بجاية. فانهزم الموحدون إلى بجاية في حال سيئة. وتوجه يحي إلى بسكرة. فدخلها ومثل بأهلها. وسجن عاملها أبا الحسن بن أبي يعلى. ثم ملك تبسة. وبايعه أهل بونة. وعاد إلى المهدية.

قوي أمر يحي الميورقي. وحاصر قسنطينة. فجهز له أبو الحسن عسكرا حفظها. فارتحل يحي إلى حصار بجاية. وكان المدد يأتيه من ميورقة. فأجاز الناصر أساطيله إليها من مدينة الجزائر سنة **98** فاستولوا عليها سنة **99**.

وفي سنة **601** توجه الناصر نفسه إلى إفريقية. ولم يبق بها للموحدين غير قسنطينة وبجاية. فأجلى يحي إلى جبل دمر واسترجع البلاد لطاعته. وعقد على إفريقية لأبي محمد بن أبي حفص سنة **603** وقفل إلى مراكش، فخرج عليه يحي بوادي شلف في جيش عظيم من العرب وصنهاجة وزناتة فتقاتلا قتالا شديدا، ثم الهزم الميورقي، وشرق، فلقيه أبو محمد بن أبي حفص بنواحي تبسة، فهزمه أيضا إلى الصحراء وذلك سنة **604**.

وبعدما استجمع يحي قواه إلى نهض إلى المغرب يغير ويسبي ويخرب حتى بلغ سجلماسة وتقدم إلى المغرب الأوسط، فخرج إليه والي تلمسان السيد أبو عمران. وكان اللقاء على تاهرت. فقتل أبو عمران وغنم عسكره، وشرق يحي بالغنائم فاستنقذها منه والي تونس، وفتك به فتكا ذهب بقوته، فأخذت ثورته في الضعف، وذلك سنة **606**.

وفي سنة **18** توفي أبو محمد بن أبي حفص فولى مكانه السيد أبو العلاء إدريس بن يونس ين عبد المؤمن، وطارد يحي ين غانية، فلحق بالزاب ونزل بسكرة، فاتبعه أبو العلاء ابنه أبا زيد، فأجلاه عنها.

انتقل يحي إلى المغرب الأوسط وانقسمت زناتة عليه وعلى الموحدين فكانت بينهم وقائع، وقتل في بعضها أمير مغراوة منديل بن عبد الرحمن بمتييجة سنة **622** ودخل يحي بعدها الجزائر، ولكن نجمه في أفول.

وفي سنة **24** كان والي تونس عبد الله بن أبي محمد بن أبي حفص فبلغه أن يحي بن غانية دخل بجاية عنوة، وتخطاها إلى دلس وعاث في تلك

النواحي. فاخذ السير حتى دخل بجاية وسكن أحوالها، وسار إلى متيجة فمليانة، فبلغه أن يحي قصد سجلماسة، فانكفأ إلى تونس .

وفي سنة **25** تولى تونس أبو زكرياء أخو عبد الله المتقدم. وهو جد الملوك الحفصيين. فصرف عزمه لاستئصال حركة ابن غانية. فشرده عن الزاب وورقلة. وانزل الحامية بأطراف البلاد. فلم يزل يحي شريدا إلى ان هلك سنة **631** بوادي شلف وقيل بالزاب.

دامت ثورة ابن غانية نصف قرن. و لم يجن الوطن منها غير الخراب. فقد خرب كثيرا من قصور الصحراء بوادي ريغ وغيره. وخربت تاهرت وقصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة.

ولقد كان بنو غانية يرومون إحياء سلطانهم بالمغرب فلم ينجحوا لقوة الموحدين وجدهم. ولكن نتج عن ثورتهم تخريب كثير من المدن وشغل الموحدين عن موالاة الجهاد بالأندلس وإضعاف دولة بني عبد المؤمن وظهور الحفصيين.

وكان علي ويحي ابنا غانية آيتين في علو الهمة والإقدام على العظائم والغناء في مواقف الحرب. وكان كاتبهما عبد البر بن فرسان الغساني مثلهما شجاعة وإقداما. وهو أديب بارع. ومن شعره يخاطب يحي بن غانية.

اجبنا ورمحي ناصري وحسامي وعجزا وعزمي قائدي وأمامي؟

ولي منك بطاش اليدين غضنفر يحارب عن أشباله ويحامـــــي

الاغنياني بالصهيل فانـــــــه سماعي ورقراق الدماء مدامي!
وحطا على الرمضاء رحلي فإنما مهادي وخفاق البنود خيامي!

العرب في الدولة المؤمنية:

وجد العرب بغيتهم في الدولة الصنهاجية لضعفها. فلما قدم عبد المؤمن لفتح بجاية وفد عليه بالجزائر أميران منهم أحدهما أبو الخليل ابن كسلان أمير الاثبج وفي بعض نسخ ابن خلدون أبو الجليل بن شاكر. وثانيهما حباس بن مشيفر أمير جشم فتلقاهما بالمبرة وعقد لهما على قومهما. ومضى لفتح بجاية.

ولما فتحها خشوا على حريتهم منه فحاربوه مع صنهاجة وقتلوا صهره عبد الله بن وانودين. ثم اجتمعوا بظاهرة باجة، فوضعوا ما بينهم من ترات. ودعتهم المصلحة المشتركة إلى الاتحاد على إخراج عبد المؤمن من البلاد قبل أن يرسخ نفوذه فيها وجمعوا نساءهم وأموالهم. وارتحلوا لحرب عبد المؤمن ليكون لقاؤهم أصدق وقدمهم في الميدان أثبت.

وهؤلاء العرب هم الاثبج ورياح وزغبة وقرة. وأمير رياح يومئذ محرز بن زياد بن فادغ إحدى بطون بني علي. ومن الأمراء سواه جبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن. وأرسل إليهم رجار صاحب صقلية يعرض عليهم أنجاده إياهم بخمسة آلاف فارس من النصارى. فأجابوه يشكرون له صنيعه وأنهم في غنى عن نجدته اذ لا يستعان بكافر على مسلم.

وبلغ عبد المؤمن من خبرهم. وكان ببجاية على ما قال البيذق وهو شاهد لهذا الفتح ووقائعه فخرج للقائهم عبد الله بن عبد المؤمن.

وأمده أبوه بالرجال فبلغ جيشه أكثر من ثلاثين ألف فارس. وانضاف إليهم من أمراء العرب ديفل بن ميمون.

التقى الجمعان بناحية سطيف، قال البيذق سنة **46** وقال ابن الأثير في صفر سنة **48** فتأخر الموحدون حتى حل العرب بين جبال. فمالوا عليهم وهم على غير أهبة. واشتد القتال ثلاثة أيام. ثم انهزم العرب في اليوم الرابع. وتبعهم الموحدون إلى ناحية تبسة.

قال ابن الأثير: «**وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونعم فقسم عبد المؤمن جميع الأموال على العسكر. وترك النساء والأولاد. ووكل بهم من يحفظهم ويقوم بحوائجهم. ولما وصلوا معه مراكش أنزلهم المساكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة. وأمر ابنه محمدا ان يكاتب أمراء العرب ويعلمهم أن نسائهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة. وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة. فوفدوا عليه بمراكش. ورد عليهم نساءهم وأولادهم وأعطاهم أموالا جزيلة. فاسترق قلوبهم بذلك. وأقاموا عنده. وكان بهم حفيا. واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد**»1هـ.

وقال البيذق: «**ترك عبد المؤمن من غنائم العرب وسبيها بفاس ومكناسة وسلا. وحمل معه إلى مراكش سلاطينهم وعيالهم. وهم ديفل**

بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان وأبو قطرن وأبو عرفة والقائد بن معرف. ثم من عليهم ورد عليهم عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. وذلك سنة 547» 1هـ.

وأرى أن الأمراء الذين نقلهم عبد المؤمن معه غير الذين كاتبهم جمعا بين الروايتين فان الواقعة عظيمة جدا لجمع كل من الفريقين قوته فيها. فلا يستوفيها ابن الأثير – وان كان مؤرخا بصيرا – لبعده عنها ولا يستوفيها البيذق – وان كان حاضرا – لغفلته.

ولما عاد عبد المؤمن إلى المشرق وفتح المهدية أحضر امراء العرب وأحلفهم في مصحف عثمان (ض) على السمع والطاعة والسير معه للجهاد بالأندلس. واستصحب منهم في عوده فلما قرب من وهران طلبه عرب إفريقية في الرجوع إلى حللهم. فأسعفهم. ونقل منهم إلى المغرب ألفا من كل قبيلة بعيالاتهم. وكانت نيته إخلاء إفريقية من العرب ونقلهم إلى المغرب والأندلس ليبعدهم عن الصحراء ويقربهم من عاصمته ويشغلهم بالجهاد.

وفي سنة **58** خرج عبد المؤمن من مراكش يريد الجواز إلى الأندلس. فندب عرب بجاية إلى الجهاد برسالة ختمها بأبيات من نظمه وهي :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائـــر ... وشدوا على الأعداءِ شدة صائـــل

فما العز الا ظهر أجرد سابـــح ... يفوت الصبا في شدة المتواصـــــل

وابيض ما ثور كان فرنـــــده	على الماء منسوج وليس بسائــل
بني العم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باســل
تعالوا فقد شدت إلى الغزونية	عواقبها منصورة بالأوائـــــل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي	تنجز من بعد المـدى المتــطاول
بها يفتح الدنيا بها يبلغ المــنى	بها ينصف التحقيق من كل باطــل
أهبنا بكم للخير والله حسبـنا	وحسبكم والله أعدل عـــادل
فما همنا الإصلاح جميعـــكم	وتسريحكم في ظل أخضر هاطــل
وتسويغكم نعمى ترف ظــلالها	عليكم بخير عاجل غــير آجــل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمـــــة	وللمدلج الساري صفاء الــمناهل

قال صاحب المعجب: «**فاستجاب له منهم جمع ضخم فانزل بعضهم نواحي قرطبة وبعضهم نواحي أشبيلية. وأقاموا هنالك وزاد فيهم أبو يعقوب وأبوا يوسف فكثروا. وانتشر من نسلهم في تلك المواضع خلق كثير. وعددهم الآن وهو سنة 621 نحو خمسة آلاف فارس، سوى الرجالة. وهم من زغبة ورياح وجشم وغيرهم**»1هـ.

وفي سنة 77 وفد على يوسف بمراكش أمير رياح أبو سرحان مسعود بن سلطان في جيش عظيم من وجوه قومه برسم الخدمة.

ونظهر ببعض نواحي إفريقية مفسدون من العرب. فخرج إليهم والي تونس السيد أبو موسى بن عبد المؤمن في الجند وأولياء الدولة من العرب وغيرهم. فانهزم جيشه. وأسره العرب. وتفاوض معه أبو يعقوب أمير المؤمنين في فدائه. فتقرر الفداء بستة وثلاثين ألف مثقال. ورأى أبو

يعقوب ان هذا المال مما يقويهم على فسادهم. فضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة. وخرج أبو موسى من أسرهم. وتوجه إلى مراكش. فلما كان ببجاية دخلها ابن غانية وأسره أيضا.

ولما كانت ثورة ابن غانية انضم إليها جشم ورياح وجمهور الاثبج. وانحازت زغبة إلى الموحدين. ودافعت ابن غانية عن المغرب الأوسط، فاقطع الموحدون بني يزيد منهم أرض حمزة. واستظهروا بهم على صنهاجة وزواوة. ثم دفعوهم لاقتضاء جباية تلك النواحي.

ولما خرج المنصور إلى إفريقية راجعت طاعته جشم ورياح وبعض القبائل. فنقل منهم إلى المغرب قبائل رياح وجشم وقرة والعاصم ومقدم. وبقيت إحياء من رياح أميرهم عساكر ابن سلطان الذوادي لما بلاه المنصور من حسن طاعتهم.

وحوالي سنة **90** فر من المغرب أمير رياح مسعود ابن سلطان الذوادي الملقب بالبلط لشدته وصلابته. ولحق بإفريقية. واجتمع إليه بنو أخيه عساكر. ووصل يده بابن غانية. ثم هلك فخلفه ابنه محمد. وكان رئيسا عظيما. فلم يزل يجلب مع ابن غانية على الموحدين. وقتل ابنه عبد الله سنة **606** في بعض المعارك وابن عمه حركات بن أبي الشيخ ابن عساكر وأمير من قرة. واجتمع إلى محمد ابن مسعود طواعن من الضحاك ولطيف. وصار يتقلب بجموعه ما بين القيروان والجريد إلى الزاب والحضنة. حتى هلك يحي بن غانية. واستغلظ سلطان الحفصيين.

البربر في الدولة المؤمنية:

قضى الموحدون على صنهاجة. وحاولت الثورة عليهم واتحدت مع ابن غانية. ولكنها لم تفلح. ويظره ان كتامة أيدتهم. فان قسنطينة هي المدينة الوحيدة التي لم يحتلها ابن غانية. و لم نعلم أنه جاوزها شمالا إلى نواحي ميلة، وكان أولاد علاوة بن سواق رؤساء سدويكش موالين للموحدين، وكان أبو بكر جد بني ثابت من بني تليلان هو الذي فرض المغرم للمودين على أهله بجلبهم المعترض ما بين القل وقسنطينة، ولم يزل بنو تليلان وسدويكش على ولائهم حتى أفضى الأمر إلى الحفصيين.

ووهاصة المغرب اندرجت في كومية ووهاصة عنابة ربما كان منها بعض الخلاف، فقد اعترضت سنة **623** أبا زكرياء مؤسس الدولة الحفصية وهو ذاهب إلى تونس، وجهه أخوه عبد الله أمامه لما وليها، فأوقع بهم.

وهوارة تبسة كان لها شأن في ثورة ابن غانية وأميرهم يومئذ حناش بن ونيفن، وأوقع بهم سنة **624** والي تونس عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص بفحص ابة. واعتقل مشائخهم، وأنقذهم إلى المهدية.

وكان بنو ومانو هم السابقين إلى عبد المؤمن ثم وفد عليه بعد واقعة منداس وهو محاصر لوهران سيد الناس بن أمير الناس الشيخ بني يلومي وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد وعطية الحيو بن مناد ابن العباس بن دافلتن المنكوشي شيخ بني توجين، ثم خالف بنو يلومي. وتحصنوا بالجعبات، فأخضعتهم العساكر. ونقلوا منهم إلى المغرب، وهلك سيد

الناس بمراكش أيام عبد المؤمن، ثم هلك بنو ماخوخ، فضعف أمر بني ومانو وبني يلومي، واستعلى عليهم بنو توجين وبنو عبد الواد، فتفرقوا أوزاعا في زناتة .

ومغراوة شلف من ورسيفان وغيرهم استقاموا على الطاعة. وذهب ملك إخوانهم بني خزرون بن فلفول من طرابلس سنة **540** فلحق بهم عبد الصمد بن محمد بن خليفة بن ورابن سعيد بن خزرون ابن فلفول، وتزوج منهم وكثر ولده، وعرف حافده أبو ناس بن عبد الصمد بن وارجيع بن عبد الصمد بالعبادة والفضل، فتزوج من بنات ماخوخ وولدت له عبد الرحمن، فكان السادة من بني عبد المؤمن يمرون به في ذهابهم إلى إفريقية وإيابهم رمنها، فيحسن خدمتهم في مقامهم لديه، وينقلبون بالثناء عليه، فنال صيتا عند الخلفاء، واسلم له بعض السادة منهم ذخيرة وظهرا، فاكتسب ثروة. واستركب من قومه واستكثر من عصابته.

ولما هلك خلفه ابنه منديل وحافظ على ولاء بني عبد المؤمن وحضر معهم غزوة الأراك سنة **591** واخضع لهم وانشريس ولمدية. واجلب على متيجة. ولقي بها يحي بن غانية. فالهزمت عنه مغراوة. وقتل هو صبرا سنة **622** وصلب شلوه بالجزائر.

وترك أبناء خلفه أكبرهم العباس، وظهرت أيامه دولة الحفصيين. فأخذ بدعوتها منافسة لبني عبد الواد.

وبنو توجين صدقوا في ولاء الدولة، وكانت بين شيخهم عطية الحيو وشيخ عبد الواد عدوى بن يكنمن من بني القاسم حروب شداد، واستمرت بين القبيلتين إلى ما بعد سقوط الدولة المؤمنية.

ولما هلك عطية خلفه ابنه العباس وكان دليل المنصور إلى تلمسان في قفوله إلى مراكش سنة **584**، واجلب بقومه على ضواحي المغرب الأوسط. ثم نقض طاعة الموحدين فدس عليه والي تلمسان أبو زيد ابن يوجان من اغتاله سنة **607** فخلفه ابنه عبد القوي، وكان قد حضر ببني توجين وقعة الأراك ولما ظهرت دولة الحفصيين أخذ بدعوتها مشاقة لبني عبد الواد .

وبنو توجين صدقوا في ولاء الدولة، وكانت بين شيخهم عطية الحيو وشيخ عبد الواد عدوى بن يكنمن من بني القاسم حروب شداد، واستمرت بين القبيلتين إلى ما بعد سقوط الدولة المؤمنية .

ولما هلك عطية خلفه ابنه العباس وكان دليل المنصور إلى تلمسان في قفوله إلى مراكش سنة **584**، واجلب بقومه على ضواحي المغرب الأوسط. ثم نقض طاعة الموحدين فدس عليه والي تلمسان أبو زيد ابن يوجان سن اغتاله سنة **607** فخلفه ابنه عبد القوي، وكان قد حضر ببني توجين وقعة الأراك ولما ظهرت دولة الحفصيين أخذ بدعوتها مشاقة لبني عبد الواد.

وبنو راشد كانوا أحلافا لبني عبد الواد يوالون من والاهم ويعادون من عادوهم، ورئاستهم في بني عمران منهم لإبراهيم بن عمران، وخالف

عليه أخوه ونزمار إلى أن هلك فخلفه ابنه مقاتل، فقتل عمه ابراهيم، وخلف ابراهيم ابنه ونزمار، وكان معاصرا ليغمراسن ابن زيان، وطال عمره إلى أن هلك سنة **690**.

وبنو عبد الواد كانوا أصدق زناتة ولاء للموحدين، ورئاستهم في بني القاسم، فكان منهم لعهد عبد المؤمن عدوي بن يكنيمن وعبد الحق بن منغفاد بفتحتين فسكون وحمامة بن مطهر.

واقطعهم الموحدون جزاء إخلاصهم بلاد بني ومانو وبني يلومي، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمي من بطونهم، فقتل كندوز من بني كمي زيان بن ثابت كبير بني طاع الله، فخلفه ابن عمه جابر بن يوسف، وقتل كندوز في بعض حروبهم، وبعث برأسه إلى يغمراسن ابن زيان القتيل فلحق عبد الله بن كندوز في قومه بتونس أيام أبي زكرياء الحفصي.

وكان جابر ابن يوسف قد حضر ببني عبد الواد وقعة الأراك، وفي أيام المأمون ابتدأ خلاف بني عبد الواد، فقد كان والي تلمسان السيد أبا سعيد عثمان فاغراه عامله الحسن بن حبون الكومي ببني عبد الواد لما رآه من تغلبهم على الضاحية، فاعتقل مشيختهم، وسعي في خلاصهم ابراهيم بن إسماعيل بن علان زعيم الجند من لمتونة بتلمسان، فاغتال الحسن بن حبون وأطلق مشيخة بني عبد الواد ثم بدا له في الفتك بهم فدعاهم لحضور وليمة، وفطن لقصده جابر بن يوسف، ففتك به، ودخل المدينة بدعوة المأمون، فكتب له المأمون بولايتها، ثم خرج لإخضاع ندرومة،

فقتل في حصارها سنة **229** فخلفه ابنه الحسن ستة أشهر، وتخلى لعمه عثمان ابن يوسف، ولم يحسن السيرة فأخرجته الرعية سنة **31** وقدموا مكانه ابن عمه أبا عزة زكران بن زيان ومنهم من يسميه زيدان، فشاقه بنو مطهر وأحلافهم بنو راشد، فكانت بينهم حروب هلك فيها أبو عزة سنة **33** فخلفه أخوه يغمراسن ابن زيان، ولم يزالوا آخذين بدعوة بني عبد المؤمن حتى أساء منهم السعيد الظن بيغمراسن فنهض لحربه سنة **45** فقتله يغمراسن واستقل بالأمر وأورث بنيه دولة عظمى.

وبنو مرين كانوا معادين للموحدين، ففروا بعد واقعة منداس إلى الصحراء وبلغ أميرهم المخضب بن عسكر خروج الغنائم من تلمسان إلى تينملل سنة **540** فنهض لأخذها في خمسمائة فارس من قومه، فاستنجد عبد المؤمن أولياءه من زناتة. وكتب إلى عبد الحق ابن منغفاد، وخرج في خمسمائة فارس من قومه. ولقي بني مرين بفحص مسون، وقد احتازوا الغنائم، فاستنقذها منهم، وقتل المخضب .

ورأس مرين بعد المخضب أبو بكر بن حمامة، وتوفي سنة **561** فخلفه إبنه محيو. وحضر بقومه وقعة الأراك فجرح بها ومات بالزاب في صفر سنة **92** فخلفه ابنه عبد الحق ودخل بقومه المغرب سنة **610** على حين ضعف بني عبد المؤمن فحاربهم هو وبنوه حتى استولوا على مراكش وأسسوا الدولة المرينية. وهكذا قضى عبد المؤمن وبنوه على صنهاجة وأحيوا زناتة. فكانت هي القاضية عليهم ولا إيثار بالمعالي.

المسيحية والاسرائلية:

كان المسيحيون والاسرائليون بالمغرب من عناصر أجنبية عنه ومن بقي من البربر بعد الإسلام متمسكا بإحدى الديانتين تنوسي أصله وصار معدودا من الأجانب. وكانوا يتمتعون بحرية واسعة حتى ظهرت دولة الموحدين.

وكانت الحروب الصليبية يومئذ بالمشرق قائمة على ساق وادعى الموحدون الخلافة. فلعل عبد المؤمن رأى أن يجعل المغرب كجزيرة العرب لا يجتمع فيه دينان حفظا لمركز الخلافة من الدسائس الأجنبية.

قال القفطي في كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء: «**نادى عبد المؤمن في ممالكه بإخراج اليهود والنصارى. وقدر لهم مدة. ومن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقي على ملته ولم يخرج بعد الأجل فهو في حكم السلطان مستهلك النفس والمال فخرج المخفون وبقي من ثقل ظهره وشح بأهله وماله. فأسر الكفر وأظهر الإسلام والتزم شعاره وجزئياته من صلاة وقراءة**»**اهـ**.

قال ذوماس: «**وبتوالي الأيام اندمج المسيحيون في عموم جيرانهم المسلمين**»**اهـ**. ويظهر أن اليهود لكثرتهم لم يندمجوا في غيرهم. وكان أبو يوسف المنصور يقول: «**لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم. ولو صح عندي كفرهم لقتلت**

رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيأ للمسلمين ولكني متردد في أمرهم. ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولانصراني، منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة. إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا، والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم» اهـ. نقله صاحب المعجب. وقال: «وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يتميز يهود المغرب بلباس يختصون به. وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك إلى أن غيره أبو عبد الله الناصر بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة 621» اهـ.

وقد صار الحفصيون يميزون أيضا اليهود بلباس ويسمونه الشكلة، ولم يعد المسيحيون إلى المغرب حتى بايع أهل مراكش المأمون وهو باشبيلية سنة 624 فلما توجه إلى العاصمة بلغه أنهم نكثوا بيعته فاستعان بالمسيحيين، وجلبهم من الأندلس. وشرط لهم حرية دينهم وأن يبني لهم كنيسة بمراكش نفسها.

قال ذوماس: «وفي أيام أبناء المنصور كان رجال الطرق الكاثوليكية أمثال الفرنسيسكان والدومنيكان يتجولون في المغرب بكل حرية ويعاملون معاملة حسنة ويغشون مجتمعات التجار الاوربيين ويؤدون هناك وظائفهم الدينية من عقد نكاح ووعظ ويزورون أسرى المسيحيين ويحملون لهم الإعانات وعبارات التسلية وربما اضطروا لاتباع زي أهل البلاد فسمح لهم البابا هنوريوس الثالث سنة 626 (1229م) بتغيير لباسهم واطالة لحاهم ما داموا في المغرب (وكانت عادقم حلق اللحي والشوارب) وأرسل من جاء بعد هنوريوس من البابوات رسائل الشكر لأمراء الموحدين على حسن معاملتهم للمسيحيين الذين كثر عددهم حتى وضع على رأسهم قس من رتبة افيك سنة 630 (1233م) »1هـ كلامه.

الاقتصاد والعمران والحضارة:

لم تعرف الجزائر في حياها أيام أمن وعدل كأيام عبد المؤمن وبنيه فنشطت لذلك الحركة الاقتصادية الداخلية، وربط العرب بقوافلهم التجارية بين الجهات الشمالية والجنوبية وقوي اتصال المغرب بالمشرق تجاريا برا وبحرا ونظمت التجارة الاروبية مع المغرب تنظيما دوليا وكانت في الدرجة الثانية بالنسبة لتجارة المشرق.

عقد عبد المؤمن معاهدة تجارية مع دول أوربا وكانت جمهورية جنوة أنشطها تجارة فعقدت مع عبد المؤمن معاهدتها التجارية سنة **548** (**1153م**) ثم أوفدت سنة **555** (**1160م**) قنصلها أطوبون من أسرة كاملة الشهيرة فقابله عمال عبد المؤمن بالاجلال أينما حل حتى قابل عبد المؤمن وأمضى معه معاهدة تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا على أن يأخذ عن البضائع الواردة إلى بجاية العشر والواردة إلى غيرها ثمانية من مائة. وأسست جنوة اثر هذه المعاهدة شركات خاصة للتجارة بالمغرب.

وكان ببجاية قناصل للدول التجارية لحفظ حقوق رعايا دولتهم وكاتب خاص لضبط حساب تجار دولته وتقديمه للديوانة المؤمنية. ومراسي الجزائر التجارية العظمى يومئذ هي هنين مرسى تلمسان وطريقها إلى الأندلس خربها شر لكان. ويليها شرقا المرسى الكبير فوهران فأرزيو فمزغران فمستغانم فتنس فشرشال فالجزائر فبجاية فجيجل فالقل فاستورة قرب السكيكدة فبونة.

وكان تجار أوروبا يستوردون من المغرب الزيت والصوف والشب وريش النعام والأدم ومواد الدباغة النباتية والشمع والزبيب وسائر الفواكه الجافة ويصدرون إليه الملف وسائر الأقمشة والذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن ومصنوعة أواني وأدوات مترلية كالمرجل والإبر والسكين والناس اليوم من قبيلتنا وجيرانهم يسمون السكين «**الجنوي**».

ولكي تتصور ما بلغته الثروة الجزائرية إجمالا استحضر ان دولتها المؤمنية كانت لا تعرف جورا ولا يدخل خزينتها الا مال الزكوات

وخراج الأرضين وما تفرضه على السلع الأجنبية ومع ذلك كانت ماليتها وافية بشؤونها ولم يشك جنودها نقصا في المرتب أو تأخرا في قبضه على كثرتهم وانتصابهم في سائر المدن حاميات وانتقالهم حينا فحينا إلى الأندلس مجاهدين أو إفريقية للثورات مسكنين.

ولقد حافظت الدولة المؤمنية على ما قبلها من عمران وحضارة واربت على من تقدمها فيهما غير أن عنايتها بالأندلس والمغرب الأقصى أكثر من عنايتها ببقية المغرب وكانت ولاية تلمسان قد قلدت في حضارتها الأندلس أيام المرابطين ثم تلتها ولاية بجاية أيام الموحدين.

وفي سنة **540** أمر عبد المؤمن ببناء أسوار تاقرا مسقط رأسه وأعلى الأسوار وحصن المدينة جامعها.

وفي سنة **555** عاد من فتح المهدية فمر بالبطحاء وكانت مدينة بنواحي شلف شمالا شرقيا من غليزان ثم خربت فأمر عبد المؤمن ببنائها قال ابن أبي زرع:

«وسبب بنائه إياها لما طالت بالموحدين الإقامة بالمشرق والتغرب عن أوطانهم وأولادهم عزمت طائفة منهم على إغتيال عبد المؤمن إذا نام في خبائه فأعله شيخ بنبئهم وقال له دعني أبتي على فراشك فان فعلوا كنت فداءك فبات على فراشه فقتل، فلما صلى عبد المؤمن الصبح افتقده فوجده مقتولا. فحمله بين يدي مسيره على ناقة لا يقودها أحد، فلما بركت دفنه في مركبها وبنيت عليه قبة وبني بإزاء

القبة جامعها، ثم أمر ببناء المدينة حول المسجد، وترك بالمدينة عشرة من كل قبيلة من قبائل المغرب، فقبر الشيخ هناك معظم عند أهل تلك البلاد يزار إلى اليوم»اهـ.

وذكر الدمشقي من أهل القرن الحادي عشر في أخبار الدول مدينة البطحاء فقال: **«مدينة عظيمة ببلاد الغرب في وطأة من الأرض وتسمى مدينة السدرة وبها أنهار كثيرة»اهـ.**

وقال ابن أبي زرع يذكر أبا يوسف المنصور: **«وحصن البلاد وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس وبنى المارستانات للمرضى والمجانين وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم وأجرى الإنفاق على أهل المارستانات والجذمى والعميان في جميع عمله وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء واتخذ عليها المنارات وبنى المنازل من سوس الأقصى إلى سويقة بني مضكود»اهـ.**

وكان السادة من بني عبد المؤمن ولاة بجاية وتلمسان يعنون بالبناء والغراسة عناية الملوك، قال ابن خلدون يذكر ابا الربيع سليمان ابن عبد الله بت عبد المؤمن والي بجاية: **«وهو الذي جدد الرفيع والبديع من رياضها وكان بنو حماد شيدوهما من قبل، فأصابهما الخراب»اهـ.**

وإذا كانت الحكومة عادلة حافظة للأمن معنية بالاقتصاد والعمران مقيمة للحضارة فالأمة تكون في ذلك أنشط ما يكون والبلاد أبهج ما يرى.

العلوم والآداب:

لم يدع الموحدون الخلافة حتى نهضوا بما نهض به قبلهم العباسيون والفاطميون من نشر العلوم الإسلامية والفلسفية تفسيرا وحديثا وفقها وكلاما ومنطقا ورياضة وسياسة مدنية ومنزلية وخلقية وغير ذلك من كل ما عرف ببغداد والقاهرة قبل، وامتاز عصرهم العلمي على ما قبله بالإتقان والدقة وعلى ما بعده بعدم الجمود والاقتصار على الموجود.

ولقد كانت العلوم الطبيعية والأنظار الفلسفية مرغوبا عنها بالمغرب خصوصا أيام المرابطين الذين حكموا الفقهاء في دولتهم فأرهقوا المفكرين خشية منهم على تعاليم الإسلام، ولما جاء الموحدون وكان خلفائهم مشاركين في كل العلوم أحسنوا تمييز ما ينافي الدين منها مما لا ينافيه.

فحافظوا على جوهر الدين بنشر أصوله العقلية والنقلية وتركوا للعقول حريتها تجري طلقة العنان في ميادين البحث والاستنتاج، ونشطوا أهل العلم قاطبة بادرار الرزق عليهم وشمولهم بعنايتهم وخالطوهم في مجالسهم، وأنشأوا المدارس وكفوا طلبتها مؤنة الاسترزاق وكان يعقوب المنصور يقول: «**يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه أمر منكم فزع**

إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم إلا أنا، فمهما نابهم أمر فأنا ملجأهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون». قال صاحب المعجب: فاه المنصور بهذا لما بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم.

وأظنك إذا صدقت البحث وأجدت النظر لا تجد عصرا تآخت فيه الفلسفة والشريعة كعصر الدولة المؤمنية، فهذا الحفيد ابن رشيد أعظم فلاسفة الإسلام تجده أيضا من أعاظم حفظة الشريعة ناهيك بكتابة بداية المجتهد، وكان مقربا لدى المنصور. فلم يحرم الناس مواهبه وكثر تلاميذه، وكان منهم أبو عبد الله محمد بن سحنون الكومي الند رومي من قرية ندرومة.

شملت هذه النهضة العلوم والآداب والصنائع والحرف، فساعدت على إنشاء مدنية ان لم تكن أعلى المدنيات فمن أعلاها، قال الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم.

ويتعلق بذكر الهالة ما حكاه أبو عبد الله بن عياش كاتب المنصور أبي يوسف يعقوب، قال كان لأبي بكر بن مجير وفادة على المنصور في كل سنة. فصادف في إحدى وفاداته عليه فراغ المنصور من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعة المتصلة بقصره في حضرة مراكش، وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله، وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله، وقد انشده الشعراء في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد

من معالم الدين وآثاره، ولم يتصدوا لوصف الحال فانشد ابن مجير قصيدته التي أولها:

أعلمتني ألقي عصا التسيار   في بلدة ليست بدار قراري

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طورا تكون بما حوته محيطـــة   فكأنها سور من الأسوار

وتكون طورا عنهمو مخـــوءة   فكأنها سر من الأســـرار

وكأنما علمت مقادير الورى   فتصرفت لهم على مقدار

فإذا أحسنت بالإمام يزورها   في قومه قامت إلى الزوار

يبدو فتبدو ثم تخفى بعـــده   كتكون الهالات للأقمـــار

قال المقري: «**وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن وبقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف**».

وكان شاعر بني عبد المؤمن من قسنطينة أبا علي حسن بن علي بن عمر الفقون. قال عبد القادر الراشدي : «**وبنو الفقون من قرية فقونة بأوراس ولم يتحرر لي نسبهم**» وفد على خلفائهم بمراكش ونظم رحلته في قصيدة ذكرها العبدري في رحلته والمقري في نفح الطيب، وامتدح الناصر بن المنصور بقصيدة بليغة لما نزل بقسنطينة سنة **601** وكان كثر الوفادة على السادة من ولاة بجاية، وله ديوان شعر كان موجودا بأيدي الناس.

وكانت بجاية يومئذ عاصمة المغرب علما وأدبا لا يفوقها الا مراكش عاصمة الخلافة، ولأبي العباس الغبريني جزء في علمائها وأدبائها طبع بالجزائر، وهو متداول بين الناس.

الاعتقادات والمذاهب الفقهية:

كان مبنى اعتقاد المسلمين في الإله على الكتاب وصحيح السنة. يثبتون له من الصفات ما أثبتاه وينزهونه عما نزهاه عنه، ثم ظهرت بعد ترجمة كتب اليونان وغيرهم أيام العباسيين طريقتا النظر والرياضة لمعرفة الله، وطريقة الرياضة نفرد لها فصلا بعنوان التصوف. وطريقة النظر والاستدلال بالطبيعيات على الإلهيات مع التقيد بالدين هي المسماة كلاما وأهلها متكلمين.

نكر أهل السنة طريقة الكلام، وسموا أهلها معتزلة حتى جاء أبو الحسن الأشعري، فقرأ على أبي علي الجباءي المعتزلي، ولازمه إلى الأربعين من عمره، ثم اعتزل الاعتزال ونصر السنة بطريقة الكلام نفسها، وألف كتبا كثيرة منها تفسيره المسمى المختزن في خمسمائة مجلد، وكانت منه نسخة واحدة بدار الخلافة. فبذل الصاحب بن عباد – وكان يميل إلى الاعتزال – لخازن المكتبة عشرة آلاف دينار ليحرقها فاحترق ذلك التفسير فيما احترق من الكتب، وكانت وفاة الأشعري ببغداد سنة **324**.

وانقسم أهل السنة إلى سلفيين يؤمنون بآيات وأحاديث الصفات كما جاءت ولا يعتمدو على الكلام، وإلى أشاعرة يعتمدون على الكلام ويؤولون بعض آيات وأحاديث الصفات

وكان أهل المغرب سلفيين حتى رحل ابن تومرت إلى المشرق وعزم على إحداث انقلاب بالمغرب سياسي علمي ديني. فأخذ بطريقة الأشعري ونصرها وسمى المرابطين السلفيين «**مجسمين**» وتم انقلابه على يد عبد المؤمن، فتم انتصار الا شاعرة بالمغرب. واحتجبت السلفية بسقوط دولة صنهاجة، فلم ينصرها بعدهم الا أفراد قليلون من أهل العم في أزمنة مختلفة، ولشيخ قسنطينة في القرن الثاني عشر عبد القادر الراشدي أبيات في الإنتصار للسلفيين طالعها:

خبرا عني المؤول أني   كافر بالذي قضته العقول

ومنذ أعلن المعز بن باديس مذهب مالك أصبح هو مذهب أهل السنة بالمغرب. وزاده المرابطون تأييدا. فكان لا يقطع أمر في مملكتهم الا بمشورة الفقهاء المالكين فعظم شأنهم ونفقت كتب المذهب. قال صاحب المعجب: «**وكثر العمل بكتب المذهب ونبذ ما سواها حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسوله (ص) فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء. ودان الناس بتكفير من يخوض في علم الكلام. وقرر الفقهاء عند علي بن يوسف بن تاشفين تقبيحه وكراهة السلف له وانه بدعة في الدين، وربما أدى إلى اختلال في العقائد فكان**

يكتب عنه في كل وقت بالتشديد في نبذه وتوعد من وجد عنده شيئ من كتبه، وأمر بإحراق كتب أبي حامد الغزالي لما دخلت المغرب، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك»1هـ.

ولم يكن يومئذ بالمغرب غير مذهب مالك وربما كان من أهل الأندلس من أخذ بمذهب الشافعي أو أبي سليمان داوود أمام أهل الظاهر. وولادته سنة **202** ووفاته سنة **270** وأظهر من أيد مذهبه بالأندلس ابن حزم المتوفي سنة **456**.

وعكست دولة الموحدين كل ما كان أيام المرابطين، ففي سنة **550** بنى عبد المؤمن المساجد وأصلحها وحرق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث ثم جاء حفيده المنصور فجرد كتب الفقه من الآيات والأحاديث، ثم حرقها، فأحرقت مدونة سحنون ونوادر ابن ابي زيد ومختصرة وتهذيب البرادعي وواضحة بن حبيب وغيرها. ومنع الاشتغال بعلم الرأي وأمر جماعة من المحدثين بجمع أحاديث من الموطأ والصحيحين والترميذي وأبي داوود والنسائي والبزار وابن أبي شيبة والدار قطني والبيهقي فجمعوا منها أحاديث في الصلاة وما يتعلق بها فكان يملي هذا المجموع بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه. فانتشر في جميع المغرب وحفظه العامة والخاصة. وجعل لمن حفظه جعلا من كسي وأموال.

قال صاحب المعجب: «وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث. وكان هذا مقصد أبيه وجده الا أنهما لم يظهراه وأظهره هو» اهـ.

قال ابن الأثير: «واستقضى يعقوب المنصور آخر أيامه الشافعية على بعض البلاد. ومال إليهم» اهـ.

التصوف والصوفية:

كان عليه الصلاة والسلام مجتهدا في العبادة حتى ورمت قدماه. ولكنه نهى من أراد من أصحابه الانقطاع للعبادة. وصح عنه «إن الله لايمل حتى تملوا» وظهر بعده بالبصرة وغيرها نساك بالغوا في التعبد ونقلت عنهم حكايات غريبة في التواجد لسماع القرآن فأنكر عليهم الصحابة وعلماء التابعين.

قال ابن تيمية في رسالته الصوفية والفقراء: «والمنكرون لهم مأخذان. منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا. يذكر عن محمد بن سيرين انه قال ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن الا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط. فان خر فهو صادق ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفة لما عرف من هدي الصحابة كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله» اهـ.

ثم ظهر على مرسح السياسة غلاة الشيعة الأمامية والإسماعيلية والقرامطة. فلما غمرتهم القوة العباسية تدثروا بالزهد والنسك.

ونشروا دعاتهم في البلاد لاصطياد غفل العوام بإشراك سداها التدجيل بالغوا في العبادة والمبالغة في تعظيم آل البيت ونسبة الكرامات إليهم. وبهذا تأسست دولة بني عبيد الذين كان منهم من ادعى الالوهية أو أدعيت له .

هذه صورة مصغرة لحياة المسلمين الدينية والسياسية في القرن الثاني. قال السهروردي: «**ولم يعرف اسم التصوف إلى المائتين من الهجرة**»**1هـ**. ولا يعرف بالضبط تاريخ ظهور التصوف ولا واضعه ولا أول صوفي. وقد قيل ان الصوفي منسوب إلى صوفة الذين كانوا يجيزون بالحجاج في الجاهلية. وأول من سمي منهم صوفة هو الغوث ابن مر بن ادبن طابخة بن الياس بن مضر، ويزيفه انه لم يعرف اسم الصوفية لطائفة من العباد ذات شعار خاص لا في الجاهلية ولا زمن الصحابة والتابعين، وهناك أقوال في توجيه لفظ الصوفي، نقضها القشيري في رسالته، وقال: «**لا يشهد لهذا الإسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق وإلا ظهر انه كاللقب**»**1هـ**.

ولم يوجه القشيري تلقيبهم اللقب. فكأنه اعترف بأنه لا أصل له في العربية. وهو الحق، فان التصوف معرب تيو صوفية (**THEOSOPHIE**) وهو لفظ يوناني مركب من تيوص بمعنى الإله

وصوفية بمعنى الحكمة. وهي طريقة رياضية لمعرفة الله، يزعم أهلها مناجاته ووحيه إليهم ونيلهم ررمنه عرفانا ومننا خاصة وانه يتجلى لهم في الكون أو الطبيعة حتى يتميز جوابه ومذهبهم وحدة الوجود، ولمريديهم درجات في السلوك إلى هذه الغاية.

هذا هو التصوف الذي عرفه اليونان والهنود قديما، ثم استقت منه المسيحية حتى إذا انتشرت بأروبا غطته فتنوسي بها إلى أن أحياه بالتآليف العديدة سبينوزا بروخ اليهودي المتوفي بمدينة لاهاي سنة **1088** (**1677م**) فصار التصوف معروفا اليوم بأوروبا.

ودخلت لفظة التصوف اليونانية إلى العربية لما ترجمت كتب اليونان والهند في الدور العباسي لا سيما أيام المأمون، وكان ذلك العصر عصر اختلاف ديني واضطراب سياسي، فأخذ من التصوف كل فريق حسب استعداده وصوره بما يلائم غايته، واختلفت قواعد التصوف ونظمه باختلاف جنسية المتصوف وعصره ومصره وميله إذ العمدة فيه الرياضة وما يرد على صاحبها أثناءها من خواطر والهامات، فليس له ضابط يضبطه ولا قانون يسيطر عليه.

وكان من الصوفية من يعتمد على الرياضة وحدها ومنهم من يقيدها بالدين، فتعددت مذاهبهم إلى سنيين ومبتدعين ومارقين من الدين يقولون بالوحدة المطلقة أو الاتحاد المطلق أو الحلول المطلق أو الحلول الخاص، ولهم في تصوير مذاهبهم عبارات غامضة وإشارات بعيدة، فربما يجمع قارئي كلامهم بين الإيمان والكفر وهو لايشعر، فيصير كمن قال :

عقد الخلائق في الإله عقائدا وانا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وكان سيد الصوفية السنيين أبو القاسم الجنيد المتوفي سنة **297** يقول: «**الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا علة من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام**» وقال: «**من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة**».

وقد استعمل غلاوة الشيعة بعض الصوفية في مقصدهم السياسية، فألف منهم جماعة في القرن الرابع رسائل سموها «**رسائل إخوان الصفا**» وبثوا فيها من الكفر والضلالات والاستخفاف بالشريعة ما يعلم بمطالعتها، وقالوا أنهم جمعوها من كلام الخلصاء الصوفية.

وذكر ابن خلدون في المقدمة امتزاج التصوف والشيعة الأمامية، فقال: «**ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة. وملؤا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفأرض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم**».

«**وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وألهية الأيمة مذهبا لم يعرف لأولهم، فاشرب كل من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم**».

«وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين يزعمون انه لايمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان، وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب الإشارات في فصول التصوف منها.. وهو بعينه ما تقوله الرافضة، ثم قالوا بترتيب وجود الإبدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء، ثم إنهم أسندوا لباس خرقة التصوف إلى علي (ض) وهو من هذا المعنى أيضا، وإلا فعلي (ض) لم يختص من بين الصحابة بتخلية ولا طريقة في لباس ولا حال»1هـ.

وتصوف ابن سينا إنما هو تصوف يوناني مأخوذ عن ارسطاطليس، قال القفطي متكلما عن مترجمي كتب ارسطاطليس: **«وأقرب الجماعة حالا في تفهيم مقاصده في كلامه الفارابي أبو نصر وابن سينا، فإنهما دققا وحققا فحملا علمه على الوجه المقصود واعذبا منه لو أرده مذهبه المورود، ووافقاه على شيء من أصوله فكفرا بكفره»هـ1.** ثم قال في الكلام على الالهيات: **«وقد قرب من ارسطاطليس في قوله فيها الفارابي وابن سينا»هـ1.**

وقد استمال الصوفية العامة فمالت بظواهرهم فمالت إليهم لتقريبهم لها طريق السعادة بالرياضة التي هي على العامة أيسر من العلم، وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين، فكان للصوفية فيهم نفوذ اضطر الأمراء الجائرين إلى خدمتهم وعلماء السوء إلى تأييدهم

من غير فرق بين سني وغيره، فأصبح التصوف مطلقا هو لب الدين في عقد العامة ومغفلي العلماء، ويرحم الله القائل:

وهل أفسد الدين الا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وقد ضج العلماء الناصحون والصوفية السنيون من أعمال عامة الصوفية وإضلالهم للعامة، قال القشيري من أهل القرن الخامس في صوفية عصره «**ثم اعلموا رحمكم الله ان المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زمننا هذا منهم الا أثرهم:**

أما الخيام فإنها كخيامهم ورأى نساء غير نسائها

زال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالات بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الإحترام وطرح الإحتشام، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا في ميدان الغفلات وركنوا إلى إتباع الشهوات وقلة المبالات بتعاطي المحظورات والإرتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان».

«**ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو وليس الله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا**

بأسرار الاحدية واختفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية وبقوا بعد فنائهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا» اهـ.

ولأبي حيان النحوي المتوفي سنة 745 في صوفية عصره:

حلبت الدهر أشطره زمـــانا	**وأغاني العيان عن السؤال**
فما أبصرت من خــــل وفي	**ولا ألفيت مشكور الخلال**
ذئاب في ثيــاب قد تبــدت	**لرائيها بأشكال الرجــال**
ومن يك يدعي منهم صلاحا	**فزنديق تغلغل في الضلال**
ترى الجهال تتبعه وترضـــى	**مشاركة بأهل أو بمـــال**
فينهب مالهم يصيب منـــهم	**نساءهم بمقبوج الفعال**
ويأخذ حاله زورا فيمــــي	**عمامته ويهرب في الرمال**
ويجرون التيوس وراء رجس	**تقرمط في العقيدة والمقال**

ولشيخ الإسلام أحمد بن تيمية المتوفي سنة 728 رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور أجاب بها عن استفتاء رفع إليه ونصه:

«ما تقول السادة العلماء ايمة الدين وعلماء المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين بمن يزور القبور ويستنجد بالمقبور في مرض به أو بفرسه أو بعيره يطلب ازالة ذلك المرض ويقول يا سيدي أنا في جيرتك أنا في حسبك: فلان ظلمني فلان قصد أذيتي. ويقول ان المقبور يكون واسطة بينه وبين الله تعالى، وفيمن ينذر للمساجد والزوايا والمشائخ حيهم

وميتهم، الدراهم والإبل والغنم والشمع والزيت وغير ذلك: يقول ان سلم ولدي فللشيخ علي كذا وكذا وأمثال ذلك وفيمن يستغيث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع وفيمن يجيء إلى شيخه ويستلم القبر ويمرغ وجهه عليه ويمسح القبر بيديه ويمسح بهما وجهه وأمثال ذلك، وفيمن يقصده بحاجته ويقول يا فلان ببركتك أو يقول قضيت حاجتي ببركة الله وبركة الشيخ، وفيمن يعمل السماع ويجيء إلى القبر فيكشف ويحط وجهه بين يدي شيخه ساجدا، وفيمن قال ان ثم قطبا غوثا جامعا في الوجود. افتونا مأجورين وأبسطوا القول في ذلك»1هـ.

«ومما يستغرب اتفاق عالمين جزائريين وحجازي في القرن الحادي عشر على وصف صوفية زمانهما بوصف واحد، قال الاخضري الجزائري»1هـ.

وظهرت في هذه البلاد طائفة البلع والازدراد

وقال شهاب الدين المرشدي المكي الحجازي :

صوفية العصر والاوان صوفية العصر والأواني

قال محشي شيخ الإسلام زكرياء على الرسالة القشيرية الشيخ مصطفى محمد العروسي من أهل القرن الثالث عشر في عقيدة له:

«إني بذلا للنصيحة أحذرك من متابعة مشائخ هذا الوقت ممن لا يثمر الاجتماع بهم خلاف المقت اذ هم قطاع طريق الله على عباده

وأعداء الأولياء الداعين إلى سبيل إرشاده حيث لا همة لهم الا جمع العرض الفاني ولا سعي لهم الا في تجريد القاضي والدني أزاحهم الله من جميع البلاد وأراح منهم الدواب والعباد.. فعليك يا أخي في مثل هذا الوقت بخاصة نفسك وتباعد عمن بهم تزيد قاذورات رجسك، وتابع هدى سيد المرسلين وأمام كل النبيئين والمرسلين فكافيك التمسك بالقرآن والتنسك على طريق سيد ولد عدنان ولاتغرنك – لو فرض – خوارق العادات فإنها كما تكون للكرامة توجد لقصد الإهانة، فهذه وصيتي إليك قد ذكرتها شفقة عليك دعاني إلى ذكرها رعاية المقام فتقبلها ومني عليك السلام»1هـ.

وقد اطلنا خلاف عادتنا في هذا الموضوع، ولكنا في الحقيقة قد بالغنا في الإيجاز فانه موضوع طويل عريض، وله بحياة المسلمين الدينية والسياسية ارتباط قوي، فلا يجدر بالمؤرخ إهماله وان لم يسعه استقصاؤه.

وقد عرفت الجزائر التصوف زمن بني عبيد، لكن العلماء أنكروا عليهم وكفروهم حتى قال محمد بن عمار الكلاعي الميروقي يوصي ابنه من قصيدة:

وطاعة من إليه الأمر فالزم — وان جاروا وكانوا مسلمينا
فان كفروا ككفر بني عبيد — فلا تسكن ديار الكافرينـــا

فلم يكن يومئذ بالمغرب شأن للصوفية إلى ان جاءت الدولة المؤمنية ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة، فظهر من الصوفية رجال ذوو علم

طار صيتهم في الآفاق ولكن لقوة نفوذ الدولة لم يتغلبوا على العامة حتى سقطت وخلفتها دول تنازع أمراؤها أمرهم بينهم فضعف سلطانهم، وعلت كلمة الصوفية فمثلوا أدوارهم مع العامة وكان ذلك مبتدأ انحطاط الجزائر والمغرب دينيا وسياسيا.

ومن مشاهير الصوفية الذين عرفتهم الجزائر أبو مدين شعيب الأندلسي دفين تلمسان المتوفي سنة **591** (أو) **594** قرأ بفاس على ابن حرزهم وغيره وأخذ التصوف عن أبي يعزى وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه واستوطن بجاية فكان يقرئى بها رسالة القشيري وغيرها، وكثر أتباعه فاستقدمه يعقوب المنصور إلى مراكش فلما بلغ تلمسان توفي بها ودفن برابطة العباد، وضريحه مشهور يتبرك به.

ومن كلامه «**بفساد العامة تظهر ولاة الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون**» وقال: «**احذر محبة المبتدعين فهو أبقى على دينك، واحذر محبة النساء فهو أبقى على قلبك**».

ومنهم محي الدين بن عربي الأندلسي دفين دمشق المتوفي سنة **633** وكان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات يميل في فلسفته إلى الغموض، ومن آرائه: «**التثليث أساس الوجود، ومع ان الله في اعتقادنا فرد فاول عدد فردي ثلاثة لا واحد**».

ومنهم أبو الحسن الشاذلي نسبة إلى شاذلة قرية بتونس قيل إنها مرناق، وتوفي بأرض الحجاز سنة **655** والناس فيه بين مادح وقادح، وله

أوراد وأذكار انتشرت في الناس غربا وشرقا، وتفرع من طريقته طرق كثيرة، ويلقب أتباعه بالدراويش وبالفقراء، والدرويش كلمة فارسية معناها القانع أو الفقير.

ومن كلامه: «**اذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بهما ودع كشفك، فان الله قد ضمن فيهما العصمة ولم يضمنها في الكشف**».

ومنهم عبد الحق بن سبعين المتوفي سنة **669** سكن بجاية مدة وأقرأ بها ثم لحق بالمشرق وجاور بمكة، وعن قطب الدين القسطلاني انه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين وتملك التتر للعراق واستعمال الحشيشة حكاه في نفح الطيب وذكر أيضا: «**إن الأمير أبا عبد الله بن هود من أمراء الأندلس أرسل سفيرا عنه إلى البابا بروما ابا طالب بن سبعين أخا عبد الحق فقال له البابا إن أخاك ليس للمسلمين اليوم اعلم بالله منه**»**1**هـ. وأرى أن هذه الشهادة ان لم تدل على مواصلة سرية بين البابا وعبد الحق تدل على قرب مذهبه من المسيحية. ومن كلامه في أبي مدين: «**شعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة**».

هذا وقد اتخذ دجاجلة الصوفية الانتساب إلى سني صوفي عظيم سببا للارتزاق وخلبوا عقول العوام بالظواهر والدواعي. وغمروها بالخرافات

والأضاليل فأوردوها موارد الردى وصدوها عن سبل الهدى. ولله عبد الحق الاشبيلي أستاذ بجاية اذ يقول:

لا يخدعنك عن دين الهدى نفـــر لم يرزقوا في التماس الحق تأييدا
عمي القلوب عروا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليـــــــــدا.

سقوط الدولة المؤمنية:

كان الأولون من خلفاء هذه الدولة يباشرون أمور المملكة بأنفسهم ويطالعون أخبار حكامهم ولا سيما المنصور. فقد قال عنه صاحب المعجب ما ملخصه:

«وكان يقعد للناس عامة ولا يحجب عنه صغير ولا كبير حتى قضى بين رجلين في نصف درهم. ثم قعد للناس في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة. وكان قاضيه يجلس حيث يسمع حكمه في جميع القضايا، ليس بينهما غير ستر من ألواح وكان يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر مرتين في الشهر يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم. وإذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عنه عمالهم وقضاتهم وولاتهم، ويحذرهم كتمان الشهادة، وقد يتلو قوله تعالى: يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» اهـ.

بهذا استقامت أمورهم، فلما ولي الناصر تغيرت الحالة بعض التغير ففوض الشؤن لوزيره أبي سعيد بن جامع الذي لم يكن نبيه البيت في الموحدين، فاستهان بشيوخهم حتى فر من بساط الناصر من يعتمد عليه منهم.

وفي سنة **607** خرج الناصر لغزو الأندلس بعدما استنفر الناس عامة، وأساء ابن جامع التدبير، وأوغر صدور بعض العظماء، فكانت وقعة العقاب على المسلمين سنة **609** فني فيها أكثر رجال الدولة وذهبت الحامية من البلدان وانحرف قواد الأندلس عن بني عبد المؤمن ثم ظهر الخلاف بينهم أنفسهم، وتوثبوا على عرش مراكش، فاختلت الدولة.

وفي سنة **610** صعد بنو مرين إلى تلول المغرب الاقص، فملكوا بواديه وأعلنوا حرب بني عبد المؤمن سنة **613** واقتطع عنهم أبو زكرياء الحفصي ولايتي تونس وبجاية سنة **28** وثبت .يغمراسن بن زيان والي تلمسان على ولايتهم حتى أخضعه أبو زكرياء سنة **640**.

وفي سنة **610** صعد بنو مرين إلى تلول المغرب الأقصى، فملكوا وأجفل أمامه بنو مرين، ووفد عليه يغمراسن ابن زيان في ألف فارس من قومه، فبايعه بفاس وخلع عليه السعيد وأمره باستئصال مرين وأمده بالأموال والرجال، فخرج إليهم يغمراسن حتى ألحقهم بكرت، ثم عاد إلى فاس فقيل له انك مغدور، فغادر فاسا هو وقومه وسالم بني مرين، وبعث إليه السعيد بالأمان، فامتنع خشية الغدر.

وفي سنة **45** خرج السعيد من مراكش لإخضاع المستبدين عليه من بني مرين وبني عبد الواد وبني أبي حفص، وحشد أمما كثيرة، وبلغ تازا في المحرم سنة **46** فأرسل إليه أمير مرين أبو يحي أبو بكر ابن عبد الحق ببيعته، وعرض عليه العود إلى مراكش وان يكفيه أمر يغمراسن، وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة، فشكر لأبي يحي خدمته، وأمره بامداداه وتوجه نحو تلمسان.

وخرج يغمراسن في أهله وقومه إلى قلعة تامززدكت قبلة وجدة فاعتصم بها وأوفد وزيره الفقيه عبدون على السعيد بالطاعة والاعتذار عن تخلفه، فأبى السعيد الا حضوره، فامتنع يغمراسن خشية على نفسه فقصد السعيد القلعة وأحاط بها ثلاثة أيام وفي الرابع ركب حين القيلولة يبحث عن عورة يأخذ منها القلعة فبصر به فارس من بني عبد الواد كان يحرس القوم، فطعنه وكبه عن فرسه، وكان يغمراسن وابن عمه يعقوب بن جابر قريبين منه، فعرفا السعيد وانقض القوم من الشعاب على مواليه. وبلغ النبأ المحلة فتفرقوا أيدي سبا وذلك في صفر سنة **46**.

وبادر يغمراسن إلى السعيد وهو يجود بنفسه فحياه وفداه واقسم له على البراءة من دمه فلما قضى حمله إلى العباد ودفنه وأرسل مع حرمه وأخته من أوصلهن إلى مأمنهن، وانتهى أمر بني عبد المؤمن من تلمسان ثم قضى عليهم بنو مرين بدخولهم مراكش سنة **68**.

وكانت مدة هذه الدولة بولاية بجاية من سنة **547** إلى سنة **628** وبولاية تلمسان من سنة **539** إلى سنة **646** ومدتها منذ مبايعة المهدي

بتينملل إلى القبض على اسحق بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن بتينملل من سنة **515** إلى سنة **674**.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنهـــا وكأنهـــم أحـــــلام

الباب الخامس

في أحوال العرب لعهد الحفصيين والزيانيين والمرينيين



تمهيد:

استكان العرب بعد ثورة ابن غانية لقوة الدولة التي عرفت كيف تسوسهم. لكن الحفصيين نواب بني عبد المؤمن بتونس استقلوا عنهم. وحنو إلى وطنهم. فطمعوا في فتح مراكش. ولم يقووا على تحقيق أمانيهم الا بمعاضدة زناتة. فعاضدتهم وهي تسر حسوا في ارتغاء. وكانت النتيجة سقوط الدولة المؤمنية وقيام ثلاث دول مكانها هم الحفصيون والزيانيون والمرينيون.

لم تعترف هذه الدول بعضها لبعض بالاستقلال. فاستمرت الحروب بينهن. وربما وقعت الحرب بين الأمراء المرشحين للملك في الدولة الواحدة. وتقاربت قواهم الحربية والسياسية فلم ينحسم النزاع.

وكان ملوك تلك الدول في حاجة إلى العرب لكن اضطربت سياستهم معهم. فإذا كانت الحرب واحتاجوا إليهم اقطعوهم الأراضي الواسعة وجباية القبائل المستضعفة ونفوحهم بالهدايا والأموال وقربوهم بالصهر والاستشارة. وإذا استغنوا عنهم بالسلم قلبوا لهم ظهر المجن

وحاولوا تجريدهم من امتيازاتهم. فلم يعدم العرب في الأمراء المرشحين للملك والملوك الطامعين في التوسع ما يعنيهم على إحداث ثورة للاحتفاظ بامتيازاتهم.

وكان العرب يحسنون الاستفادة في أمثال هذه الظروف لتقوية حريتهم وتوسيع مجالات تنقلهم في الشمال والجنوب وكانوا يفترقون حسب افتراق مصالحهم على الدول والملوك.

ونتج عن هذه السياسة ضعف الدول وفقد الأمن وقلة الإنتاج واستحكام العداوة بين القبائل وطمع اسبانيا في امتلاك المغرب، ولولا قيام الدولة التركية بأساطيلها في وجوه الدول الأوربية للحق المغرب بالأندلس وصقلية. على أن عوامل الافتراق التي غرست في هذا الدور لم تزل تنخر جسمنا إلى اليوم .

والمسؤول عن هذه النتائج السيئة هم الحفصيون الذين أسقطوا الدولة المؤمنية حامية الأندلس وآسية العرب. ثم عجزوا عن حفظ المغرب وتوحيده. ثم اضطربت سياستهم مع العرب وقووا أغراضهم في الحياة البدوية بدلا من تمدينهم وتهذيبهم. والعرب بداة لاغرض لهم في الملك. فليس عليهم ضمان في هذه النتائج السياسية التي هي خاصة الملك.

ولعلنا بهذا الفصل وضعنا أساس البحث للناقد البصير في قواعد ابن خلدون الاجتماعية التي وضعها على حساب العرب البداة دون الحفصيين الملوك الذين كان ريشه منهم هواه معهم. يعرف ذلك من عرف حياته ودقق النظر في أساليب تاريخه. فأدرك الفرق بين أسلوبه في الدولة

الحفصية وأسلوبه في غيرها. حتى أنه أجهد نفسه في تصحيح نسب ابن تومرت في آل البيت ونسب الحفصيين في آل عمر بن الخطاب (ض) مع انه أنكر انسابا هي أقوى من هذين النسبين والكمال لله.

رياح والاثبج وسليم:

كانت قبيلة عوف بن سليم تجاور رياحا على الحدود عمالة قسنطينة، وتبلغ ناجعتها نواحي بونة، ولها بطنان هما مرداس وعلاق، ومن علاق حصن ويحي ومن حصن حكيم وبنو علي، ومن يحي العكوب، ومن العكوب أولاد مهلهل وأولاد أبي الليل، ومن أولاد أبي الليل الأعشاش.

وكان أبو زكرياء الحفصي اصطنع عوفا على رياح فأخرجتهم إلى عمالة قسنطينة، وجازتها الدولة على ذلك بالتضريب في بطونها، حتى لايستبدوا عليها فكان المغلوبون من عوف يترلون على رياح للاجلاب على الدولة، واستقرت رئاسة عوف في أولادهم مهلهل وأولاد أبي الليل، وتنازعوا أمرهم بينهم وأصبح حال الدولة بينهم حال القائل: رضى هذا يحرك سخط هذي.

وحكيم كانوا يحالفون تارة أولاد مهلهل وأخرى أقتالهم، واشتهر من شيوخ حكيم أبو زيد لابن عمر بن يعقوب وابنه خليفة ومحمد ابن مسكين وخليفة ابن أخيه، وكان لامنهم أول القرن التاسع الشيخ المرابط أحمد بن أبي صعنونة بن عبد الله بن مسكين.

وكان بمقرة بيوت من دباب ومرداس، أوقع بهم المستنصر سنة **651** واعتقل منهم بالمهدية رحاب بن محمود وابنه في آخرين.

وأقطع الحفصيون كرفة بادس والزاب الشرقي وجباية أوراس الشرقي، ليوقعوا رياحا بين نارين، فلم تفعل كرفة أكثر من المحافظة على إقطاعها، ولم يجدوا في بقية بطون الاثبج من يقدر على مقاومة رياح، وان بقيت في بعضهم رئاسة.

قال ابن خلدون: «**ورئاسة أولاد وشاح من دريد لعهدنا منقسمة بين سحيم بن كثير بن جماعة بن وشاح، وأحمد بن خليفة بن رشاش ابن وشاح ورئاسة أولاد مبارك بن عابد منقسمة أيضا بين نجاح بن محمد بن منصور بن عبيد بن مبارك، وعبد الله بن أحمد بن عنان ابن منصور**»[1] اهـ.

وكان شيخ محيا من العمور في القرن الثامن عامر بن أبي يحي ابن محيا حج ولقي بمصر يوسف الكوراني شيخ الصوفية، فلقن طرقه وحمل عليها قومه وعني بتأمين السبل فحارب النضر جيرانه لإفسادهم. فاغتالوه.

وفي عصره كان شيخ أولاد زكرير يغمور بن موسى بن أبي زيد ابن زكرير فكان يناهضه في شرفه، ولكن عامرا اسود منه لمعه بين مشيختي القبيلة والطريقة.

وكانت عياض تتولى جباية جيرانها من البربر لصاحب بجاية وأكثر الاثبج عجزوا عن الظعن وأقاموا بالمدن وانضوى تحت لواء رياح الضحاك ولطيف والعمور الشرقيون.

غلبت رياح اولا على منطقتي الهضاب والصحراء من عمالة قسنطينة إلى زاغز من عمالة الجزائر. وعنوا بالفلاحة وتربية المواشي، فأثروا وكثروا واعتزوا على الدولة الحفصية لبعدهم عن عاصمتها، وأصبحوا مأمنا لكل مسخوط من الدولة وعونا لكل ثائر يخطب الملك.

وكانت لهم امتيازات واقطاعات منحهم إياها ملوك أعانوهم على تبوأ العرش أو على حمايته من ثائر عليه حتى ان الذواوة كان لهم بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم علاوة على ما بأيديهم من البلاد وما لهم من خفارات، وكانوا معفين من الضرائب وكان هذا مما يضر بمالية الدولة.

وكانت الحكومة إذا آنست من نفسها القوة انتقمت منهم على إعانتهم لثائر أو نقصتهم عطاءهم أو منعتهم إياه، فلم يعدموا في ملوك زناتة أو أمراء البيت الحفصي قائدا للثورة، وهكذا استمرت حياة رياح والحفصيين. واختلفت أيامهم سلما وحربا، ولم تزد رياحا الأيام إلا قوة.

وكانت بطانة الحفصيين يستعملون نفوذهم مع رياح وغيرها في مصالحهم الخاصة وحسب أهوائهم، فربما دعوا القبيلة اليوم إلى طاعة ملك ودعوها غدا إلى حربه، وهذا عبد الرحمن بن خلدون كان مع الحفصيين فدعا رياحا لطاعتهم ثم فارقهم. فدعاها للأبي حمو الثاني سنة **769** ثم

حملها على حربه ومحالفة عدوه عبد العزيز بن أبي الحسن سنة **772**. ومع هذا التلاعب الذي لم يسلم منه فيلسوفنا نراه يؤنب العرب ان جرؤا على الدولة .

وكانت بطون رياح تبعا للذواودة الذين كان منهم مسعود بن سلطان وأخوه عساكر ومحمد بن مسعود. واستمرت الرئاسة في أولاد مسعود. ومال عنهم أبناء عساكر للدولة سنة **666** فولى المستنصر رئاستهم مهدي بن عساكر ثم ابنه ماضي ثم موسى ابن ماضي. واقطعتهم الدولة نقاوس، وحالفتهم عياض. ولكن غمرهم أولاد مسعود.

وكان محمد بن مسعود مع يحي بن غانية وتوفي بعد وفاته. فخلفه ابنه موسى. وكان عظيم الصيت معتزا على الدولة. ووفد على أبي زكرياء لما نزل بباغية سنة **47** فبايعه. وتوفي أيام المستنصر. فخلفه ابنه شبل. واستطال على الدولة. وبايع أبا القاسم بن عبد الرحمن ابن الأمير عبد الواحد سنة **661** وقد نزل عليه بنقاوس. وخرج إليه المستنصر سنة **64** فبلغ المسيلة. وأعجزه. فعاد إلى تونس. وأمر عامل بجاية أبا هلال باستئلافه.

وخرج المستنصر سنة **666** فعسكر بالحضنة على ثنايا الزاب إزاء جموع رياح. وترددت الرسل بين شبل وأبي هلال. فأقنعه بحسن عاقبة الوفادة على السلطان. فقدم هو وأخوه يحي وسباع بن يحي ابن دريد بن مسعود وطلحة بن ميمون بن دريد وحداد بن مولاهم ابن خنفر بن مسعود ودريد بن تازير شيخ أولاد نابت من كرفة .فضرب المستنصر

أعناق هؤلاء الأمراء. وصلب أشلاءهم بزرايا قرب نقاوس حيث بايعوا ابن عمه أب القاسم. وأجفلت رياح والعساكر أثرها تنهبها حتى قطعت وادي جدي، فرجعت العساكر، ولحق أولاد يحي بن دريد بيغمراسن ابن زيان، وبنو محمد بن مسعود بيعقوب بن عبد الحق فأكرموهم ووصلوهم بالمال والخيل والإبل والكراع.

وعادت رياح فغلبت على ورقلة ووادي ريغ، وتقدموا إلى الزاب فهزموا عامله عثمان بن محمد بن عتو، ثم قتلوه بقطاوة، وملكوا أوراس أيضا، وقتلوا موسى بن ماضي، وأخذوا الحضنة، واضطرت الدولة إلى مهادنتهم، فاقطعهم السلطان أبو اسحق أخو المستنصر ما غلبوا عليه.

ونشأ سباع بن شبل في كفالة عمه مولاهم بن موسى، ورأس على قومه واقطعته الدولة المسيلة، وتربى علي بن سباع في حجر عمه طلحة بن يحي وصارت إليه المسيلة وبقيت في عقبة، وكانت مقره في إقطاع أحمد بن محمد بن مسعود وخلف سباع بن شبل ابنه عثمان العاكر، وخلف علي بن سباع ابنه سليمان فتنازعا رئاسة قومهما، وإفترق أولاد مسعود إلى فرقتين أولاد محمد وأولاد سباع بن يحي عليهم رياح فكان سعيد مع اولاد محمد، ومسلم والأخضر مع أولاد سباع، واقتسموا المواطن بورقلة وريغ والزاب والحضنة والتلول، فكان لأولاد سباع المسيلة وجبال عياض ومتنان ووانوغة ونواحي بجاية، ولأولاد محمد مقرة والزاب الأوسط ونواحي قسنطينة، وكانت طولقة والزاب الغربي بينهم. فتقاتلوا عليه حتى

اختص به أولاد سباع. ولكن مواطن أولاد محمد أخصب وأوسع وسيادتهم أعظم وعددهم أكثر.

ثم افترقت رئاسة أولاد سباع بين علي وعثمان ابني سباع بن يحي وعثمان هذا هو الذي وفد سنة **701** على السلطان يوسف وهو محاصر لتلمسان وحرضه على الملك بجاية.

وخلف علي بن سباع ابنه سليمان ثم ابنا سليمان عطية ويوسف ثم عثمان بن يوسف الذي أخذ بطاعة أبي عنان المريني، ويرادف أولاد سليمان أخوتهم أولاد يحي أخي سليمان.

وانتقلت رئاسة أولاد محمد إلى أولاد أحمد بن عامر صاحب مقرة، فتولاها أبو يحي بن أحمد إلى أن هلك أوائل المائة الثامنة، فخلفه أخوه علي، وكان أعظم أمراء رياح، وخلفه ابنه يعقوب، وطالت مدته، حتى توفي سنة **790** بنقاوس ودفن ببسكرة واشتهر من أبنائه صولة ومحمد.

وكان يعقوب بن علي أعظم امراء رياح من سبقه منهم ومن لحقه. له ولوع بالفلاحة والعمران، اختط قرية فرفار قرب طولقة، ونزل عليه بها ابن خلدون في وفادته على سلطان تونس سنة **780** وله أملاك بطولقة ونقاوس والصحراء والتل، وله رغبة في السلم، وكثيرا ما يصلح بين أمراء الحفصيين أو بين الأمراء والرعايا، ونزل عليه الأمير أبو يحي زكرياء لما ثار على أخيه سنة **759** واصهر إليه في ابنة أخيه سعيد فانكحه إياها.

وكان يعقوب قد بايع الحسن المريني. وفد عليه في زحفه على تونس بأرض بني حسن قرب البرواقية، وذهب معه أخوه أبو دينار سليمان على

المغرب حتى مات. فوفد على ابنه أبي عنان وأكرمه وطلب منه تسهيل السبيل لفتح تونس، فلما زحف إياها أبو عنان بايعه يعقوب محاولة أبي عنان اراضاء يعقوب وأخوه سليمان، وخالفهما ميمون إلى ولاء الحفصيين. ثم رأى يعقوب محاولة أبي عنان أرضاء يعقوب أو القبض عليه، فلم يقدر على أكثر من تخريب قصوره بالصحراء والتل.

ثم حج يعقوب وعاد فالفى قومه في حرب مع أمير قسنطينة ابراهيم بن السلطان أبي العباس لمحاولته نزع امتيازاتهم، فسعى في الصلح وطلب من ابراهيم انصاف العرب فأعرض عنه فاعتزل يعقوب الحرب وتوفى فخلفه ابنه محمد جد ابراهيم انصاف العرب فأعرض عنه فاعتزل يعقوب الحرب وتوفى فخلفه ابنه محمد وفرق عنه ابراهيم كلمة رياح وحاربه فانهزم، فلما أصحر محمد جد ابراهيم في حماية التلول عنه واضطره إلى المصيف في الزاب سنة **92** ثم هجم على التل في السنة التالية، ومات الأمير ابراهيم وتفرقت جموعه فتقدم محمد بن يعقوب إلى نواحي قسنطينة ونادى بالأمان فأمنت الطرق وصلحت أحوال الرعايا. وبعث إلى السلطان أبي العباس بطاعته.

وفي سنة **96** ولي قسنطينة أبو بكر بن أبي العباس وعكف على لذاته وأساءت بطانته الإدارة فانقضت رياح على الدول وقتلوا في بعض حروبهم معها قائد قسنطينة جاالخبر سنة **833**.

وكان كبير الذواودة سنة **38** عيسى بن محمد، وكلمته مع السلطان محمد الرابع المنتصر مسموعة، ومن معاصريه سباع بن محمد ولعله أخوه

وبينهما اختلاف ومن شيوخ الذواودة منتصف هذا القرن التاسع أحمد بن علي، ومنهم نصر بن صولة ولا ادري أصولة هذا هو ابن يعقوب بن علي أم غيره؟

واخر كلمة في تاريخ دولتي الموحدين للزركشي قوله: «**وفي أواسط المحرم من عام 822 ورد على السلطان نصر بن صولة شيخ الذواودة طالبا للعفو فعفا عنه وانصرف إلى أهله بعد الإحسان خديما»1هـ**.

رياح والإصلاح:

كان القرن السابع الذي سقطت فيه الدولة المؤمنية مبدأ انحطاط عام، فكثر الملوك وتزاحمهم وتحاربهم. ووجدت الرعايا سبيلا إلى الفوضى. والولاة سبيلا إلى الجور. وفشت المنكرات وأخيفت الطرقات.

وفي أوائل القرن الثامن ظهر من رياح ثم من رحمان رجل يدعى سعادة كانت أمه من الصالحات ونشأ هو على العبادة والزهد وارتحل إلى المغرب فصحب أبا اسحق التوسلي شيخ الفقهاء الصالحين يومئذ وعاد إلى قومه بفقه صحيح وورع وافر ونزل طولقة. وانذر عشيرته وبث دعوته فأجابه خلق كثير بالزاب وريغ وكثير من البلدان. فلقبهم السنية .

ومن مشاهير مريديه من أولاد مسعود أبو يحي بن أحمد وعطية ابن سليمان وحسن بن سلامة من أولاد طلحة بن يحي بن دريد، ومن أولاد

عساكر عيسى بن يحي بن ادريس، ومن زغبة هجرس بن علي اليزيدي ورجالات من العطاف .

استظهر سعادة بهؤلاء الأمراء وإتباعهم عل تأمين السبل وتغيير المنكر وأحياء السنة، ودعا منصور بن مزني أمير الزاب إلى إعفاء الرعية من المغرم والمكس وسائر الظلامات، فهم بقتله. ولكن حال دونه مريدوه. وبايعوه على إقامة السنة والموت دونه.

وأعد منصور سعادة ثائرا فاستعد لحربه واستنجد أمير بجاية خالد وٌبن أبي زكرياء المنتخب واستمال إليه بعض رياح فمال إليه علي ابن أحمد منافسة لأخيه أبي يحي، وسليمان بن علي منافسة لعطية ابن سليمان وخشي سعادة من الإقامة في طولقة، فابتنى بضواحيها زاوية انتقل إليها بمريديه.

ثم زحف سعادة إلى بسكرة سنة **703** وسنة **704** وحاصر بها ومنصورا فامتنعت عليه أولا وثانيا. وانحدرت رياح إلى مشاتيها سنة **705** فبقي في قل من مريديه. ومع ذلك حاصر مليلي، فصبحه بها منصور في جند الدولة ورياح وبعد جولة استشهد سعادة.

.نعي سعادة إلى السنية بمشاتيهم. فصعدوا إلى الزاب برئاسة أبي يحي بن احمد وزحفوا إلى بسكرة مرارا. وقطعوا نخيلها وأحرقوا عمال الدولة بالنار فصرخ منصور في أوليائه من الذواودة فلبوه وعقد على الجند لابنه علي ومعه علي بن احمد على رياح. وكانت المعركة بالصحراء سنة **13**

فقتل علي بن منصور. وأسر علي بن أحمد. فأطلقه عيسى بن يحي لمكان أخيه، وعظم أمر السنية بعد هذا الانتصار.

ثم هلك أبو يحي وعيسى بن يحي وكاد أمر السنية ينحل فاتفقوا على استدعاء عالم يقيم لهم أمر الدين ويجمع كلمتهم واختاروا الفقيه أبا عبد الله محمد بن الأزرق من فقهاء مقرة. أخذ على أبي محمد الزواوي كبير شيوخ بجاية. فارتحل إليهم. ونزل على حسن بن سلامة. ووالاهم أبو تاشفين الأول إضعافا للحفصيين الذين كان معهم في حرب. فصار يبعث إليهم بالهدايا ويخص عالمهم ابن الأزرق بجائزة معلومة كل سنة .

وخلا وجه رياح لعلي بن أحمد بموت أخيه. فقاتل هؤلاء السنية مرارا ثم هلك حسن بن سلامة. واستدعى ابن مزني الفقيه ابن الأزرق لقضاء بسكرة ليقضي على دعوة سعادة. فأجابه. وطويت صحيفة السنية.

وبعد حين غاضب علي بن أحمد ابن مزني. فأحيا هذه الدعوة، وحاصر بسكرة سنة **40** وأقام عليها أشهرا، ثم عاد إلى موالاة ابن مزني، وهكذا حاولت إصلاح المجتمع رياح. فذهبت مساعيها لاختلافها أدراج الرياح. وكفى سعادة انه أدى الواجب وفاز بالشهادة.

قال ابن خلدون: «**وبقي من عقب سعادة في زاويته بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزني رعاية، وتعرف لهم إعراب الفلاة من رياح حقا في إجارة من يجيرونه من أهل السابلة وبقي هؤلاء الذواودة يترع بعضهم**

أحيانا إلى إقامة هذه الدعوة. فيأخذون بها أنفسهم غير متصفين من الدين والتعمق في الورع بما يناسبها ويقضي حقها. بل يجعلونها ذريعة لأخذ الزكاة من الرعايا ويتظاهرون بتغيير المنكر يسرون بذلك حسوا في ارتغاء فينحل أمرهم لذلك وتخفف مساعيهم ويتنازعون على ما يحصل بأيديهم ويفترقون على غير شيئ» 1هـ.

إمارة بني مزني ببسكرة:

كانت قاعدة الزاب الحفصي مقرة من أرض الحضنة. فكانت بسكرة تابعة لها ومشيختها لبني رمان منذ سقوط الدولة الحمادية. وكان بنو مزني بقرية حياس قربها. وملكوا بها جنات النخيل والثمار بمياهها. وانتقلوا إليها. وشارك كبارهم في مجالس شوراها. فاستنكف منهم بنو رمان. وتلاحوا بالكلام، وانتهى أمرهم إلى سلطان تونس فمال مع بني رمان لقدمهم، ولكن النزاع لم يفصل واصلتوا سيوفهم، وتقاتلوا في سكك بسكرة.

وفي سنة **651** دعا أبو اسحق لنفسه مغاضبا لأخيه المستنصر فبايعته رياح ربنقاوس وزحفوا به إلى بسكرة فبايعه من مشيختها فضل ابن علي بن أحمد بن الحسين بن علي بن مزنى وأبى أهلها موافقته، وعزموا على قتله فخرج إلى أبي اسحق الذي لم يتم أمره وأجاز معه إلى الأندلس حتى توفي المستنصر وعاد مع أبي اسحق إلى تونس.

وبنو مزني ينتسبون إلى مازن بن فزارة قال ابن خلدون: «**والذي تلقيته عن نسابة الهلاليين أنهم بنو مزنة بن ديفل بن محيا بن جرير من فصائل لطيف. وهو الصحيح فإن أهل الزاب كلهم من أفاريق الاثبج عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على لا من كان بها قبلهم من زناتة وطوالع الفتح. وانما نزعوا عن نسب الاثبج لما صاروا إليه من المغرم والوضائع»1هـ.**

وفي سنة **78** ملك أبو اسحق تونس وجازى فضلا عن صحبته إياه بولاية الزاب فنزل بسكرة وخضع له بنو رمان ظاهرا. وحالفوا أولاد جرير. وأغروهم بقتل فضل وتناول الأمر من يده وهم يومئذ بقرية ماشاش قرب بسكرة ولهم اختلاط مع أهلها بالنسب والصهر فقتلوه ظاهر البلد سنة **83** وانتقلوا إلى بسكرة فنبذ لهم بنو رمان عهدهم لعامين من حلفهم، فلم تسعهم المدينة ولا قرية ماشاش لقربها فتفرقوا في وادي ريغ واستبد بنو رمان ببسكرة وتغلبت رياح على الزاب.

وكان منصور بن فضل لما قتل أبوه بتونس فخشي بنو رمان عائلته. وسعوا به لدى السلطان أبي حفص فاعتقله إلى ان تمكن من الفرار ولحق بأوراس فنزل على الشبه من كرفة خير منزل. ثم لحق ببجاية سنة **92** وأبو زكرياء بن أبي اسحق يومئذ مستقل بها والزاب في طاعة صاحب تونس فتقرب إليه منصور واستظهر به على ولاية الزاب على ان يحول دعوته إليه كما فعل أبوه مع أبيه من قبل فسرحه سنة **93** بالجنود إلى بسكرة

واستعبد بنو رمان صاحبهم بتونس فوفدوا على أبي زكرياء مبايعين خائفين من منصور فأمنهم وجعل أحكامهم إلى قائد عسكره و كتب إلى منصور بالعفو عنهم ففتحوا أبواب المدينة لمنصور وعسكر بجاية وبعد ان ثبتت قدم منصور في بسكرة أجلى بني رمان عنها كما أجلوا قبل أولاد جرير. وكما تدين تدان.

أعجبت حكومة بجاية بصدق طاعة منصور وحسن إدارته، فأضافت له ورقلة ووادي ريغ والحضنة وجبل أوراس، وبقيت كذلك لخلفه فإمارة بني مزني تمتد من ورقلة جنوبا إلى المسيلة ونقاوس شمالا ومن الدوسن غربا إلى بادس شرقا، ودخلت مواطن عياض وسدويكش في هذه الإمارة أيام منصور خاصة.

ولهذه الإمارة مواصلات تجارية مع أهالي السودان وما حولها من الأوطان ولتوسطها بين الصحراء والتل جمعت بين خواصهما: تجد فيها النخيل والزيتون والإبل والبقر وتحسن بها تربية المواشي وفلاحة الحبوب والثمار. فكان أهلها أغنياء، وامراؤها تشبه ثروتهم ثروة الملوك .

قال العياشي في رحلته: «**وبسكرة من أعظم المدن واجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمران فيها قد جمعت بين التل والصحراء ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها وارحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حناء إلى غير ذلك، وبالجملة ما**

رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب المعاش»1هـ.

وذكر ان عام ستين وألف كان عام وباء وانه مات به في بسكرة نحو من سبعين ألف نفس، وهذا يرشد إلى مبلغ عمرانها بعد بني مزني بأكثر من قرنين ونصف قاست فيها ألوانا لامن الشر وضروبا من الفتن فكيف يكون عمرانها أيام سعادتها وهنائها تحت بني مزني؟

أحسن بنو مزني سياسة الرعية، وعاشوا مع رياح أحسن مما عاش معهم الحفصيون، حتى ان ثورة سعادة لم تشمل رياحا أجمعين. وكان مع بني مزني علي بن أحمد ثم نافسهم لاستئثارهم بمال الجباية دونه، فثار عليهم متدثرا بالسنية، ولكن يوسف بن منصور استمال ابنه يعقوب وابن عمه سليمان بن علي بن سباع، وأنزلهما معه ببسكرة وأنكح أخته يعقوب، ثم انعقدت السلم بين يوسف بن مزني وعلي ابن أحمد حوالي سنة **40** فلم تنقض بعد.

وكانت بطانة أمراء الحفصيين ببجاية تحسد بني مزني على هنائهم وثروة إمارتهم، فتسعى بهم لدى الأمراء، وكان بنو مزني يطفئون تلك السعايات بتوفير الجباية للأمراء وإتحاف بطانتهم بالهدايا، وربما لم ينجح هذا الدواء فيضطر بنو مزني إلى نصب أحد الحفصيين للملك ومبايعته ضد الأمير السابق أو إلى موالاة ملوك زناتة أهل تلمسان وفاس.

ففي أيام أبي البقاء بن أبي زكرياء فر يحي بن خالد بن السلطان أبي اسحق إلى منصور بن مزني وقد فسد ما بينه وبين أبي البقاء فبايعه واجلب

به على قسنطينة، ووسوس ليحي بعض حاشيته في منصور فعزم على نكبته إذا تم أمره وشعر به منصور فنبذه، وراجع طاعة أبي البقاء وخاب سعي يحي، فترل على منصور. وأقام تحت جرايته وحرسه مرصدا للعواقب إلى أن مات سنة **721** فكان ابن اللحياني يصانع منصورا من أجله بالجوائز واقطعه من أملاك السلطان بضواحي تونس أملاكا ورثها عنه بنوه.

ودعا منصور لأبي تاشفين الأول أيام أبي بكر أخي أبي البقاء، وترددت إليه العساكر. فأعجزها. وبقي على ذلك إلى أن خلفه ابنه عبد الواحد، فلم يلبث ان غاضبه عامل بجاية محمد بن أبي الحسين ابن سيد الناس فدعا لصاحب تلمسان ونازلته عساكر بجاية مرارا من غير طائل. ثم انعقد بينهما صهر وسلم.

وولي يوسف بن منصور أبا الحسن المريني لما ملك تلمسان. واقتصر مع الحفصيين على دفع الجباية لهم ثم تحرك أبو الحسن لفتح تونس، فوفد عليه في جموع الذواودة بأرض بني حسن. وذهب إليه سنة **49** بجبايته واجتمع بقسنطينة مع عمال المغرب بجبايتهم ووفدي صاحبي السودان والأندلس بهداياهم. وبلغتهم نكبة أبي الحسن. فهم بهم القسنطينيون وأجارهم يعقوب بن علي ولائه لأبي الحسن حتى هلك. وملك ابنه أبو عنان تلمسان، فبايعه وأمده في فتح قسنطينة سنة **54** ودله على الطريق في إتباعه يعقوب بن علي. وأنزله بعساكر ظاهر بسكرة ثلاثا أغرب في ضيافتهم على كثرتهم بما تحدث الناس به دهرا. وقدم إليه جبايته قناطر

ذهبا. فخلع عليه أبو عنان وأجزل صلته. ثم أوفد عليه ابنه أحمد سنة **59** بهدية فيها عتاق الخيل وفاره الرقيق. وتوفي أبو عنان فأتحفه خلفه بتحف ملوكية، وانقطعت الطرق بالثورات فخفره صغير بن عامر شيخ بني عامر حتى أبلغه مأمنه.

وأجلى أبو حمو الثاني أبا زيان محمد بن عثمان الثاني عن مملكته سنة **78** فنزل على صاحب توزر يحي بن يملول واتحد يحي وأحمد بن يوسف على استغلاله ضد الحفصيين، فراسل أحمد أبا حمو بكف أبي زيان عنه وأشغاله هو للحفصيين، بالإجلاب على مملكتهم ثم طرد الحفصيون يحي بن يملول فلحق ببسكرة ومعه أبو زيان فأوفد أحمد بن يوسف على أبي حمو يعقوب بن علي سنة **82** لاستنجاز وعده في حرب الحفصيين، ومات يحي بن يملول وترك صبيا، فسرحه أحمد لاسترجاع توزر فلم يقدر أبو حمو على أكثر من إمداده بالمال.

وخرج سلطان تونس أبو العباس لحرب أحمد بن يوسف، فسعى يعقوب بن علي في السلم، وحمل أحمد على الطاعة. وأرسل إلى السلطان بالشفاعة. وسرحوا أبا زيان إلى قسنطينة إيذانا بنفض أيديهم من أبي حمو. وبلغت رسل أحمد بهديتهم وطاعة أبا العباس أول سنة **83** وهو معسكر بساح تبسة فأعرض عن حربه.

ثم مرض بعدها في الطاعة. فخرج إليه سنة **86** ومعه سليم، ومر بتبسة وجنوب أوراس وتهودا، وانضم إليه أولاد سباع بن شبل وأنفت بقية رياح من دخول سليم مواطنها. وتناوش الفريقان القتال. وانتبذ عنهم

يعقوب ساعيا في الصلح فتم بإقلاع السلطان عن بسكرة وبذل أحمد له طاعته وجبايته.

وقويت الدولة الحفصية بضعف دولتي زناتة. وقطعت عنها كل المستبدين. ولم يبق الا بنو مزني. فخرج إليهم السلطان أبو فارس بن أبي العباس سنة **804** وتلوم أياما ببئر الكاهنة. ثم دخل بسكرة يوم السبت سابع جمادى الثانية. وولى عليها من قواده وحمل معه أحمد بن يوسف إلى تونس. فانتهت إمارة بني مزني.

وقد عاشت هذه الإمارة نحوا من قرن ونصف تخللها بنو رمان ربين فضل بن علي وابنه منصور. ولم يعرف الزاب إلى اليوم عصرا كعصرها هناء ورغادة عيش لما كان عليه بنو مزني من حسن التدبير والإدارة، فقد أحسنوا معاملة الذواودة، فاستعانوا بهم. وعرفوا ما بالبلاط الحفصي من دسائس فوصلوا أيديهم بزناتة التي لولا تطاحن دوليتها حتى ضعفتا ما سقطت هذه الإمارة في دور إكتهالها.

ومما يحسن ختم هذا الفصل به أبيات للسان الدين بن الخطيب بعث بها أثناء رسالة لابن خلدون وهو مقيم على أحمد بن يوسف. وهي:

من أنكر غيثا منشـــؤه ... في الأرض وليس بمخلفها
فبنان بـــني مـــزني مـــزن ... تنهل بلطف مصرفهـــا
مـــزن مذحـــل ببسكـــرة ... يوما نطـــقت بمصحفهـــا
شكـــرت حتـــى بعبارتهـــا ... وبمعنـــاها وبأحرفهـــا

ضحكت بأبي العباس من الا | يام ثنايـــا زخرفهـــا
وتنكرت الدنيا حتـــــى | عرفــت منه بمعرفهـــا

وهذا جدول أمراء بني مزني

الأمير	الولاية		الأمير	الولاية	
	هـ	م		هـ	م
لضل بن علي	678	1279	اخوه يوسف منصور	729	1329
ابنه منصور	693	1294	ابنه احمد	767	1365
ابنه عبد الواحد	725	1325	النهاية	804	1402

رئاسة الثعالبة بمتيحة وأخبار المعقل:

كان الثعالبة مستضعفين عاجزين عن الترحال. فاستقروا بالتل، وتغلبت عليهم توجين أيام كانوا بتيطري ثم مليكش وولاة الجزائر لما انتقلوا إلى متيجة أواخر القرن السابع. وأدوا المغارم لدول الحفصيين والمرينيين الذين تداولوا ملك متيجة والجزائر. وبقوا غفلا من حلف القبائل وإقطاع الدول إلى أن نشأ فيهم سالم بن ابراهيم .

وكان رئيس الثعالبة سباع بن ثعلب بن علي ومر به ابن تومرت فأكرمه فكان إذا وفد على خلفاء الموحدين وضعوا على عمامته دينارا عظيما إكراما له. واستمرت الرئاسة في عقبه. وكانت أولا لبني يعقوب ابن سباع ثم لبني محمد بن سباع.

ولما ملك أبو الحسن المريني تلمسان ولى عليهم أبا الحملات بن عايد بن ثابت بن محمد بن سباع، وهلك بالطاعون سنة **749** فخلفه ابراهيم بن نصر بن حنيش بن ابني حميد بن ثابت، وهلك أيام أبي عنان، فخلفه ابنه سالم، واستولى على تلمسان بعد أبي عنان أبو حمو الثاني.

وفي ذي الحجة سنة **767** ثار أبو زيان محمد بن عثمان الثاني على ابن عمه أبي حمو، وبايعه حصين وملك سنة **68** مليانة ولمدية، ووالي الجزائر يومئذ علي بن غالب من بيوتاتها، ونفر أهلها من السلطان أبي حمو. فاستبد بها، وساعدت هذه الظروف سالم بن ابراهيم على وضع ذل المغرم عن عاتق قومه، فوصل يده بابي زيان، ووسوس لأهل الجزائر أن واليهم يريد الدعاء لأبي حمو، فثاروا به. وأخرجه سالم إلى حيه وعجل له بحينه واستبد بالجزائر داعيا لأبي زيان.

وخرج أبو حمو سنة **71** إلى متيجة فاخضع الثعالبة وأخذ منهم جباية السنوات الماضية، وامتنعت عليه الجزائر ثم ملك عليه عبد العزيز سلطان مرين تلمسان سنة **72** وطرد أبا زيان ووضع على الثعالبة مغارم ثقيلة، ثم مات سنة **74** وعاد أبو حمو إلى تلمسان وأبو زيان إلى تيطوي.

وفي سنة **76** سعى محمد بن عريف شيخ سويد في إطفاء هذه الفتنة، فتم الأمر بخروج أبي زيان إلى رياح وأداء أبي حمو له إتاوة سنوية، وأوفد على أبي حمو سالم بن ابراهيم وشيوخ حصين وأعيان الجزائر، فأمنهم وعادوا إلى طاعته وبقي سالم على رئاسته بالجزائر ومتيجة وعمال أبي حمو تستوفي منه الجباية. وكل ينتظر الفرصة لشفاء صدره من الآخر.

وفي سنة 78 تآمر سالم ومرضى القلوب على أبي حمو،واستقدموا أبا زيان فغلب أبو حمو على الثورة وطلب سلم الأمن لنفسه على مفارقة أبي زيان فمنحه إياه، وخرج أبو زيان إلى الجريد وعاد أبو حمو إلى تلمسان مضمرا الفتك بسالم لكثرة تلاعبه بالعهود، فلما كان فصل الشتاء وانحدرت العرب الذين يخشاهم أبو حمو إلى مشاتيهم نهض إلى متيجة، فاجلفت أمامه الثعالبة إلى رؤوس الجبال، وبعث سالم أبناؤه وأولياءه إلى الجزائر وتحصن هو بجبل بني خليل، ثم نزل كثير من الثعالبة إلى أبي حمو مستأمنين، وانتقل سالم إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة وبعث أخاه ثابتا إلى أبي حمو فاقتضى منه العهد ونزل إلى ابنه أبي تاشفين أواخر رمضان فتقبض عليه أبو حمو ولم يراع عهده ولا ذمة ابنه، واستوى على الجزائر وقفل إلى تلمسان فقتل سالما في شوال وتتبع إخوانه وقبيلته بالقتل والسبي والنهب حتى دثروا، ثم قتل الأتراك منهم لاول استيلائهم على الجزائر مقتلة عظيمة ضاعفة ضعفهم.

وإذا لم يظهر من الثعالبة أمراء عظام فكفاهم فخرا عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر وعالم القرن التاسع، وأبو مهدي عيسى عالم القرن الحادي عشر، ولعل الشيخ عبد الرحمن من فرع محمد بن سباع ولكن الناس يرفعون نسبه إلى علي بن أبي طالب ض كأنهم لم يكتفوا بشرف العلم.

وقد حكى الإخباريون أن الشيخ محمد المقري التلمساني كان يحضر مجلس السلطان أبي عنان فإذا دخل مزوار الشرفاء قام له السلطان فمن

دونه إلا المقري فقال له المزوار ذات يوم مالك لاتقوم لي مثل السلطان إكراما لجدي فأجابه أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أبثه، وأما شرفك فمن لنا بصحبته بعد مضي أكثر من سبعة قرون؟ ولو تحققناه لاقمنا هذا السلطان من مجلسه وأجلسناك مكانه!

وبقية المعقل غير الثعالبة ذوو كثرة وانتجاع،ومواطنهم بين زناتة فكانوا أحلافا لهم، وأكثر انحياشهم إلى مرين، وكان المنبات من ذوي منصور أحلافا ليغمراسن بن زيان، وذوو عبيد الله محاربين له، ثم خضع الخراج منهم لبني عبد الواد إذ كانت مواطنهم في مملكتهم فأدوا لهم الخراج وعسكروا معهم.

ولما أخذت الدولة في الضعف منحت الخراج خفارة وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس. ثم أقطعتهم إياها. فتملكوها. وتملكوا أيضا هنين ووضعوا على المجيز منها إلى تلمسان ضريبة فصارت جباية معظم مملكة تلمسان الغربية لهم.

ولما تملك أبو الحسن المريني تلمسان استخدم ذوي عبيد الله، وانتزع منهم كثيرا من أملاكهم بالصحراء فثار عليه شيخهم يعقوب بن يغمور بن عبد الملك من العثامنة، ولكن لم يفعل أكثر من تشرده بالصحراء وولي مكانه منصور بن يعقوب بن عبد الملك ثم ابنه رحو، ولما عادت تلمسان لبني عبد الواد صدق يعقوب بن يغمور في ولائهم، ورأس على قومه ومات فخلفه ابنه طلحة، وكان لرحو مقامات في خدمة أبي حمو الثاني.

فولاه رئاسة قومه. وجعل طلحة رديفه، ويظهر أن رئاسة الخراج مغمورة برئاسة عامر وسويد من زغبة.

زغبة:

تمتد مواطن زغبة غربي مواطن رياح على جنوب عمالتي الجزائر ووهران وتقدموا مع أحلافهم بني بادين إلى التل أواخر الدولة المؤمنية، ونقل يغمراسن بن زيان بني عامر من نواحي زاغز إلى جنوب تلمسان أشجاء للمعقل الذين كثر عيثهم هنالك. وتبعت حميان بني عامر، وصارت في عدادهم ثم خشي يغمراسن على دولته من زغبة فحجرهم بالصحراء وأذلهم بالمغرم والعسكرة في جنده. واستمروا على ضعفهم المالي والسياسي مدة عظيمة دون دولة تلمسان.

وكانت بين قبائل زناتة حروب خاضت زغبة غمارها توسلا إلى دخول التل، فلما تمكن الضعف من بني عبد الواد أيام أبي حمو الثاني نزل أبو زيان ابن جبل تيطري سنة 767 وقام بدعوته حصين وسويد وبعض بني عامر، وكاد يتغلب على تلمسان ودامت ثورته نحو اثنتي عشرة سنة توالت فيها على أبي حمو الهزائم وتغلبت زغبة على كثير من التلول، ولم تنجل هذه الغمرة عن أبي حمو إلا بإقطاعه زغبة كل ما تغلب عليه أعداؤه منها أو طمع فيه أولياؤه.

تنوت زغبة بهذ الإقطاعات ووضعت عنها ذل المغرم وجبت من في أراضيها من البربر وحرمت عروة لضعفها من الإقطاع، وقعدت حصين وأكثر بني يزيد عن الضعن.

ولزغبة حروب مع جيرانها فكانت بين بني يزيد والذواودة حروب وتغلبت الذواودة على الدهوس .فاستنجد بنو يزيد بعامر وهم يومئذ جنوبهم فأنجدوهم، وأخرجوا رياحا عنهم. ففرض لهم أبو بكر بن زغلي رئيس بني يزيد على قومه ألف غرارة من الحبوب يأخذونها كل سنة وعرفت هذه الضريبة بالغرارة وكانت حروب أيضا بين عروة وجيرانهم من العمور ومسلم وسعيد، وبين سويد وبني عامر مع جيرانهم من المعقل وكانت فتن بين بطون زغبة المتجاورين.

وتنقلت رئاسة بني يزيد في كثير من بطونهم ثم استقرت في بني زغلي. فوليهم زيان بن زغلي ثم أخوه ديفل ثم أخوهما أبو بكر ثم أبناء ساسي فمعتوق ثم موسى بن أبي الفضل بن زغلي كان أيام أبي الحسن المريني، ثم أخوه أحمد ثم أخوهما علي ثم أبو الليل بن موسى وتوفي سنة **791** فخلفه ابنه.

ومن رؤساء حصين لعهد ابن خلدون علي بن صالح بن دياب ابن مبارك بن محيا بن مهلهل بن شكر بن محمد بن خشعة.

ومن رؤساء عروة لعهده محمد بن زيان بن عسكر بن خليفة بن النظر ويرادفه سمعون بن أبي يحي بن خليفة بن عسكر.

وأقوى بطون زغبة سويد أحلاف مرين وبنو عامر أحلاف بني عبد الواد. ويحالف سويدا محيا من العمور والعطاف والديالم وبنو يقظان وعبيد الله من زغبة. ويحالف بني عامر أولاد زكرير من العمور والنضر من زغبة. وموطن بني عامر تسالة وملاتة إلى هيدور من جبل وهران. وموطن سويد ما بين وانشريس وتلمسان عرضا وخليج رزيو والشط الشرقي طولا.وينحدرون شتاء إلى مزاب فيمرون بأفلو وتاجموت. وموطنهم أغنى مواطن زغبة وأكثرها سكانا ومع ذلك لم يبلغ بنو عامر ولا سويد عظمة الذواودة لكثرة الفتن بالمغرب الأوسط وخلوه إمارة كإمارة بني مزني تؤيد إخوانها من العرب ولعدم اجتماع كلمة زغبة على هذين البطنين.

وكانت سويد موالين لعبد الواد قبل تملكهم تلمسان، ورئاستهم لأولاد عيسى بن عبد القوي، وكان رئيسهم لعهد يغمراسن مهدي بن عيسى ثم ابنه يوسف واقطعه ببلاد سيرات والبطحاء وأقطع ابن عمه عنتر بن طراد بن عيسى قرارة البطحاء ورأس بعد يوسف أخوه عمر، وأدناه يغمراسن، فربما استخلفه في خروجه للحرب على تلمسان ومملكتها الشرقية، ثم كانت بينهما فتنة هلك فيها عمر، وتأخر قومه فنزلوا خلف مواطن توجين وحالفوهم على حرب عبد الواد.

ورأس طغون سويد عثمان بن عمر وترك من الأبناء ميمونا وسعيدا ويحي، فخلفه ميمون ثم تغلب عليه سعيد، فلحق ببني مرين وتوفي بسجلماسة أيام الأمير أبي علي أخي السلطان أبي الحسن، ووفد سعيد بن

عثمان على السلطان يوسف المريني وهو محاصر لتلمسان فأكرمه ثم أجمع قتله، ففر إلى قومه واجلب أثناء ذلك الحصار على أطراف التلول فملك السرسو وجبل كريكرة، وعاد تتلمسان لعبد الواد وأفضى أمرها إلى أبي تاشفين الأول، وكانت بينه وبين عريف بن يحي مودة، فقربه إليه ثم سخطه فلحق ببني مرين سنة **720** وانتقم منه أبو تاشفين بسجن عمه سعيد. فلم يزل مسجونا حتى توفي حوالي سنة **737**.

وخلف سعيدا ابنه سمعون، وهلك سنة **32** فخلفه أخوه عطية، وهلك بعد فتح تلمسان، فقعد أبو الحسن مكانه لونزمار بن عريف، فغضب المسعود بن سعيد ولحق ببني عامر. واجلب على أبي الحسن بالدعي بن هيدور. ففرق ونزمار جموعهم، ثم رقى أبو عنان ونزمار إلى مجلسه وعقد على بادية سويد لأخيه عيسى وقتله أبو حمود الثاني في زحفه إلى تلمسان وعقد مكانه على سويد لميمون ابن سعيد. فدس عليه محمد وأبو بكر ابنا عريف من اغتاله. وخلفاه في رئاسة قومهما. وغمسا أيديهما في ثورة أبي زيان وأطمع محمد أبو حمو في استصلاح أخيه وطالت تمنيته إياه. فاقمه بالمراوغة وأودعه السجن سنة **70** فلحق أبو بكر بتخيهما ونزمار. فحمل عبد العزيز المريني على فتح تلمسان. وبعد وفاة عبد العزيز عاد أبو حمو إلى تلمسان. واستقام معه ونزمار وحمل أخويه على مصافاته. فاقطع أبو حمو أبا بكر كلميتو ومحمدا مازونة.

وأعظم رؤساء سويد هما عريف بن يحي بن عثمان وابنه ونزمار. فقد اتخذ أبو الحسن المريني عريفا خليلا ووزيرا مشيرا وسفيرا بينه وبين

ملوك مصر وتونس وغرناطة ورفع مقامه على كل عربي في ممالكه، وهو الذي كان يغريه بفتح تلمسان، وحضر معه فتحها وفتح تونس، وكان على يمينه في موكب دخوله تونس وعاد لحرب عبد الواد لما ملكوا تلمسان، فهزموه ولم يجد السبيل للعود إلى تونس، فلحق بفاس، وأكرمه أبو عنان الثائر يومئذ على أبيه. وتوفي أيامه وكان منجبا، فاشتهر من أبنائه ونزمار ومحمد وأبو بكر وعيسى.

وكان ونزمار أكبرهم، وعقد له أبو الحسن بعد فتح تلمسان على قبيلة بني مالك وجعل له رئاسة البدو بجميع مماكله وأخذ الصدقات والضرائب منهم، فعكف على بابه كبراء العرب وشيوخهم ونزلوا على إشارته، ولما أوقعت مغراوة بابي الحسن سنة **50** انجاه على جبل العمور. وألحقه بسجلماسة. فبعث إليه أبوه عريف بالرجوع عنه أرضاء لأبي عنان. فلما خلص الأمر لأبي عنان أقطع ونزمار قلعة تاوغزوت والسرسو وكثيرا من بلاد توجين وهلك عريف فاستقدمه وأجلسه بمجلس أبيه حذو أريكته.

وبعد موت أبي عنان كثرت الاضطرابات بالمغربيين الأوسط والأقصى فنبذ ونزمار مجلس السلطان. وانتبذ بوادي ملوية. وبنى هناك قصر مرادة وغيره وتوجهت إليه ملوك مرين وغيرهم وشيوخ العرب ورؤساء الأقطار مستشيرين صادرين عن رأيه. وكان يحاول استئصال دولة عبد الواد وهو علة ضعفهم ومحرك الحروب والثورات عليهم. وخرب أبو حمو قصر مرادة من منتزهاته سنة **85** فانتقم منه ونزمار

بإدخال مرين تلمسان وتخريبهم قصور الملك بها و لم أعلم متى مات؟ ويظهر ان سويدا بعده تلاشى أمرها، و لم يبق لرؤسائهم كبير اعتبار.

وبنو عامر كانت رئاستهم في بني يعقوب ويرادفهم بنو حميد. ثم سخط عثمان بن يغمراسن بني يعقوب ورضي بني حميد لاستقامتهم على طاعته. فاستشاط بنو يعقوب غيرة لتقديم بني عمهم. ووصلوا أيديهم بمرين ثم حالفوا سويدا. وعظمت رئاسة بني حميد. وتعددت بطونهم، فعد منها الشيخ عبد القادر المشرفي سبعا وستين و لم يسلم بنو حميد بعد من الخلاف على دولة عبد الواد فكان من رؤسائهم من وصلوا أيديهم بمرين أو بالحفصيين. ثم كان بين أبناء أبي حمو الثاني نزاع شديد على الملك كان لبني عامر فيه اليد الطولى، ثم أصبحوا بعد سقوط دولة بني عبد الواد بعضهم جند الإسبان وبعضهم رعية لهم.

وكان رئيس بني يعقوب امرة يغمراسن وابنه داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن كريش بن عياد بن منيع بن يعقوب. وكان أبو زكرياء بن أبي اسحق الحفصي لدى عثمان بن يغمراس. ورام امتلاك بجاية على عمه أبي حفص فمنعه. فتظاهر بالصيد. ولحق بداود ابن هلال. فأمره عثمان برده عليه. فأبى. وأوصله إلى عطية بن سليمان الذوادي. فتغلب على بجاية. وأقطع داود أرض كدارة من بسيط حمزة. وسخطه عثمان بن يغمراسن فلحق بالصحراء. وكان حصار يوسف بن يعقوب لتلمسان. فوفد عليه داود برسالة من أبي زكرياء. فكان ليوسف في تلك الرسالة ريبة. فلما قفل من عنده بعث أثره من قتله في سيق.

وخلفه ابنه سعيد، وانجلى الحصار عن تلمسان، فرضي عنه عبد الواد لقتل مرين اباه، ثم دفعته الغيرة من مكانة بني حميد إلى الوفود على السلطان أبي ثابت المريني، فرده بخفي حنين، وقتله بنو حميد أيام أبي حمو الأول، فخلفه ابنه عثمان واختلفت أيامه مع بني حميد سلما وحربا، ثم حالف سويدا، ولحق في قومه بالمغرب احتماء بعريف ابن يحي السويدي، ثم عادوا إلى مواطنهم لما زحف أبو الحسن إلى تلمسان، فقتل بنو حميد عثمان، وخلفه رديفه هجرس بن غانم بن هلال إلى أن مات، فخلفه سليم بن داود، ثم ابنه ساسي، فلم يزل ساسي ابن سليم في خلافه على عبد الواد، وانتقل إلى النضر من عروة.

وكان رئيس بني حميد لعهد يغمراسن معروف بن سعيد بن رباب ثم ابنه يعقوب، وكان مع داود بن هلال في انجاد عامر لأبي بكر بن زغلي على رياح، ثم ابنه ابراهيم، وهلك بعد مقتل سعيد بن داود، فخلفه ابنه عامر، وكان شهما حازما حسن السمعة، ووفد على أبي سعيد سلطان مرين قبل سنة **720** وخطبه بنته، فأنكحه عامر إياها، ووصله السلطان بمال خطير، وقتله عثمان بن سعيد اليعقوبي غدرا.

وخلفه ابنه صغير وفر في قومه إلى الصحراء لما ملك أبو الحسن تلمسان ونزل القليعة جنوب مزاب، ثم جاءه تائبا، وصحبه إلى تونس وحضر معه وقعة القيروان وعادت تلمسان لعبد الواد. فاخلص لهم الطاعة. وملك أبو عنان تلمسان فأصحر كعادته. وردد الغارات على أطراف ممالك مرين. ووصل يده بأعدائهم. وبلغه خلاف يعقوب ابن

علي الذوادي على أبي عنان. فوفد بقومه عليه. وأبو حمو الثاني يومئذ بتونس. فاتفق يعقوب وصغير على تجهيزه لطلب ملك سلفه بتلمسان. فعاد به صغير في جمع من الذواودة ابلغوهم تخوم بلادهم. ولقيتهم سويد فهزموها. واحتلوا تلمسان بعد وفاة أبي عنان. ومات صغير سنة **761** ودفن بالعباد واحتفى أبو حمو بجنازته .

وخلف صغيرا أخوه خالد. ويرادفه عبد الله بن صغير. وكان أبو حمو قد قرب إليه عبد الله بن عسكر بن معرف بن يعقوب بن معروف ابن سعيد فحملت الغيرة خالدا على الخلاف، ووصل يده بعبد العزيز سلطان مرين. وحارب أب حمو ونال منه ثم غمس يده في ثورة أبي زيان، فأخرج له أبو حمو ابنه أبا تاشفين في جموع سويد والديالم والعطاف وغيرهم، وكانت جموع خالد عظيمة لكن أبو تاشفين هزمه وقتل عبد الله وملوك ابني أخيه صغير على وادي مينة سنة **777** وهلك خالد على فراشه سنة **78**.

وخلفه المسعود بن صغير، فكان دون عمه، وافترقت عنه الجموع وتخلى عنهم أبو زيان، وضاقت به السبل فاستأمن لأبي حمو هو وساسي بن سليم، فأمنهما وقومهما. وعزم على استئصالهم فتقبض ذات يوم على المسعود وعشرة من بني عامر بن ابراهيم وصبح أبو تاشفين إحياء بني يعقوب بسيرات. ثم اعترض فلهم ببني راشد فعظمت النكاية. ونجا ساسي إلى النضر وشفع أبو العباس سلطان مرين بسعي ونزمار بن عريف في المسعود وجماعته. فسرحهم أبو حمو، وعادوا إلى الخلاف، وضعفت مرين

عن صريخهم. فاستصرخوا صاحب تونس أبا العباس الحفصي. فوعدهم. ووفد عليه علي بن عمر بن ابراهيم كبير الثائرين على أبي حمو بعد ابن عمه خالد، فلم يزده على المواعيد وهنالك خضع لأبي حمو فقدمه على بني عامر. وكان قد استبد برئاسة عامر بعد خلاف خالد بن عامر عمه سليمان ابن ابراهيم ويرادفه عبد الله بن عسكر إلى ان عزله أبو حمو بعلي ابن أخيه فلحق ببني يعقوب النازلين على أبي بكر بن عريف .

هذا ما أفادنا به ابن خلدون من أخبار العرب وانا لنأسف لإغفال من بعده هذا الشأن. فلم نجد حديثا نصله بحديثه الا نتفا لا تجلي غامضا وقد تكون رسائل صغيرة مبعثرة في زوايا الوطن لو جمعت لتكونت منها حلقات لهذه السلسلة غير أنا لم نسمع بها ولعل الله يبعث في الأمة روحا علمية فيظهر كل ما لديه من حلقات لعل الله ييسر لنا جمع هذه الحلقات من بعد فنلحقها بالكتاب الرابع ان شاء الله.

الباب السادس

في الدولة الحفصية



تأسيس الدولة الحفصية:

للموحدين دولتان المؤمنية والحفصية. والحفصيون ينسبون إلى أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي أحد العشرة من أصحاب ابن تومرت. وينسبه ابن نخيل إلى عمر بن الخطاب (ض). وفيه بعد.

وكان أبو حفص معظما في الدولة المؤمنية. وتوفي سنة **571** وولي للناصر ابنه عبد الواحد على تونس سنة **603** فكان له غناء في دفاع ابن غانية. وتوفي سنة **618**. واشتهر من أبنائه عبد الرحمن وعبد الله المدعوا عبو أبو زكرياء مؤسس الدولة ومحمد اللحياني. وولي تونس بعده السادة من بني عبد المؤمن.

وفي سنة **23** ولى العادل بتونس عبو وقدم معه أخوه أبو زكرياء فولاه قابس. ودعا المأمون لنفسه. فأبى بيعته عبو. وقبلها أخوه أبو زكرياء وتغلب على تونس في رجب سنة **25**. ثم نقض بيعة المأمون سنة **27** لسبه مهديهم ابن تومرت وقتله رجال هنتاته وشيوخ الموحدين الذين كانوا

سبب الفتن بين أبناء عبد المؤمن. واقتصر أبو زكرياء على ذكر المهدي ولقب الأمير. ولم يزل ذكر المهدي في سكة خلفه إلى آخر الدولة .

وفي سنة **28** فتح أبو زكرياء قسنطينة وبجاية. ثم فتح سنة **32** الجزائر وشلف والبطحاء وسائر مواطن مغراوة وتوجين. وذكر اسمه في الخطبة بعد المهدي سنة **34** وبايعته الأندلس الشرقية سنة **35** وفتح تلمسان سنة **40** وتتابعت عليه البيعات من المغرب والأندلس. وتم ارث الحفصيين للدولة المؤمنية ببيعة مرين لهم لما فتحوا مراكش سنة **668**.

ولم يحقق الحفصيون هذا الإرث لضعف القوة الحربية عن حماية الممالك النائية. فانسلخت عنهم أكثر الجهات. وكانوا يصبون إلى مراكش. فتمسكت بها مرين. وبقيت عاصمتهم بتونس على أنهم غلبوا عليها أحيانا.

وأول من غلبهم عليها الدعي. وهو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي. ولد بها سنة **642** ونشأ ببجاية وسيما خياطا معنيا بالتنجيم. يخط الرمل. فيحدثه خطه بالملك. ثم لحق بعرب المعقل من صحراء سجلماسة. وادعى نقل المعادن إلى الذهب وانه المهدي المنتظر. ففضحه العجز. ونتقل إلى عرب طرابلس. وادعى أنه الفضل بن الواثق. وكان الفضل قد قتله السلطان أبو اسحق. ولكن أكثر العرب إذا وجدوا سبيلا للثورة خانتهم أحلامهم. فصدقوه. وبايعوه سنة **81** ونزع إليه مرضى القلوب من كبار الدولة. فدخل تونس لأشهر من بيعته. وفر السلطان أبو اسحق إلى بجاية. وحاول حربه. فلم ينجح.

وكان الدعي سفاكا للدماء. قتل كثيرا من شيوخ العرب وجند زناتة والنصارى. وبسط العذاب على آخرين. فسئمته الرعية. وتطلب العرب أميرا حفصيا. وكان أبو حفص أخو السلطان أبي اسحق بقلعة سنان. فقصدوه. وبايعوه. ودخلوا به تونس سنة **83** واختفى منه الدعي حتى أخذ وقتل. وكانت بيعته كما قال لسان الدين ابن الخطيب .

غريبة من لعب الليالي ما خطرت لعاقل ببال

الحكومة الحفصية:

الدولة الحفصية مستقلة استقلالا تاما وحكومتها بيد كبار الموحدين وعظماء الجاليات الأندلسية وكلا الفريقين متدرب على قلب الحكومات تخلصا من منافس وطلبا لتمكن في الرئاسة. فشا فيهم هذا الخلق أواخر الدولة المؤمنية. فشقيت به الدولة الحفصية وأصبح ملوكها ألعوبة بأيديهم الا قليلا منهم.

وكان أبو زكرياء الأول وابنه المستنصر ملكين عظيمين أخضعا الثوار وحفظا الأمن فتقدمت الدولة أيامهما في الحضارة تقدما عظيما وعاش الناس في رفاهية. وغمرت من بعدهما الفتن حتى ضعفت دولتا زناتة بعد أبي عنان وأبي حمو الثاني وفنيت البيوت الكبيرة من الموحدين والأندلسيين ويومئذ أصبح الملك الحفصي آمر اناهيا آمنا في سربه ولكن مالية الحكومة في ضعف لتغلب العرب على البوادي وتقوي الأوروبيين بالبحر.

وكان ملوك الحفصيين يدعون أمير المؤمنين لإرثهم الخلافة عن بني عبد المؤمن وسقوط بغداد أيامهم حتى بايعهم بالخلافة أهل الحجاز سنة **659** ويتلقبون بألقاب الخلفاء من مستنصر وواثق وغيرهما وكانت علامتهم «**الحمد لله والشكر لله**» لها كاتب خاص وقسمها المستنصر إلى كبرى ترسم بعد البسملة أول الصحيفة عن أمر الخليفة والي صغرى ترسم أسفل المنشور عن أمر نائب الخليفة في الأمور الصغيرة وربما استضعف الملك نفسه فترك شعار الخلافة واقتصر على لفظ الأمير وكان الملك يعهد لمن بعده وأحيانا يتغلب على الملك أحد القرابة ويبعد عنه ولي العهد.

وللحفصيين مع ملوك مصر والسودان علاقات حسنة، وحاولوا تحسين علاقتهم مع ملوك أوروبا لكن هؤلاء لاعهد لهم يحفظ فمتى وجدوا غرة في الساحل ملكوها وكثيرا ما يترلون بالمدينة تجارا فان وجدوها خالية من الحامية انقلبوا حربيين وعلاقتهم مع زناتة تختلف حربا وسلما وكانت زناتة ظاهرة عليهم ثم ضعفت فظهروا عليها وخطبت لهم بتلمسان وفاس منذ سنة **827**.

وللدولة جيش من زناتة وصنهاجة والنصارى وتستنفر في الحرب أولياءها ورعاياها من العرب والبربر وحالها في البحر ضعيف لضعف ماليتها باقطاعات العرب وابو زكرياء الأول الذي لم تكن أيامه اقطاعات وكان مقتصدا يلبس الصوف، قال ابن قنفذ: «**بلغ جيشه سبعين ألف فارس وماليته تسعة عشر بيتا والبيت ألف ألف**»1هـ. وما أحسن الاستغناء ببيت عن عجمة مليون .

واقتدت الحكومة الحفصية بالمؤمنية في جميع أنظمتها. ونقل الزركشي ان الحفصيين كانوا قديما لا يتركون القاضي في قضائه أكثر من عامين لوصية عمر بن الخطاب (ض) بذلك وليكثر المتدربون على القضاء ويكونوا إلى العدل أقرب 1هـ.

وهذا جدول الملوك الحفصيين بحذف كناهم الكثيرة الاستعمال كتكنية يحي بأبي زكرياء وإبراهيم بابي اسحق وعمر بابي حفص وخالد بأبي البقاء:

الملك	الولاية	الملك	الولاية
	هـ م		هـ م
يحي الأول	1230 627	الفضل بن أبي يحي أبي	
ابنه محمد الأول المستنصر	1249 647	بكر	1350 750
ابنه يحي الثاني الواثق	1277 675	اخوه ابراهيم الثاني	1350 751
ابراهيم الأول بن يحي الأول	1279 678	ابنه خالد الثاني	1369770
اعتراض الدعي	1283 681	احمد الأول بن محمد بن أبي يحي	1370 772
اخوه عمر الأول	1284 683	ابنه أبو فارس عزوز	1394 796
أبو عصيدة محمد الثاني	1295 694	محمد الرابع بن محمد بن عزوز	1434 837
بن الواثق	1309 709	اخوه أبو عمر عثمان	1435 839
خالد الأول بن يحي بن ابراهيم	1311 711	يحي الثالث بن محمد بن عثمان	1488 893
زكرياء بن احمد بن اللحياني	1317 717	محمد الخامس بن الحسن	
ابنه أبو ضربة محمد الثالث	1318 718	بن محمد بن عثمان	1494 899
أبو يحي أبو بكر اخو خالد الأول		ابنه الحسن	1526 932
ابنه عمر الثاني	1347 747	ابنه لاحمد الثاني	1536 943
اعتراض مرين	1347 748	اخوه محمد السادس	1569 977
		القراض الدولة	1573 981

ولاة الجزائر الحفصية:

الجزائر الحفصية هي عمالتا قسنطينة والجزائر إلى ما بعد مليانة شمالا غربيا، وما بعد ورقلة جنوبا الا ما تغلبت عليه زناتة من بعد.

وكانت عاصمة هذه المملكة الغربية بجاية حتى أكثرت زناتة من الغارات على ساحتها فصارت الأهمية لقسنطينة وأكثر ولاة بجاية وقسنطينة وبونة حفصيون وقد يليهن مواليهم. وبقية المدن يليها أولياؤهم وصنائعهم أو شيوخ من أهلها. وكثيرا ما تستقل هذه المملكة عن تونس، وقد يستقل مدنها بعضها عن بعض.

والولاة الحفصيون يتخذون الحجاب والوزراء والكتاب كالملوك. وأولهم أبو يحي زكرياء. أنزله أبوه أبو زكرياء يحي الأول ببجاية سنة **633**. وجعل وزارته ليحي بن صالح بن ابراهيم وشوراه لعبد الله بن أبي مهدي وجبايته لعبد الحق بن ياسين. وكلهم من هنتاتة. ثم ولاه عهده سنة **38** وكتب له وصية طويلة جامعة لمحاسن الدين وسياسة الملك. نقلها ابن خلدون وسقطت، من نسخته المطبوعة بمصر. وكان عالما دينا جليل القدر ضابطا لأموره عدلا في أحكامه. وتوفي سنة **46**. وكان أبو زكريا لما فتح قسنطينة ولى بها بني النعمان من هنتاتة. فقويت شوكتهم وغمسوا أيديهم في بعض الثورات على المستنصر. فنكبهم وأباد رؤساءهم قتلا ونفيا سنة **51** وولى بها ابن كلداسن من مشيخة الموحدين فأقام بتونس وأناب عنه أبا بكر بن موسى بن عيسى الكومي المعروف بابن الوزير، فكان ذا غناء وصرامة. ثم سماه المستنصر حافظا عليها. فلم يزل بها إلى أيام أبي اسحق.

وفي سنة 59 جهز المستنصر أخاه عمر لإخضاع مليانة، فلما قفل من فتحها وافاه بطريقة عقد الولاية على بجاية، فرغب في المقام بتونس، فأعفاه المستنصر وولى عليها أبا هلال عياد بن سعيد الهنتاتي، فلم يزل بها إلى ان توفي بقرية بني ورار سنة 73، فخلفه ابنه محمد، وضايقه الواثق بتولية إدريس بن عبد الملك الغافقي الأندلسي على أشغال بجاية، فتخلص منه بقتله سنة 77 وخشي انتقام الواثق، فبايع عمه أبا اسحق ابراهيم.

وكان ابراهيم ثار على أخيه المستنصر ولم يفلح. ففر إلى الأندلس فلما بلغته وفاته أجاز إلى تلمسان. ونزل على يغمراسن حتى جاءته بيعة ابن عياد. فدخل بجاية في ذي القعدة وخشيه الواثق فبعث لضبط قسنطينة عبد العزيز بن عيسى بن داود الهنتاتي قائدا فصد عنها ابراهيم ولكنه تغلب على تونس بمساعدة أخيه عمر في ربيع الأول سنة 78.

وفي سنة 79 ولى ابراهيم الأول على بجاية اكبر بنيه عبد العزيز وحجبه محمد بن أبي بكر بن خلدون الأندلسي. وأبقى بقسنطينة أبا بكر بن الوزير. فثار بها في شعبان سنة 79 وكاتب ملك أرغون من أرض الأندلس مستمدا أسطوله فخرج إليه عبد العزيز بعد خمسة عشر شهرا من ثورته فلما بلغ ميلة وفدت عليه رسله معتذرين، فاعرض عنهم وتقدم إلى قسنطينة، فحاصرها حتى فتحها في رمضان سنة 81 وقتل ابن الوزير وعاد أسطول ملك أرغون من القل خائبا، ورم عبد العزيز ما أفسدت الحرب من أسوار المدينة وقناطرها، وولى عليها أبا محمد بن بوفيان الهرغي ولم يزل عبد العزيز عزيزا في مملكته إلى ان ظهر الدعي وفر منه أبوه ابراهيم

اليه. وانخلع له، فبويع عبد العزيز بالخلافة، وتلقب المعتمد على الله. وصمد إلى تونس. فتلقاه الدعي بمرماجنة قرب قلعة سنان في ربيع الأول سنة **82** فقتل عبد العزيز، ثم أبوه، ونجا أخوه يحي إلى تلمسان.

ولما ملك عمر الأول تونس عاد يحي لامتلاك بجاية، فملكها بمساعدة الذواودة سنة **84** واستقل بالمملكة الغربية، وتلقب المنتخب لإحياء دين الله، وحجبه أبو الحسين بن سيد الناس الاشبيلي إلى أن توفي سنة **90** فحجبه أبو القاسم بن أبي حي الأندلسي، وعهد لابنه خالد سنة **98** وولاه قسنطينة وتوفي ببجاية سنة **700**.

ويحي المنتخب أول من قسم الدولة الحفصية شطرين. وأجلب على تونس مرارا. فنهض إليه أبو عصيدة سنة **95** حتى بلغ ميلة. وانكفأ منها إلى تونس. فاقصر يحي عن طلب تونس. ولم يدع الخلافة. وكان حازما يقظا سري الهمة متقشفا متواضعا يرقع ثوبه بيده محبا لاهل العلم مشرفا على ممالكه بنفسه مقسما سنته بين بجاية وقسنطينة ذا آثار صالحة منها توسيع قصبة قسنطينة وجامعها .

نعي إلى خالد أبوه وهو بقسنطينة. فانتقل إلى بجاية. واستوزر يحي بن أبي الأعلام. وقدم على الموحدين يحي بن زكريا الحفصي وعلى صنهاجة كبيرها يعقوب بن خلوف إلى ان مات فخلفه ابنه عبد الرحمن. وأبقى على حجابته ابن أبي حي. فولى هذا الحاجب صهره علي بن الأمير الهمذاني على قسنطينة. واتهم بمولاة أبي عصيدة. فعزله عن حجابته سنة **705** وحجبه بعده أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر (**بالغين سمي**

السحاب) السلمي الشاطبي. فحول ابن الأمير الدعوة إلى أبي عصيدة. فنهض إليه خالد وفتح قسنطينة وقتله. وخشيه أبو عصيدة فاصطلحا على أن المملكة لمن بقي بعد صاحبه. وتوفي أبو عصيدة سنة **709** فانتقل خالد إلى تونس وجمع بين المملكتين الشرقية والغربية. ثم تغلب عليه ابن اللحياني سنة **11** فانخلع له ومات سنة **713**.

ولما انتقل خالد إلى تونس انتقل معه حاجبه ابن غمر واستخلف على بجاية عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف الصنهاجي. وبينه وبين الحاجب تنافس. وخشي الحاجب تغير خالد عليه. فدبر في الابتعاد عنه. وخوفه من ابن خلوف فعقد خالد لأخيه أبي بكر على قسنطينة. وسرح معه حاجبه ابن غمر مشرفا على بجاية.

وفي سنة **711** دعا أبو بكر لنفسه بإشارة ابن غمر. وتلقب المتوكل على الله. وخالف عليه ابن خلوف. فقتله غدرا. واحتل بجاية سنة **12** وبعث ابن غمر إلى ابن اللحياني قبل تغلبه على تونس مظاهرا له. فلما دخل تونس عقد معه سلما. وقفل إلى أميره أبي بكر ببجاية. وعادت الدولة إلى انقسامها شرقية وغربية. ثم تغلب على تونس سنة **18** فجمع بين المملكتين وطالت مدته وغالب الخطوب حتى توفي في رجب سنة **747**.

وكانت ولادته ونشأته وقراءاته بقسنطينة. وله رياض بظاهرها. وكان كثير التردد عليها.

ولما انتقل أبو بكر إلى تونس بقي الحاجب ابن غمر ببجاية مستقلا بهذه المملكة الغربية ليس لأبي بكر فيها غير السكة والخطبة. ثم توفي في شوال سنة **19**. فولى أبو بكر أبناءه محمدا بقسنطينة ويحي ببجاية والفضل ببونة. وبعث معهم الحجاب والوزراء والقواد.

وفي سنة **37** توفي الأمير محمد بقسنطينة وترك أبناء خلفه منهم عبد الرحمن وكان محمد مرضي السيرة حسن الإدارة ذا علم وذكاء وجود وحياء. وكانت ولادته ونشأته وقراءته كأبيه بقسنطينة.

وفي ربيع الأول سنة **47** توفي الأمير يحي. فقدم البجائيون ابنه محمدا ووافقهم جده على توليته. ثم مات أبو بكر واستولى أبو الحسن المريني على الممالك الحفصية. فابقي الفضل ببنونة لأن أخت الفضل تحته. ونقل محمدا إلى ندرومة وعبد الرحمن وإخوته إلى وجدة.

وفي سنة **49** استرجع الفضل من مرين قسنطينة وبجاية. وثار أبو عنان بالمغرب على أبيه أبي الحسن وهو بتونس. فسرح محمدا وعبد الرحمن إلى ولايتيهما ليكونا سدا بينه وبين أبيه. فانقبض الفضل إلى بونة. ثم ملك تونس سنة **50**.

وفي سنة **53** أخذ أبو عنان بجاية من الأمير محمد. ونقله إلى تلمسان. ثم تغلب عليها عمه ابراهيم الثاني سنة **61** فسرح مرين الأمير محمدا لاسترجاعها. فمانعه عمه. حتى دخلها عليه سنة **65** فعاد ابراهيم إلى تونس. وكان عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ الشهير بالأندلس، فاستقدمه الأمير محمد، فوفد عليه سنة **66** وولاه حجابته.

وفي سنة **56** خرج عبد الرحمن من قسنطينة مجلبا على تونس، واستخلف أخاه أحمد، فدعا لنفسه بالخلافة، وعاد عبد الرحمن إلى بونة طامعا في قسنطينة. فتمسك أهلها بأخيه، فاصطلح عبد الرحمن مع عمه ابراهيم الثاني بعدما كان منازعا له، وسلم له بونة على أن يأذن له في المقام بتونس .

وفي سنة **58** دخل أبو عنان قسنطينة، ونقل الأمير احمد إلى سبة، ثم سرحته مرين إلى ولايته سنة **61** فبعث أخاه زكرياء لفتح بونة فاسترجعها من عمه ابراهيم، وحارب ابن عمه محمدا على بجاية فقتله واستولى عليها سنة **67** وعادت المملكة الغربية تحت أمير واحد كما كانت أمرة يحي المنتخب، ثم ملك تونس سنة **72** وبها توفي سنة **96.**

وكان دينا عاقلا شجاعا سمحا، ولد بقسنطينة سنة **729** وكان يقرب القسنطينيين ويوليهم المراتب السامية في دولته بتونس.

ولما انتقل السلطان أحمد إلى تونس ولى حجابته أخاه زكرياء، ونقله معه من بونة، فاستخلف بها ابنه محمدا وبعث معهما الحجاب والقواد من الموالي وتوفي محمد سنة **85** فخلفه ابنه أحمد، وتوفي ابراهيم سنة **93** فخلفه كاتبه ابراهيم بن يوسف الغماري وكان الأمير ابراهيم محجوبا للقائد بشير المتوفي سنة **79** فاكتسب منه صفات حميدة، وكان دينا محسنا متواضعا إداريا حازما.

وكان ولي عهد السلطان أحمد ابنه أبا بكر. فلما حضرت الوفاة أباه بعثه أخوته لحفظ قسنطينة. وقبضوا على عمهم زكرياء. فلما توفي

السلطان بويع ابنه عبد العزيز المدعو عزوز. فخالف عليه أبو بكر. ودعا لنفسه. وعكف على لذاته. فتوجه الكاتب احمد بن الكماد مع العرب إلى بونة. فحضوا صاحبها الأمير محمد على ملك قسنطينة. فنازلها في ذي القعدة سنة **96** وحاصرها شهرين ونصفا. ثم أقلع عنها. وعاد إليها سنة **97** وكثر عيثه في ساحتها. فنهض إليه السلطان عزوز في رمضان. والتقى الجمعان بتبرسق. فانهزم الأمير محمد إلى سيبوس. ودخل بونة موقنا بعجزة. فركب البحر إلى فاس مستصرخا صاحبها. ودخل عزوز بونة. ووفد عليه بها أخوه أبو بكر مبايعا. وكتب إلى الخطباء ببيعته لأخيه. ثم أعقبه بكتاب يمنعهم من الدعاء لأخيه. وكل ذلك في رمضان سنة **97**.

توقف الخطباء فلم يدعوا لأحد حتى جبرهم أبو بكر على الدعاء له في صفر سنة **98** ثم كتب لأخيه بالبيعة في جمادى الثانية ثم هم بنقضها. فاستقدم القسنطينيون عزوزا. فنازلها في شعبان وحاصرها نحو شهر لم يضر فيه بزرع ولا شجر، واسمه يذكر على المنابر، وفتح المدينة في رمضان، وأقام بها ممهدا للأحوال، وعاد إلى تونس آخر شوال ومعه أبو بكر، وقدم لقيادة قسنطينة القائد نبيلا ولقصبتها الشيخ قاسم بن أحمد بن تافراقين التينمللي، وتداول أمرها الموالي.

عظم أمر عزوز بفتح قسنطينة، فنازل أوراس، وضل هو وجنوده السبيل وكادوا يهلكون، وخشي أحمد أمير بجاية سطوة السلطان فوفد عليه في هذه السنة سنة **98** مبايعا منخلعا.

ولى السلطان عزوز أخاه زكريا على بونة، وفي سنة **810** وفد عرب إفريقية على صاحب فاس ليرسل معهم الأمير محمدا المنهزم إليه ويمده على السلطان عزوز، فخرج الأمير محمد في جموع مرين والعرب. وما بلغ أطراف عمل بجاية حتى كثرت جموعه من العرب ووفد عليه المرابط ابن أبي صعنونة. فسرح جيش مرين. وخشية عزوز على بجاية. فنقل إليها أخاه زكريا من بونة. ولكن البجائيين ادخلوا الأمير محمدا فركب زكرياء البحر مشرقا. وعقد الأمير محمد على بجاية لابنه المنصور وتوجه للقاء عزوز فخالفه إلى بجاية فدخلها. وقبض على المنصور وأعيانها. فاعتقلوا بتونس. وأعاد إلى ولايتها صاحبها أحمد ابن أخيه محمد. ونهض لقتال الأمير محمد. فلما تراءى الجمعان انخزل المرابط إلى عزوز. فانهزم الأمير محمد. وإدرك في الجمعان انخزل المرابط إلى عزوز. فانهزم الأمير محمد. وأدرك في بتيتة جوفي تامغزة. فقتل وقبر هناك. وذلك في المحرم سنة **812**.

ثم ولى على بجاية أبو البقاء خالد وعزل سنة **24** بالمعتمد ابن السلطان. ثم عزل المعتمد سنة **34** فصارت ولاية بجاية إلى الموالي.

وفي سنة **37** ولى محمد الرابع على قسنطينة أخاه عثمان، وعلى بجاية عمه علي بن عزوز. ثم قلد عثمان حرب أبي زكريا بن الأمير محمد دفين بتيتة الذي أثار عليه العرب بوطن تونس فأناب عثمان موإليه بقسنطينة إلى أن أفضت غليه الخلافة سنة **39**.

ونافس عثمان عمه علي أمير بجاية. فدعا لنفسه. وحاصر قسنطينة نحو شهر. امتنعت عليه وتوجه نحو تونس. ومعه عيسى ابن محمد شيخ الذواودة فوفد على السلطان عثمان سباع بن محمد من شيوخ الذواودة أيضا. وكثرت جموع الأمير علي والتقى بالسلطان على سراط شرقي سوق هراص في ربيع الأول سنة **840** وكان النصر في جانب الأمير علي، ثم انهزمت جموعه ونجا بنفسه إلى بجاية وغنم معسكره وعاد السلطان من المعركة إل تونس وفي آخر العام قصد بجاية، فرده بنو سيلين وعاد إليها سنة **43** فدخلها في جماد الثانية بعدما فر منها الأمير علي. فولى عليها عبد المؤمن ابن عمه احمد. واغتاله بنو سيلين سنة **46** فخلفه أخوه عبد الملك.

وفي سنة **50** دخل الأمير علي بجاية عل حين غفلة من قائدها. وأقام بها عشرين يوما وأزعجه السلطان عنها إلى الجبال. فبقي يجلب عليها إل سنة **56** فاستراب بأهل وطن حمزة. وتحول عنهم إلى سعيد ابن عبد الرحمن السيليي صهر محمد بن عبد كبير بني سيليين. وخرج السلطان لحسم دائه. فاتفق محمد بن سعيد مع أحمد بن عي الذواوي على الغدر بالأمير علي. وأخبر قائد قسنطينة. فالتزم له قبول كل ما يطلبه ان هو قبض عليه، ثم أعلم صهره بما عقده مع القائد. فكبر عليه الغدر بنزيله. فلم يزل به حتى وافقه. فقبضا عليه وبعثا إلى قائد قسنطينة. فأتاهما. وأمكناه منه فأرسل إلى السلطان وهو في طريقه. فبعث شيخ الموحدين محمد بن أبي هلال ليتسلم الأمير عليا من القائد. فتسلمه بايكجان يوم عيد الفطر، وتوجه به إلى السلطان. ثم خشي هذا الشيخ ان يفتك العرب منه الأمير.

فقتله ليلة الثالث من شوال ودفن جثته. وبعث برأسه إلى السلطان. واستمر السلطان في سيره إلى بجاية، وأرسل إلى صاحبها عبد الملك بمقابلته، فتلكأ وخشي السلطان ثورته، فتلطف له. وأرسل إليه قاضي المحلة والفقهاء والمرابطين، فقدم معهم إلى السلطان وهو بأبي بحاب قريبا من جبل أولاد رحمة، ومن الغد قيده، وانصرف به إلى تونس وولى على بجاية قائدا من الموالي، وأصبحت الجزائر الحفصية للموالي.

وفي سنة **59** توجه السلطان إلى بجاية لتمهيد ساحتها وقبض قرب ميلة على أبي بكر بن الأمير عبد المؤمن لأن أهل بجاية قصدوا تقديمه عليهم لسابقة ولاية أبيه وعمه، فرده إلى تونس، وتوجه نحو بجاية، فتلقاه أعيانها بالطاعة، فولى عليهم ابنه عبد العزيز، وانصرف إلى حضرته، فلما بلغ قسنطينة أضاف إلى قائدها بسكرة وتقرت.

وفي سنة **66** خرج السلطان إلى تلمسان. واستولى في طريقه على قلعة حليمة من جبل أوراس. وقفل من تلمسان في صفر سنة **67**. فعقد في طريقه على قسنطينة لحافده محمد المنتصر بن محمد المسعود.

وبقي عبد العزيز والمنتصر على ولايتهما سنين ولكنا نجهل خاتمتهما ومن خلفهما. وآخر وال حفصي بالجزائر الحفصية – فيما أعلم – هو احمد بن الحسن. ولي بونة أيام أبيه إلى ان نبذ أهل تونس للحسن عهده، فبايعوه مكانه سنة **943** ولا نعلم للحفصيين بعده نفوذ إداري بالجزائر.

وإن من ولاة الجزائر الحفصيين من ارتقى إلى عرش تونس أو ادعى الخلافة فتغلب على تونس أو عجز عنها، وهذا جدول الأقسام الثلاثة:

المرتقون إلى تونس	المتغلبون على تونس	المبايعون بالجزائر فقط
عمر الأول	ابراهيم الأول	عبد العزيز بن ابراهيم الأول
خالد الأول	أبو يحي أبو بكر	أبو بكر بن أحمد الأول
أبو عمر عثمان	ابنه الفضل	علي بن السلطان عزوز
أحمد الثاني	أحمد الأول	

رؤساء القبائل:

كانت رئاسة البوادي بالجزائر الحفصية لشيوخ من القبائل القوية، وقد مرت أخبار العرب في بابها، وأظهر المعاصرين لهم من البربر هم مليكش وزواوة وصنهاجة وسدويكش وبنو تليلان وريغة وورقلة.

وكان مليكش مستعلين بمتيجة على الثعالبة، وهم تابعون لوالي الجزائر يستقيمون باستقامته وينحرفون بانحرافه. ورفع مترلتهم أبو زكريا يحي الأول فعقد لشيوخهم منصور سنة **640** ومنحه أبهة الملوك مزاحمة ليغمراسن بن زيان، ومر به العبدري سنة **89** فرماه باللؤم والبخل وكمل نقيصة ولكنه شاعر لا تؤخذ عنه الحقائق التاريخية ولم تزل رئاسة متيجة لبني منصور حتى غلب على الجزائر أبو حمو الزياني سنة **712** ففروا إلى الحفصيين، وأخذ الثعالبة بعدهم في الظهور.

وكان من زواوة بنو يراتن ذوي سيادة، ورئاستهم في بني عبد الصمد، وشاخت منهم عجوز اسمها شمسي، لها عشرة بنين عظم أمرها

بهم، ونزل عليها ابن هيدور من خدام أبي عبد الرحمان ابن أبي الحسن المريني مدعيا أنه عبد الرحمن وداعيا إلى الثورة على أبيه، وأبو الحسن يومئذ بمتيجة، فسرب الأموال في بنيها وقومها، فأجارته وقامت بدعوته حتى تبين كذبه، فنبذته ولحق بالذواودة.

وكانت عمدة بجاية جنود صنهاجة، ولها اقطاعات بنواحي ولكبرائها مكانة في الدولة، فكان يعقوب بن خلو منهم يلقب المزوار ويستخلفه ببجاية أبو زكريا المنتخب، ومات فخلفه ابنه عبد الرحمن واستخلفه خالد الأول لما نهض إلى تونس سنة **709** فثبت على ولائه له لما دعا أبو بكر بقسنطينة لنفسه، فزحف له أبو بكر وكانت بينهما معركة، وعاد أبو بكر إلى قسنطينة مفلولا. وانتهبت صنهاجة معسكره واتبعته إلى ميلة وحاصرته بقسنطينة أياما ثم عادت إلى بجاية.

وفي هذه المدة ظهر ابن اللحياني بطرابلس محارب لخالد الأول فوصل أبو بكر يده به وأوفد عليه حاجبه ابن غمر. وتظاهر بنكبته، فصادر منازله وسطا بحاشيته، فعل ذلك كيدا لابن الخلوف، واستيقن ابن الخلوف اختلال أمر خالد وطمع في حجابة أبي بكر، وسفر بينهما عثمان بن سباع الذوادي وغيره فأحكموا السلم بينهما وعهد أبو بكر بحجابته لأبن الخلوف، وارتحل إلى بجاية سنة **712** فلقيه ابن الخلوف بفرجيوة، ومن الليل غدر به أبو بكر، فقتله وأخذ السير إلى بجاية، فدخلها على حين غفلة، وغضب عثمان بن سباع وصنهاجة لهذه الخيانة فوصلوا أيديهم بابي حمو الأول الزياني.

ومن زعماء صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج. ثار سنة **753** على مرين المحتلين ببجاية ولكن كبار البجائيين خشوا سطوة أبي عنان فبعثوا إليه بطاعتهم واخرجوا منصورا وحزبه من المدينة فتفرقوا في الجهات ولحق كبراؤهم بتونس، ثم كانت لصنهاجة كرة أخرى على يد أحمد بن القاضي لما تقلص ظل الدولة الحفصية عن الجزائر وظهر بها لأتراك.

وكان بنو تليلان ممتنعين بجبلهم الممتد شمال ميلة وقسنطينة إلى أن غلب الموحدون على إفريقية فوفد شيخهم أبو بكر على الخليفة بمراكش وتقرب إليه بفرض المغرم على جبل قومه وثبت عقبه على الولاء لدولتي الموحدين وبقوا على رئاستهم بالجبل. وعرفوا بأولاد ثابت وسمي الجبل بهم. ويظهر ان جبلهم هو المدعو اليوم سقاو، بقاف بدوية مخففة قبالة ميلة. فإن سقاو كثير المياه والثمار وبه آثار حصون مدهشة، وقد قال يحي بن خلدون: «**فتح أبو حمو الزياني ميلة آخر شوال سنة 758 وأصمد قومه رابع يوم فتحها إلى جبل بني ثابت**»**اهـ**.

ومن بني ثابت حسن بن ابراهيم بن أبي بكر بن ثابت. ولاه أبو بكر حجابته لما خرج إلى بجاية سنة **712** وأناب بقسنطينة أخاه عبد الله. ثم عاد ابن غمر من وفادته على ابن اللحياني. فسعى فيهما لدى أبو بكر كي يخلو له وجهه فقتل عبد الله بفرجيوة سنة **13** وكان أخوه حسن قد خرج لجباية الوطن. فأوعز أبو بكر بقتله إلى عبد الكريم ابن منديل

السدويكشي، فقتله بوادي القطن. وهو واد شرقي ميلة قريب منها يصب في وادي قسنطينة.

قال ابن خلدون: «**وكان آخرهم رئاسة بالجبل علي. أدرك دولة بني مرين بإفريقية وولى بعده ابنه عبد الرحمن ووفد على أبي عنان بفاس ولما استجد السلطان أحمد حفيد أبي بكر دولته بإفريقية استولى عليهم ومحى أثر مشيختهم ورئاستهم وصيرهم في عداد جنده وحاشيته واستعمل في الجبل عماله»1هـ.**

وبقية بني ثابت مساكنون اليوم لقبيلتنا أولاد مبارك. وهم قليلون يدعون الشرف الشرعي شأن الأسر التي فقدت الشرف الحربي.

وكانت رئاسة سدويكش في أولاد سواق ثم في بني سيلين. ومواطنهم في عمل بجاية. وقيتهم بنو ورار بتخفيف الراء هي آخر ذلك العمل. وربما دعيت بني وراء أو بني ياورار أو تاوريت. وهي في آخر وطن فرجيوة غربا بقربها أنقاض مدينة إيكجان وبمقربة من أنقاضها اليوم قرية بني عزيز وكانت تمر بها الطريق من قسنطينة إلى بجاية فذكرها أديب قسنطينة علي بن الفكون في نظم رحلته إلى مراكش بقوله:

وكم أورث ظباء بني ورار   أوار الشوق بالريق الشهي

وجمع العبدري بينها وبين ميلة. فقال في رحلته:

«**ثم وصلنا إلى بني ورار ثم إلى ميلة فلم نر إلا رسوما بحوادث الدهر محلية. وكلاهما على شكل مدنية ليست بثمينة ولا متينة عمل**

البلى فيهما وفي السكان وأدخل الجميع في خبر كان. وفي كلتيهما عين تسح وعنصر يجود ولا يشح وبنو ورار أعمر المحلين وعينهما أغزر العينين»1هـ. واليوم بنو ورار خراب وميلة تزل عامرة.

وكان رئيس أولاد سواق علي بن علاوة بن سواق ثم أبناءه طلحة فيحي فمنديل الذي عزله أبو بكر، وأدال من بني علاوة بني عمهم أولاد يوسف بن حمو بن سواق. فلحق بنو علاوة بجبل عياض. ثم كانت لهم كرة أيام أبي عنان. فعقد على سدويكش لمهنا بن تازير ابن طلحة. ولكن قتله أولاد يوسف. فعاد بنو علاوة إلى جبل عياض. ورأس عليهم عدوان بن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة. ثم علك وافترق بعده أمرهم. وبقيت رئاسة سدويكش لأولاد يوسف.

قال ابن خلدون: **«ويرادف أولاد سواق في الرئاسة على بعض أحياء سدويكش بنو سكين. ومواطنهم جوار لواتة بجبل بابور وما إليه من نواحي بجاية. ورئاستهم في بني موسى بن ثاير. أدركنا ابنه صخر بن موسى. واختصه السلطان أبو يحي بالرئاسة على قومه. وكان له مقامات في خدمته. ثم عرف بالوفاء مع ابنه الأمير أبي حفص. فلم يزل معه إلى أن أوقع به بنو مرين بناحية قابس. فقطعه السلطان أبو الحسن من خلاف. وهلك بعد ذلك. فخلفه ابنه عبد الله. وكان له شأن في خدمة صاحب بجاية وهلك أعوام الثمانين. فخلفه ابنه محمد. وهو لهذا العهد»1هـ.**

ويظهر أن سكين محرف سيلين. فإن الموطن لبني سيلين، وبني صخر معروفون برئاستهم. وكان لهم أيام السلطان أبي عمر عثمان تغلب على وطن بجاية. وأعفوا ذكر أولاد يوسف. ففي سنة **840** نازل السلطان نفسه عبد الله بن عمر بن صخر. ولم ينل منه حتى قتل غدرا سنة **43** وحملت رأسه إلى السلطان. وفي سنة **46** قتل محمد ابن يحيى السيليني عبد المؤمن بن احمد والي بجاية. وعظم صيت محمد بن سعيد من بني صخر من بعد. وإختلفت حاله مع السلطان ولاء وعداء. فنقله وأهله سنة **64** إلى تونس. ثم سرحه سنة **67** فأثار عليه محمد المتوكل سلطان تلمسان سنة **70** وكان يدعو له من قبل. وقد انقطعت عنا أخبار شمال الجزائر الحفصية بعد المراكشي الذي انتهى إلى أيام أبي عمر عثمان. أما الجنوب فكانت به لورقلة وريغة رئاسة. وربما قطعتها الدولة. فتجددت بعد حين. ولم تزل الإمارة بورقلة وتقرت حتى العصر التركي.

قال ابن خلدون ما ملخصه: «**اختطت ريغة ما بين الزاب وورقلة قرى كثيرة في عدوة وادي ينحدر من الغرب إلى الشرق منها المصر الكبير والقرية المتوسطة والاطم. قد نضدت حفافيها النخيل وانساحت خلالها المياه**».

«**وكان وادي ريغ من عمل الزاب وفي أقطاع الذواودة. فكثيرا ما يعسكر عليهم ابن مزني أو الذواودة لاقتضاء الجباية، وأكبر تلك الا أمصار تقرت. مصر مستبحر العمران بدوي الأحوال كثير المياه**

والنخل، وكانت رئاسته لعبيد الله بن يوسف بن عبد الله ثم لأبنائه داوود فيوسف فمسعود ثم الحسن بن مسعود ثم ابنه احمد شيخها اليوم، وتماسين دون تقرت في العمران والخطة، ورئاسته لبني ابراهيم من ريغة أيضا وسائر أمصار ريغة كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره».

«وورقلة اختطوا المصر المعروف بهم، ودخله أبو زكرياء الأول في مطاردته لابن غانية، فزاد في تمصيره، واختط مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة، ونقش في الحجارة اسمه وتاريخ وضعه، وهو باب أهل الزاب إلى السودان».

«ويعرف رئيسه باسم السلطان شهرة غير نكيرة بينهم، وهو اليوم أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي غبول، فخذ من بني واكير إحدى بطون بني ورقلة، ورئاستهم متصلة في عمود هذا النسب، وكان يوسف بن عبيد الله صاحب تقرت تغلب على أبي بكر أزمان حداثته»اهـ.

وقال الزركشي ما ملخصه: «كان يوسف بن حسن من بيت مشيخة تقرت قد منع جبايته لأول دولة أبي عمر عثمان، فخرج إليه سنة 53 وحاصره وقطع النخيل، ودافعه يوسف أياما حتى عجز، فدخل عليه المدينة، وقدم عليها قائدا من قبله، واخذ يوسف وولده وأخاه وعمه وأهله فاعتقلهم بتونس. ثم بلغه خلاف أهل تقرت، فخرج إليهم

آخر سنة 69 وأغرمهم مالا وهدم سور البلد، وقدم عاملا بورقلة، وأخذ منها ومن مزاب مالا جليلا، وقفل فدخل تونس في رجب سنة 870»1هـ.

الحفصيون وزناتة:

أهل الشوكة من زناتة لأول القرن السابع هم مرين وعبد الواد وتوجين ومغراوة، والعداوة بين المتجاورين منهم متأصلة، ولتوسط عبد الواد بينهم وعلو كعبهم في الملك تواطؤا على عدائهم.

ولما استقل الحفصيون بتونس ودوا لو يملكون مراكش فيكونوا بين قومهم المصامدة، ولكن دون ذلك زناتة ذات الكثرة والميزة الحربية. فاخذ أبو زكريا الأول يستميلهم بالرغبة والرهبة، وبايعته مغراوة سنة **32** وحاربته توجين. ففتح حصونها، وأسر أميرها عبد القوي بن العباس، فاعتقله بتونس، ثم من عليه استئلافا له.

وبهذا الفتح جاور أبو زكريا بني عبد الواد. فضاعف الرشيد خليفة مراكش إحسانه ليغمراسن وأتحفه بأنواع الهدايا، فخلصت موته له وأصبح شجا في حلق التوسع الحفصي وعقبه كأداء في سبيل الخطة التي رسمها أبو زكريا لفتح مراكش.

وفي سنة **39** وفد على أبي زكرياء عبد القوي التوجيني وبعض بنو منديل المغراويين، واستحثوه لحرب يغمراسن؛ فسرحهم أمامه لاحتشاد

زناتة وأحلافهم من زغبة. وجمع هو جموعه عربا وبربرا. فبلغت فرسانه أربعة وستون ألفا. وخرج في شوال. فوافته زغبة بزاغر. ووجه من مليانة على يغمراسن يطلب بيعته فأبى، فنزل على تلمسان آخر المحرم سنة **40** وعجز يغمراسن عن دفاع ذلك الجيش العرمرم، فخرج في أهله وذويه وخاصته من باب العقبة، وأجلى الموحدين من سبيله، ولحق بالصحراء.

ودخل أبو زكريا تلمسان في ربيع الأول وقبض أيدي الجند عن النهب. وعرض ولايتها على شيوخ الموحدين وكبراء زناته، فتدافعوها خشية من يغمراسن. وجاءته الرسل ببيعة يغمراسن ومظاهرته له على بني عبد المؤمن على ان يترك له تلمسان، فقبل مسرورا، وأوفد يغمراسن أمه سوط النساء لأحكام العقد. فتمت السلم على يدها بعود ابنها إلى تلمسان مستقلا بماليتها ومعانا بجباية بعض أعمال إفريقية مبلغها السنوي مائة ألف دينار.

ولكي يحافظ أبو زكرياء على خضوع يغمراسن أقام في قفوله من منافسيه عبد القوي التوجيني والعباس المغراوي ومنصور المليكشي ملوكا مناهضين وولى المستنصر بمليانة محمد بن منديل المغراوي سنة **59** بعدما فتحها من يد أبي علي بن أحمد الملياني الثائر بها، ثم خرج المستنصر إلى المسيلة سنة **64** فوفد عليه محمد بن عبد القوي التوجيني مجددا طاعته، فنصب له فساطيط القطن والكتان وجند له جياد الخيل بمراكبها المذهبة ولجمها المحلاة وأكثر من المال والظهر والكراع والسلاح وأقطعه جباية مقرة وأوماش.

وبقيت عبد الواد على مبايعتها للحفصيين وفي باطنها ما فيه لتقديتهم أعدائها مغراوة وتوجين عليها، ففي سنة **666** فرت رياح أمام المنتصر إلى عبد الواد. فأعانوها على استرجاع وطنها، ورددوا الغارات على توجين ومغراوة. ففتحوا مليانة سنة **68** ولمدية سنة **87** واستولوا على مواطنهم تدريجا. فلحق أعيانهم ببجاية وتونس، وكان منهم جند هو شوكة الجيش الحفصي، وما أتى القرن الثامن حتى انحصرت شوكة زناتة في عبد الواد ومرين.

فأما مرين فقد خشيت من مبايعة يغمراسن لأبي زكريا سنة **40** أن يظاهره عليها، فبعثت له بالطاعة وبيعة ما تفتحه من المدن ووعدته العون على فتح مراكش وأمدها المستنصر لما توجهت إلى مراكش بالمال والخيل والسلاح، فلما فتحتها خطبت له بها زمنا، ثم استغلظ ملكها فقطعت الدعوة الحفصية، وبقي بين الدولتين مهاداة وروابط ودية، وتأكدت بالمصاهرة، ففي سنة **730** أوفد أبو يحي أبو بكر ابنه أبا زكرياء وشيخ الموحدين عبد الله بن تافراقين على أبي سعيد سلطان مرين مستنجدا به على أبي تاشفين الأول، فوعده المظاهرة. وخطب فاطمة شقيقة أبي زكرياء لابنه أبي الحسن. فزفت إليه سنة **31** وقتلت في واقعة طريف سنة **41** فخطب أبو الحسن بعدها لنفسه أختها شقيقة الفضل سنة **46** وزفت إليه سنة **47**.

وأضعف الحفصيين الثورات والفتن وألحت عليهم عبد الواد بالغارات. فتحركت مرين لنصرة الحفصيين حتى إذا غلبت على تلمسان

وجاورت الحفصيين أربى أضرارها بهم على عبد الواد. ففي سنة 699 كانت واقعة جبل الزان بين مرين وأبي زكريا المنتخب انهزم فيها. ومات بها خلق كثير حتى سمي المعترك «**موسى الرؤوس**». وفي سنة **701** خرج أبو يحي أخو السلطان يوسف المريني إلى بجاية. فضايقها. وبلغ تاقرارت من وطن سدويكش. وخشي أبو عصيدة على ممالكه. فصانع السلطان يوسف. وأوفد عليه رسله سنة **703** لتجديد عهد الصلة بين الدولتين. واقتفى أثره خالد أمير بجاية. وأوفد رسله أيضا سنة **704** فانقبضت مرين يومئذ عن بجاية إلى سنة **48** حيث استولى أبو الحسن على تونس ومحا الدولة الحفصية. ثم ثار عليه العرب بإفريقية وابنه عنان بالمغرب. فاضطر لتسليم الممالك الحفصية فعادت إلى أهلها سنة **750**.

وفي سنة **53** ملك أبو عنان تلمسان. ونزل لمدية فوفد عليه أمير بجاية أبو عبد الله محمد. وكانت بينهما صداقة منذ كان في منفاه بندرومة. فشكا إليه سوء طاعة جنده وبطانته وامتناع رعيته من الجباية، فكلف أبو عنان من يزين له النزول عن بجاية واستبدال بعض ولايات المغرب بها، فتنازل عنها لأبي عنان على أن يلي مكناسة فلم يف له بعهده.

وبامتلاك أبي عنان بجابة فتح باب شر على قسنطينة فوإلى عليها غاراته إلى أن اشتد مرضه بفاس وظن وزراؤه هلاكه منه. فكتبوا إلى عبد الله الياباني سنة **57** بالإقلاع عن قسنطينة وارجف بموت السلطان فأحرق عبد الله مجانيقه. وارتحل لا يلوي على شيء، وكان القائد موسى بن

ابراهيم بوادي القطن. فسرح إليه أبو العباس أحمد أمير قسنطينة أخاه زكريا. فبيته في ذي الحجة وقتل طائفة من أركان جيشه، وأبل أبو عنان من مرضه، فآسفته هذه الواقعة، وخرج بنفسه إلى قسنطينة، فاستولى عليها، وفتحت قواده تونس، وخرج سلطانها ابراهيم الثاني، فجمع جموعه، وقصد أبا عنان، فبلغ فحص تبسة، ولكن مرين تسللت إلى مغربها، فاضطر أبو عنان إلى العودة ، فانكفأ ابراهيم إلى تونس، وطرد منها مرين، وكل ذلك سنة **58** وأعاد أبو عنان جيوشه إلى إفريقية سنة **59** فلم تتجاوز عمل بونة، وبعد موته خرجت مرين من الممالك الحفصية، فلم تطأها بعد، وعادت الكرة للحفصيين، فطمع سلطانهم عزوز سنة **827** في فاس حتى دافعه صاحبها عبد الحق ببيعته.

وأما عبد الواد فقد أغضبها الحفصيون بتقوية مغراوة وتوجين عليها وأطمعها الجوار في ممالكهم، فأخذت تدبر لهم الثورات وتردد عليهم الغارات حتى ملكت عليهم كثيرا من أعمال ببجاية، وطمعت في فتح بجاية نفسها، وحافظت أولا على الدعاء لهم حتى وإلى أبو عصيدة السلطان يوسف وهو محاصر لها بتلمسان فقطع أبو زيان الأول دعوتهم إلى أن دخل السلطان عزوز تلمسان سنة **827** فبايعه صاحبها.

وفي سنة **677** قدم ابراهيم بن أبي زكرياء الأول من الأندلس طالبا للخلافة بتونس، فنزل على يغمرا سن، فبايعه ووعده المظاهرة على شأنه، وخطب منه ابنته لابنه عثمان، فزفت إليه من تونس سنة **81** ولما قتل أيام الدعي فر ابنه أبو زكريا إلى صهره عثمان، فأكرم مثواه، ثم بويع بتونس

عمر الأول، فوفد على أبي زكريا من حرضه على الثورة عليه، فلم يأذن له صهره عثمان. فتظاهر ذات يوم بالصيد. ولحق بالعرب الذين أعانوا على امتلاك بجاية. وأصبح بغير على تونس. فاستاء عثمان. وجدد بيعته لأبي حفص عمر فطلب منه أشغال أبي زكريا عنه بالغارة على بجاية. فحاصرها عثمان سنة **86** سبعة أيام، فاضطر أبو زكريا لترك إفريقية. وأقلعت جيوش عثمان إلى تلمسان. فلما ولي أبو عصيدة أجلب على أبي زكرياء. فتوسل إلى عثمان بالصهر. وعقد معه سلما. تفرغ لدفاع أبي عصيدة.

واشتد طلب عبد الواد لبجاية أيام أبي حمو الأول وابنه أبي تاشفين. وانتهى أيام أبي حمو الثاني. ففي سنة **709** استخلف خالد الأول على بجاية عبد الرحمن بن خلوف. فحاربه أبو حمو. واستولى على دلس سنة **12**. وأرسل إليه سنة **710** صاحب قسنطينة أبو بكر مولاه سعيد بن يخلف في اتصال اليد على ابن الخلوف. ثم قتله أبو بكر ودخل بجاية. فوفد على أبي حمو صنهاجة وأولاد سباع بن يحي مغرين له بابي بكر. فادعى عليه انه شرط بجاية لنفسه لما وفد عليه مولاه سعيد. وجهز الجيوش لحصارها. ثم جاوزها ففتحوا جبل ابن ثابت سنة **13** وبلغوا بونة. وحاصروا قسنطينة. وشيدوا في قفولهم حصنا بأصفون لحصار بجاية. فهدمه أبو بكر سنة **14**. وأعاد غارته سنة **15** لكن ثورة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن اضطرته إلى استرجاع جنوده. فشغل بها حتى هلك.

ووصل أبو بكر يده بمحمد بن يوسف وسوغه سهام يغمراسن بإفريقية .ثم قتله أبو تاشفين الأول سنة **19** وتفرغ للغارة على بجاية وما وراءها شرقا كل عام فيما بين سنتي **19**– **32** وابتنى في طريقها على واديها الحصون. وشغل أبا بكر بأطماع ذوي قرابته في ملك تونس. فأسس حصن بكر سنة **21** ونزل عليه أبو ضربة سنة **32** طامعا في استرجاع ملكه. فجهزه بما يحتاج اليه. فهزمه أبو بكر برغيس بين بونة وقسنطينة. فعاد إلى تلمسان وبها مات. ثم نزل عليه ابراهيم بن أبي بكر بن عبد الرحمن الحفصي سنة **24** فأعانه أيضا بالجنود والقواد وانحصر منهم أبو بكر في قسنطينة. فدخل ابراهيم تونس في رجب سنة **25** وأقلعت عبد الواد عن قسنطينة فخرج أبو بكر واسترجع تونس في شوال. وفي سنة **26** اختط بخميس تيكلات حصنا أعظم من حصن بكر واقرب منهم إلى بجاية. وسماه تيمززدكت باسم الحصن الذي قتل عليه الخليفة السعيد سنة **646** وشحنه بالرجال والأقوات والذخائر. وقصدته جيوش أبي بكر سنة **27** فانهزمت شر هزيمة. وبني سنة **29** حصنا آخر بالياقوتة قبالة بجاية. وسرح سنة **30** محمد بن أبي بكر بن أبي عمران الحفصي لامتلاك تونس. فهزم أبا بكر بالرياش من ناحية مرماجنة. ودخل تونس في صفر.

ونجا أبو بكر إلى بونة. وركب البحر إلى بجاية، وأوفد ابنه أبا زكريا على أبي سعيد المريني. فوعده الإعانة. ولكن أبا بكر استعاد تونس في رجب ثم توفي أبو سعيد وخلفه ابنه أبو الحسن. فخاطب أبا تاشفين في

الإقلاع عن بجاية. فرد شفاعته فنهض إليه سنة **32** ونزل بتسالة وبعث المدد في البحر إلى بجاية. وجاء ابو بكر من تونس وسرح السرايا من بجاية لتخريب الحصون المقامة لحصارها وقد انقبضت عنها الحامية إلى تلمسان، فخربها وغنم ذخائرها وزحف إلى المسيلة موطن أولاد سباع شيعة عبد الواد. فخرب أسوارها. وقفل إلى تونس في شوال ولم يجتمع بأبي الحسن الذي شغل عن تلمسان بثورة أخيه أبي علي.

ولما استولى أبو عنان على تلمسان سنة **53** نجا أبو حمو الثاني إلى تونس وصحب ابراهيم الثاني وأعانه على إخراج مرين من ميلة وجبل بني ثابت في شوال سنة **58** ثم استقر ابراهيم ببجاية وملك أبو حمو تلمسان ففر بعض مغراوة إلى ابراهيم وحماهم من أبي حمو فساء ما بينهما فأغار أبو حمو على بجاية سنة **63** وفتح تدلس وحمزة وبني حسن ثم جهز أبا عبد الله أمير بجاية الأقدم سنة **64** ففتح بجاية سنة **65** ونكر جميل أبي حمو وهو يومئذ مشغول بالفتن. فاخرج قائده من تدلس فسرح إليه جنده سنة **66** فعجزوا عن فتحها. ولكن الأمير محمدا جذبه ابن عمه احمد صاحب قسنطينة من خلفه وأغار على عمله. فاضطر إلى موالاة أبي حمو وأعاد له تدلس. وزوج منه ابنته، فزفت إليه سنة **67** وفيها قتل أحمد الامير محمدا وملك بجاية. فتظاهر أبو حمو بالانتصار إلى صهره وخرج إلى حربه في جموع من قبائل بعضها منحرف عنه. وكان مع الأمير أحمد أبو زيان بن عم أبي حمو. فأثاره عليه. ومالت إليه مرضى القلوب. فانهزم أبو حمو شر

هزيمة خامس ذي الحجة. وشغل بثورة ابن عمه. فلم يطأ جيشه تراب بجاية بعد.

وضعفت زناتة آخر القرن الثامن. فعادت الكرة للحفصيين. وفر أبو حمو من ابنه أبي تاشفيين وطلب من قائد أسطول بجاية النزول. فأنزله ببستان الرفيع سنة **89** وجاء الأمر من الخليفة أحمد الأول محاربه بالأمس بإكرامه وإمداده على استرجاع ملكه من ابنه .فاسترجعه سنة **90** وفتح عزوز تلمسان سنة **827** وولى بها محمد بن أبي تاشفيين الثاني. فقطع بيعته من بعد. فحاربه وأعان عليه عمه عبد الواحد فأخرجه من تلمسان سنة **31** ثم قتل الامير محمد عمه سنة **33** فخرج إليه عزوز سنة **34** ففتحها وولى بها أحمد بن أبي حمو. ونقل معه الامير محمدا. فاعتقله بقصبة تونس إلى ان توفي ونقض أحمد بيعته فخرج إليه سنة **37** ولكنه توفي أثناء سيره لبولجة السدرة حيث عيين الزال قرب وانشريس. فعاد جيشه بشلوة. وفي أيام أبي عمر عثمان تكررت الهدايا بينه وبين صاحبي فاس وتلمسان. ثم تغلب على تلمسان محمد المتوكل سنة **66** فخرج إليه أبو عمر. وعاد ببيعته. ثم نقضها ووصل يده بأعداء أبي عمر من الذواودة وبني سيلين. فخرج إليه أبو عمر سنة **70** وخضعت له في طريقه المدن والبوادي. وبلغ تلمسان في ربيع الثاني سنة **71** وبعد قتال شديد عاد المتوكل إلى الطاعة وأنكح ابنته دون خطبة حافد السلطان أبا زكريا يحي بن محمد المسعود وقفل السلطان إلى تونس في شعبان. وضعفت بعده الدولة الحفصية فلم يكن بين الحفصيين والزيانيين ولاء ولاعداء إلى أن ملك الأتراك الجزائر.

فعادت بين الدولتين المحتضرتين مخاطبات في الاتحاد على الأتراك لم تأت بثمرة .

والأخبار التي قصصناها تدل على أن عظمة زناتة أضرت بالحفصيين وعظمة الحفصيين أضرت بزناتة وان قوتيهما لم تجتمعا في عصر واحد. ولعل السر في ذلك أن إفريقية الشمالية لا تحتمل أكثر من دولة واحدة، ولاتصلح إلا بإدارة قوية متحدة مثل الإدارة المؤمنية.

سقوط الدولة الحفصية:

عرفت الدولة الحفصية في حياتها دور الصعود والعظمة إلى خلع الواثق. ثم دور الاضطراب والفتن إلى خلافة أحمد الأول .ثم دور الانتعاش إلى موت لأبي عمر عثمان. ثم دور الاحتضار إلى قبض الأتراك على محمد السادس. ومن غرائب الاتفاق ان الدولة العثمانية التي حلت محل الحفصيين انتهت أيضا بخلع محمد السادس وحيد الدين.

وليس لخلفاء هذا الدور الأخير كبير نفوذ بالجزائر. وكان من أمرائهم بقسنطينة عبد العزيز. وعلى عهده احتلت اسبانيا بجاية ودلس والجزائر سنة **915** (**1510**م) من غير مقاومة حفصية. وانتقل عبد العزيز إلى قلعة بني عباس لمضايقة بجاية. وبها توفي سنة **966** وهي قلعة حصينة جنوبها سهل مجانة الغني وتهيمن على الطرق الرابطة بين بجاية وقسنطينة والجزائر. وقلعة بني حماد بعيدة عنها إلى الجنوب الشرقي من برج بوعريريج. وهي في الشمال الغربي منه. وقد غلط صاحب تحفه الزائر.

فظنها إياها. وفي سنة **919** ملكت اسبانيا جيجل. والأمير الحفصي يومئذ بقسنطينة أبو بكر. وفي سنة **41** تنازل الحسن لها عن بونة. فتم خروج الجزائر من أيدي الحفصيين، ومدتهم بها ما بين سنتي **628- 941** ثلاث عشرة وثلاثمائة سنة. ومدتهم بتونس ما بين سنتي **627-981** أربع وخمسون وثلاثمائة.

وعلة سقوط دولتهم امتناع بداة العرب والبربر من الجباية، وقلة اهتمام الخلفاء بالدولة، وانقطاعهم إلى لذاتهم الشخصية، ووقوعهم بين دولتين عظيمتين هما اسبانيا غربا والعثمانيون شرقا.

ورائد العثمانيين إلى المغرب هو بربروس، كان معنيا بغزو مراكب النصارى البحرية ومدائنهم الساحلية، وأعجبه موقع تونس، فاستمال صاحبها محمد بن الحسن بالهدايا ومنحه خمس الغنائم، ونزل عليه. ولحقق به أخوه خير الدين، وكثرت أمواله وجنوده فهاجم بجاية وبقية السواحل التي ملكتها اسبانيا، وسر به الحفصيون والأمة، فوصل يده بابي بكر وعبد العزيز أميري قسنطينة والقلعة واستدعته كتامة لاسترجاع جيجل، فملكها سنة **20** واتخذها مركز حركته ثم ملك الجزائر سنة **22** وبعث بفتحها إلى السلطان سليم العثماني، فولاه بها، وكان ذلك أول قدم للدولة العثمانية بالجزائر.

واغضب صنيع بربروس الحفصيين، فوصلوا أيديهم بملوك تلمسان واستمالوا أحمد بن القاضي أعظم زعماء البربر يومئذ، ولم تفدهم هذه السياسة غير التشويش على الأتراك وتعطيل هجومهم على تونس.

وهنا نلخص عن القيرواني والدمشقي ما يبين حياة الخلفاء المتأخرين وموقفهم بين الأتراك والإسبان قال القيرواني ما ملخصه:

«لما ولي يحي بن محمد المسعود جاءته بيعة بلد العناب وقابس وصفاقس، ودانت له البلاد، وخرج أكثرها عن محمد بن أخيه، وملك الأتراك الجزائر واضطربت على ابنه الحسن البلاد، وخرجت عنه سوسة والقيروان، وملك الأتراك قسنطينة ودخلوا عليه تونس سنة 935 فاحتمى بملك إسبانيا، فأخرجهم عنه سنة 41 واستقدمت بطانة ابنه احمد علي باشا الجزائر، فملك تونس سنة 77 واستنجد أحمد اسبانيا، فاشترطت عليه شروطا أباها، وقبلها أخوه محمد، فأدخلوه تونس وفر عنها الأتراك ثانية إلى أن قدم الوزير سنان باشا من الاستانة في ربيع الأول سنة 81 واجتمع إليه الأتراك والعرب والبربر من الجزائر وتونس وطرابلس، ففتح برج الإسبان بحلق الوادي سادس جمادى الأولى ثم قلعه البستيون المتحكمة في تونس في الخامس والعشرين منه»1هـ.

وقال الدمشقي في أخبار الدول ما خلاصته: **«كان محمد بن الحسن مشتغلا باللهو والخمر مهملا لأمور الملك، وترك خمسة وأربعين ذكرا، خلفه منهم الحسن فقتل أخوته لم ينج منهم الا الرشيد وعبد المؤمن لغيبتهما، واشتغل بالخمور والفجور وجمع حوله أكثر من اربعمائه أمرد، فمالت عنه الأمة إلى الرشيد».**

«ولجأ الرشيد إلى خير الدين صاحب الجزائر. واستعان به على حرب أخيه. فشكاه الحسن إلى سلطانه سليمان. فاستقدمه، وأمره باستصحاب الرشيد ليمسكه عنده. ولكن خير الدين لما وفد عليه زين له امتلاك تونس ليتمكن من التحكم في البحر، وعرفه سخط الأمة على الحسن. فأذن له».

«وجاء خير الدين تونس. فكاد أهلها بأنه آتى بالرشيد. فملك المدينة. وفر الحسن إلى اخواله من العرب. ثم شعروا بالمكيدة. فأغار الحسن على تونس من غير طائل. ثم لحق بملك اسبانيا مسستنجدا. فاستقبحت الأمة فعل الحسن. وأخلصت لخير الدين. ولكن قوة اسبانيا كانت فوق الطوق. فانهزم خير الدين بعد حروب. ودخل ملك إسبانيا والحسن تونس حوالي سنة 40 ثم عاد الملك بنفائس الذخائر. وكثر عدد الإسبان بتونس، وابتنوا مدينة مسورة، وتضرر بهم عامة المسلمين».

«وثارت القيروان على الحسن. فخرج لإخماده. فقدم الناس بعده ولده حميدة (أحمد) ولحقق هو باسبانيا. واتى منها بعمارة حاصرت تونس. وبعد حروب انتصر حميدة. وأسر أباه. ثم تغيرت سيرته. فمد عينه إلى الحريم، وجمع حوله أكثر من ثلاثمائة بنت، فنكرته الأمة، وانتظرت خروجه لقتال العرب فاستقدمت علي باشا الجزائر، فاستولى على تونس في شوال سنة 78 (في غيره 77)».

«واستنجد حميدة اسبانيا. فأنجدته. وفتحت تونس، ولكنها ولت مكانه أخاه محمدا صورة من غير مال ولا رجال. والأمر كله للأسبان، وعاود الأتراك غزو تونس، فنزلوا عليها في ربيع الأول سنة 82 (في غيره 81) وبعد حروب شداد استولوا على تونس، وأسروا قائدها الإسباني وبعثوا بالسلطان محمد إلى الاستانة فانتهى به أمر الحفصيين» اهـ.

الباب السابع

في دولة بني مرين

بنو مرين:

بنو مرين قوم بداة كانوا أعزاء على الدولة المؤمنية. ودخل بهم كبيرهم عبد الحق بن محيو تل المغرب الأقصى سنة **610** على حين ضعف الدولة، وأعلن الحرب عليها سنة **13** وقتل سنة **14** فخلفه ابنه عثمان، وتغلب على الضواحي وكثير من القبائل، واغتيل سنة **37** فخلفه أخوه أبو معرف محمد، وقتل في حرب الدولة سنة **42** فخلفه أخوه أبو يحي أبو بكر، فبايع أبا زكريا الحفصي. واستولى على فاس. ومات سنة **56** فخلفه ابنه عمر. وخلع سنة **57** وبويع عمه يعقوب ابن عبد الحق. ففتح مراكش سنة **68** وتلقب بأمير المسلمين. فكان هو أول ملوك هذه الدولة المرينية. وأصبح لقبه شعار ملوكها.

وكانت مملكة بني مرين تشتمل على المغرب الأقصى وجهات من الأندلس الإسلامية غير تابعة لبني الأحمر ملوك غرناطة. وعاصمتها فاس. وعني الملوك الأولون برفاهيتها وسعادتها، فأقاموا العدل ورفعوا المكوس. وأعانهم غنى المملكة الطبيعي واتصالها بالأندلسيين العريقين في التمدن.

وللحكومة علاقات ودية ومهاداة مع دول مصر والسودان وتونس ولكن جوارها لدولتي تلمسان وغرناطة كان يحدث لها معهما مشاكل. وقربها من تلمسان جعل أيام السلم معها قليلة وكان بغرناطة جيش عظيم من مجاهدي زناتة يرأسه بنو عبد الحق من مرين. فربما تحكمت في دولة فاس. بما لديها من القرابة المرشحين للملك.

واقتفت الحكومة آثار الدول قبلها في النظم الإدارية والقضائية والمالية والحربية. وأيامها ظهر البارود. واستعمله يعقوب بن عبد الحق في حصار سجلماسة سنة **672** وصنع لابنه يوسف في حصاره تلمسان سنة **697** قوسا عظيمة بعيدة النزع توقر على أحد عشر بغلا. سموها قوس الزيار.

ولم يزل ملوك هذه الدولة عظاما حتى هلك أبو عنان منهم. فاختلفت حال من بعده قوة وضعفا. وربما تغلب على الأمر الوزراء، وقدموا للملك الصبيان صورة. وربما استقل عن صاحب فاس بعض منازعيه بسجلماسة ومراكش، فاختلت الأحوال واعتلت الدولة حتى أفضى الأمر إلى عبد الحق بن أبي سعيد عثمان فأقصى عن الحكومة بني وطاس. وولى رئاسة دولته هارون اليهودي وساء أثره في المسلمين فثاروا به وبسلطانه، وقتلوهما سنة **869** (**1465**م) وبايعوا محمد بن علي الادريسي، فانقرضت بذلك دولة بني عبد الحق وأن مضى برق الخلافة الإدريسية لكنه كان خلبا. فان محمدا الشيخ الو طاسي استولى على فاس سنة **876** وأعاد إليها ملك بني مرين. فلم يزل الأمر للوطاسيين إلى أن تغلب على فاس محمد

الشيخ السعدي سنة 961 (1554م) فانقرضت دولة مرين. وخلفتها دولة السعديين.

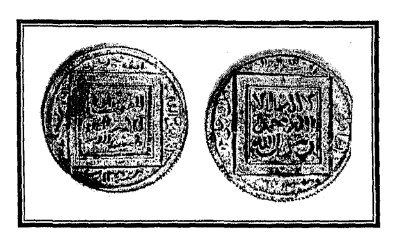
ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم رعايا...ولكن ماهن دوام

بنو عبد الحق

الملك	هـ م	الملك	هـ م
يعقوب بن عبد الحق		ابنه أبو زيان محمد الثاني	1372 774
ابنه يوسف	1259 657	أحمد بن ابراهيم بن أبي الحسن	1374 776
عامر بن عبد الله يوسف	1286 685	موسى بن أبي عنان	1384 786
أخوه سليمان	1307 706	أبو زيان الثالث بن أحمد	1386 788
عثمان بن يعقوب بن	1308 708	أبو زيان الرابع بن أبي الفضل بن أبي الحسن	1386 788
عبد الحق	1310 710	عود احمد بن ابراهيم	1387 789
ابنه أبو الحسن علي	1331 731	ابنه عبد العزيز الثاني	1393 796
ابنه أبو عنان فارس	1348 749	اخوه أبو عامر عبد الله	1396 799
ابنه أبو بكر السعيد	1358 759	أخوهما عثمان الثاني	1398 800
عمه ابراهيم بن أبي الحسن	1359 760	ابنه عبد الحق	1320 823
أخوه تاشفين	1361 762	السقوط	1465 869
أبو زيان محمد بن	1361 763		
يعقوب بن أبي الحسن	1366 768		
عبد العزيز بن أبي الحسن			

بنو وطاس

محمد الشيخ بن أبي زكريا	1472 876	احمد بن محمد البرتقالي	1526 932
ابنه محمد البرتقالي	1504 910	الاستيلاء السعدي الأول	1549 956
أخوه أبو حسون علي	1525 931	عود أبي حسون	1554 961



نقد مضروب بتلمسان في أحد وجهيه اسم "أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان" وفي الآخر "المتوكل على الله أمير المسلمين أبو عبد الله محمد"

بنو مرين بالجزائر:

الضغائن بين مرين وعبد الواد قديمة، ناشئة عن الجوار في الموطن ثم في الملك وعن المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة، فكثرت الحروب بينهما، وكان ملك مرين أعظم، فكان الفوز لهم غالبا، فلما احتضر يغمراسن أوصى خلفه بمسالمة مرين والتوسع في مملكة الحفصيين، لكن مرين التي لا يرضيها مقاسمة عبد الواد لها رئاسة زناتة كانت تتجنى عليهم تارة بأنهم آووا ثائرا عليها، ولم يكن يومئذ تسليم المجرمين السياسيين من الحقوق المقررة بين الدول، وأخرى بأنهم ردوا شفاعتها في مجرم سياسي من رعاياهم أو في تخلية سبيل الممالك الحفصية، فلم يكن في إمكان عبد الواد أرضاؤها، وكانت أيام السلم بينهما هي أيام اشتغالهما بفتن داخلية.

وقعت بين يغمراسن وأبي يحي واقعتا اسلي قرب وجدة سنة **684** وأبي سليط سنة **55** ثم وقعت بينه وبين يعقوب واقعة ناحية تازا سنة **57** واصطلحا سنة **58** ثم تحاربا بوادي تلاغ قرب ملوية سنة **666** وعزم يعقوب بعدها على فتح تلمسان، فتهيأ له يغمراسن، فمال إلى الصلح، لكن يغمراسن كتب إليه:

فلا صلح حتى نروي السيف والقنا
وتأخذ عبد الواد منكم بثارها.
وأشفي غليلي من مرين التي طغت
بسبي غوانيها وقتل خيـــارها.

فكانت بينهما واقعة اسلي سنة **70** انتصر فيها يعقوب، وحاصر تلمسان ثلاثة أيام وثلاثة أشهر، ووفد عليه محمد بن عبد القوي التوجيني، فاختلفت أيدي مرين وتوجين على العيث في ساحة تلمسان، ثم أقلعوا عنها، وانعقد الصلح بين الفريقين سنة **73** وانتقم يغمراسن من توجين.

ثم ان يعقوب عزم على الجواز إلى الأندلس، فأرسل إلى يغمراسن في تأكيد الصلح رسالة منها هذان البيتان:

فلتترك الناس إلى جهادهم مؤملين في حمى بلادهم

واقعد ولا تنهض إلى توجين فإنها في العهد مع مرين

فأحفظ يغمراسن حمايته لتوجين وهي من رعيته. ونقض الصلح. فكانت بينهما واقعة الملعب سنة **80** والملعب ميدان لعب الخيل باحواز تلمسان. وانهزم يغمراسن فانحصر بتلمسان أياما. وشاركت توجين مرين أيضا في أعمال الفساد، ثم عاد كل إلى مقره. وانتقم يغمراسن من توجين. وتوفي، وأوصى ابنه عثمان بمسالمة مرين، فعقد السلم مع يعقوب سنة **84**.

ثم آوى عثمان بعض الثوار على يوسف بن يعقوب، فخرج يوسف سنة **89** إلى تلمسان، وحاصرها ستة عشر يوما أصابت فيها أيدي الجيش نواحيها بالنهب والتخريب، ووفد ثابت بن منديل المغراوي على يوسف سنة **94** مستصرخا به على عثمان، فأرسل إليه بالشفاعة فيه، فردها عثمان، وخرج يوسف منتقما منه سنة **95** فحاصر ندرومة أربعين يوما، ثم حاصر تلمسان سنة **96** أياما ثم نصب عليها قوس الزيار في رجب سنة

97 وحاصرها ستة أشهر وأنزل جيوشه بوجدة للغارة على مملكة تلمسان.

وفي رجب سنة 98 خضعت ندرومة لبني مرين لإضرار غارات العسكر بها وفي شعبان نزل يوسف على تلمسان، وأقام محاصرا لها إلى ان قتله أحد خصيانه في ذي القعدة سنة 706.

وأعظم آفات الملوك عبيدها

وملكت مرين في هذه المدة كل مملكة تلمسان ما عدا المدينة ودخلت جيوشها مملكة بجاية، فملكت ندرومة وهنين سنة 98 ووهران ومستغانم ومزغران وتنس ومليانة سنة 99 والقصبات وبرشك وشرشال ووانشريس ومازونة والبطحاء وتامزقدت سنة 700 وتفرقينت ولمدية سنة 703 ولما قتل يعقوب رغب في الملك كل من أخيه أبي يحي وابنه أبي سالم وحافده أبي ثابت عامر، فراسل عامر بني عبد الواد في تخلية ممالكهم على ان يؤيدوه، ففعلوا، وتم له الأمر، ووفى لهم بالعهد، وبقيت السلم بين الدولتين إلى ان نقضها أبو سعيد عثمان، فأغار سنة 714 على تلمسان وبلغ الملعب، وعاثت جيوشه في الجهات قتلا ونهبا، وفتحوا معاقل بني يزناسن ثم عادوا إلى فاس.

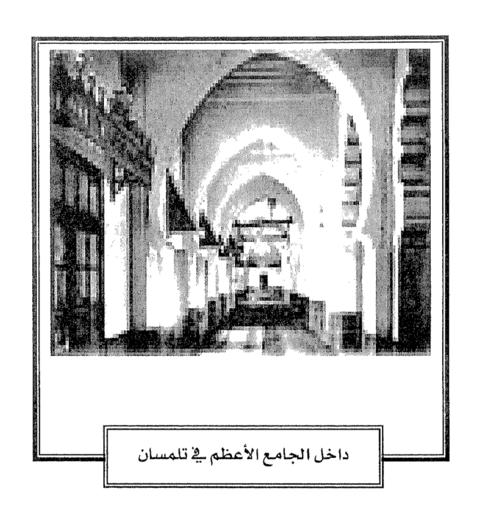
واستولت مرين من بعد على تلمسان ست مرات وعلى الجزائر الحفصية مرتين وتداخلت بعد أبي حمو الثاني في أمر العرش ونصبت حمايتها على المستعينين بها على الملك، ثم ضعفت عن ذلك حتى أنها احتمت بالدولة الحفصية.

ولم تجن الجزائر من تداخل مرين في أمرها غير تخريب قصور ونسف عمران إلى تعطيل حركة الإنتاج وسير الاقتصاد إلى إفساد الرعايا ونشر الفوضى إلى إضعاف الحكومة الشرعية وشغلها عن ترقية ممالكها.

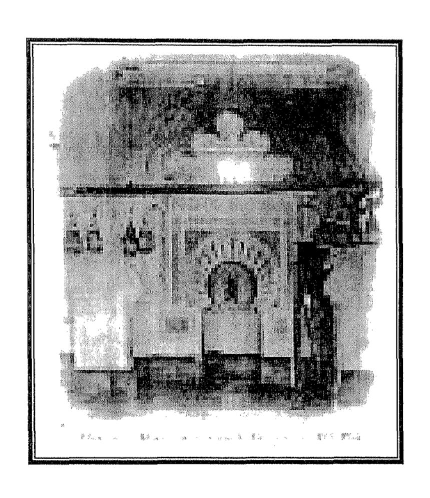
وقد ترك يوسف بن يعقوب وأبو الحسن ابن أخيه بالجزائر آثارا، منها ابتناء قصبة لمدية سنة **704** ومنها تأسيس المنصورة سنة **700** حيث المعسكر المحاصر لتلمسان، بني أولا قصر السلطان بمضرب قبابه وبإزائه جامع كبير ومنارة عظيمة على رأسها تفافيح من ذهب بسبعمائة دينار، وأدير على القصر والجامع سور وابتنى الناس حوله المنازل والقصور وغرسوا البساتين واجروا المياه وأدير على ذلك سور سنة **702** فكانت مصرا من أعظم الأمصار عمرانا ونفاق أسواق، ذات حمامات وخانات ومارستان، وخربها من بعد بنو عبد الواد وطمسوا معالمها.

ومنها البرج الأحمر وبرج المرسى بوهران بناهما أبو الحسن سنة **748** وبني في حصاره لتلمسان مدينة غربيها سماها أيضا المنصور. وخربت أيضا وبقي بعض آثاره المدهشة.

وما هدمت مرين من المجتمع الجزائري لا تجبره أمثال تلك البناءات قال تعإلى ــــ ومن اصدق من الله قليلا ــــ: **«إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وكذلك يفعلون»**.



داخل الجامع الأعظم في تلمسان



الجامع الأعظم في تلمسان

استيلاء أبي الحسن على الجزائر:

كان أبو تاشفين الأول يكثر الإغارة على الممالك الحفصية ويحاول فتح بجاية. فخشيت مرين عاقبة تغلبه على الحفصيين. وأوفد أبو يحي أبو بكر الحفصي وفده على أبي سعيد المريني مستغيثا سنة **730** فتظاهرا على أبي تاشفين. واحكما التظاهر بالتصاهر. وعزما على استئصال دولة عبد الواد. ومات أبو سعيد دون أمنيته. وخلفه ابنه أبو الحسن فخاطب أبا تاشفين في الرجوع إلى حدود مملكته القديمة وتسليم ما تغلب عليه لصاحب تونس. فأبى ونهض أبو الحسن إلى تلمسان. فجاوزها إلى تسالة. ونزل هناك في شعبان سنة **32** وأغارت أساطيله على السواحل. وأرسل إلى أبي يحي في الملاقاة وجمع قوة الدولتين على فتح تلمسان. فاسترجع أبو يحي ممالكه ولم يتقدم إلى تلمسان. وأثار أبو تاشفين أبا علي أمير سجلماسة على أخيه أبي الحسن. فارتحل أبو الحسن لإطفاء ثورته.

وفي سنة **35** عاد أبو الحسن إلى تلمسان. فحاصر وجدة. واستولى على ندرومة وهنين. ونزل تسالة وبايعته توجين ومغراوة وانبثت سراياه في الجهات. فأخضعت له سنة **36** وهران وتنس ومليانة والجزائر والمدية وونشريس وشلف وسائر المغرب الأوسط. فولى بها العمال. وتوجه لحصار تلمسان. فخندق على معسكره وابتنى المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه. وبعد وقائع تمكن من فتح تلمسان. فدخلها في رمضان سنة **37** ونزل بالجامع. وقبض أيدي الجند عن الفساد ورفع القتل عن بني عبد

الواد. واستلحقهم بجيشه. وأبقاهم على مراتبهم. وفرض لهم العطاء. فاذعنوا وصدورهم تكاد تميز من الحقد.

وبلغ أبا الحسن أن أبا يحي وافد عليه للتهنئة. فلاقاه سنة **38** إلى متيجة وطال مقامه بها حتى مرض. وحذر أبا يحي وزراؤه من هذه الوفادة. فانقبض عنها. وظن عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن أنا أباه هالك. فتوثب على الأمر منافسة لأخيه أبي مالك. فتدارك أبو الحسن الأمر، وفر ابنه إلى موسى بن أبي الفضل أمير بني يزيد بسهل حمزة. فرده عليه، وحبس بوجدة. ثم قتل سنة **742** وأيس أبو الحسن من وفادة أبي يحي. فعاد إلى منصورته.

وكان بنو عامر منحرفين عن الطاعة لمكان سويد منافسيهم. ففر إليهم ابن هيدور جازر أبي عبد الرحمن، وأدعى أنه هو، فبايعه شيخهم صغير بن عامر، وزحف به على لمدية، فهزم قائدها، وجهز أبو الحسن ونزمار بن عريف في قومه سويد. فقضى على الثورة. ولحق ابن هيدور الدعي بزواوة فافتضح. فانتقل إلى الذواودة فبعث أبو يحي الحفصي خدمة لأبي الحسن إلى يعقوب ابن علي من كشف له أمر الدعي. فأشخصه إلى أبي الحسن سنة **40** وهو يومئذ بسبتة. فقطعه من خلاف. وهلك سنة **68**.

وعني أبو الحسن بالجهاد وفي نفسه تشوقا إلى امتلاك تونس. وإنما أقعده عنها مكان صهره أبي يحي. ففي سنة **747** مات أبو يحي، وتغلب على الأمر ابنه عمر، وقتل أخاه احمد ولي العهد، فتعلق أبو الحسن بهذا

السبب، وعقد على تلمسان والمغرب الأوسط لابنه أبي عنان، وفوض إليه إدارتها، وفصل منها في صفر سنة **48** فأتته بوهران بيعات أمراء الجريد وجربة وقابس وطرابلس، ووفد عليه بأرض بني حسن من نواحي البرواقية أعيان الجزائر ويعقوب ابن علي الذوادي ومنصور بني مزني، فولى على جباية الجزائر مسعود ابن ابراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء، وتلقاه بساحة بجاية أميرها محمد لما لم يجد نصيرا، فنقله عزيزا مكرما إلى ندرومة وأوصى ابنه أبا عنان بالإحسان إليه.

دخل أبو الحسن بجاية، فوضع عن أهلها ربع المغرم وولى عليها محمد بن النوار من طبقة الوزراء، وترك له حامية، وتقدم إلى قسنطينة، فتلقاه أميرها أبو زيد في أخوته مبايعين. فنقلهم إلى وجدة. وأقطعهم جبايتها، وولى على قسنطينة محمد بن العباس. وأنزل معه بني عسكر. وأقر صهره الفضل على بونة. وتقدم إلى تونس فملكها وأقام بها على شوال سنة **50** وفي هذه المدة اجتمع له ملك المغرب. ولم يجتمع لأحد بعد بني عبد المؤمن غيره.

وفي محرم سنة **49** هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة منكرة. وكان بعسكره بنو عبد الواد وتوجين ومغراوة. فكانت لهم يد في جر الهزيمة عليه لسلبه إياهم ملكهم. وارجف بموته. فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وثار عليه صهره الفضل بن أبي يحي الذي أقره على بونة وكان الفضل يرى أنه سيترل له عن ملك تونس، ولا يغتصبه عرش سلفه، فاستولى على قسنطينة وبجاية، واخرج منها مرين واخذ يجلب على تونس.

وارتحل أبو عنان إلى فاس، وترك على تلمسان عثمان بن جرار من أولاد طاع الله من بني عبد الواد، واجتمع بظاهر تونس بنو عبد الواد، فبايعوا عثمان بن عبد الرحمن. وتحالفوا مع مغراوة وتوجين، وهدروا ما بينهم من دماء، وارتحلوا في زهاء خمسمائة فارس إلى مواطنهم، فقتلوا عمال مرين، ودعا عثمان بن جرار لنفسه. فنكر الناس دعوته لكونه لا سلف له في الملك، فكان ذلك مما أعان عثمان ابن عبد الرحمن عليه، فغلبه على تلمسان. ودخلها في جمادى الثانية سنة **49** وقتله غريقا. وعقد سلما مع أبي عنان على أن يمنع أباه عنه.

و لم يبق بعد واقعة القيروان على بيعة أبي الحسن غير مدينة الجزائر ووهران ووانشريس. فسرح إليها ابنه الناصر مع يعقوب بن علي وعريف بن يحي. فأطاعته حصين والعطاف والديالم وسويد. وتوجهوا نحو منداس. فلقيهم الزعيم بقومه عبد الواد. وقد أمده أبو عنان بالمال والرجال. فانهزم الناصر على وادي ورك من أرض العطاف آخر ربيع الأول سنة **50** وانقلب إلى تونس. وخضع العرب للزعيم فتوجه إلى وهران. وقد امتنع بها قائدها عبو بن سعيد بن أجانا حتى مات وخلفه أخوه علي. فدخلها الزعيم عنوة في جمادى الأولى. وعفا عن علي.

وفي شوال خرج أبو الحسن إلى الجزائر بحرا. وترك بتونس ابنه أبا الفضل فغرق أسطوله بساحل زواوة. ونجا في بعض رجاله عراة إلى جزيرة. فأدركه بعض أجفانه. ولحق بالجزائر. وأمد أبو عنان أبا ثابت الزعيم. فخرج في ربيع الأول سنة **51** إلى منداس والسرسو وتيطري

وحمزة. فأخضعها. وقفل فدخل تلمسان في رجب. ونهض أبو الحسن بعد قفوله. وأمامه ابنه الناصر. فاستولى على لمدية ومليانة وتيمزوغت. فاتحدت مغراروة مع عبد الواد. وتكفل الزعيم بلقاء أبي الحسن وعلي بن راشد المغراوي بلقاء الناصر. فالتقى الجمعان بتيغر متين عند شدبونة من وطن شلف في شعبان. فقتل الناصر. ونجا أبو الحسن إلى جبل العمور. وأصحر إلى سجلماسة. واستولى الزعيم على الجزائر سنة **52** وصرف من بها من مرين على فاس. وهكذا عادت الجزائر إلى أربابها.

استيلاء أبي عنان على الجزائر:

لم يتنازل أبو عنان لأبيه بعد تحقق حياته خشية ان يحرمه ولاية عهده فوصل يده بأمراء تلمسان وبجاية وقسنطينة ليكونوا سدا دون نفوذ أبيه إليه فلم يخلص إليه إلا وهو مهيض الجناح. ولكنه شغل به حتى مات سنة **52** فاستقام له الأمر. واستعد لاسترجاع ما استولى عليه أبوه.

ففي سنة **53** زحف إلى تلمسان. وكان أبو دينار سليمان بن علي الذوادي مع أبيه ووفد عليه بعد وفاته. فسرحه بين يديه لحشد رياح. وخرج عثمان من تلمسان بجموعه، فكان اللقاء بسهل انكاد في جمادى الأولى، فانهزم بنو عبد الواد. وأسر أبو عنان سلطانهم عثمان، وقتله لما احتل بتلمسان، ونجا أخوه أبو ثابت من المعركة. فاحتمل الحرم وما خف من الذخيرة. ونزل بشلف على مغراوة، وأخذ في الحشد، فسرح له أبو عنان وزيره فارس بن ميمون. فكانت على شلف معركة شديدة في

رجب، ثم هزم الوزير أبا ثابت واستولى على معسكره بما فيه من نساء وأموال ودواب، وقصد الجزائر، فخضعت له، وذهب أبو ثابت في فل من أصحابه مشرقا، وجاء أبو عنان إلى لمدية، فأرسل إلى أمير بجاية يترصده فقبض عليه وعلى أبي زيان ابن أخيه عثمان ووزيرهم يحي بن داود. وبعثهم إلى أبي عنان. فقتلهما في رمضان بتلمسان. واستحيا أبا زيان وانتهت الدولة الثانية لبني عبد الواد. فكانت حياتها على يد أبي حمو الذي نجا إلى تونس.

ووفد محمد بن يحي أمير بجاية في شعبان على أبي عنان بلمدية لما بينهما من قديم الود. وطمع ان يعينه على تعنت رعيته. فأشار إليه بتسليم بجاية اليه. فأعلن للملأ تسليمه. وكتب إلى عامله ببجاية بتمكين عمال أبي عنان منها ولسان حاله يقول مكره أخاك!

وكان الصنهاجيون أهل الشوكة ببجاية. فولى أبو عنان بها عمر ابن علي الوطاسي. وبنو وطاس ينتسبون إلى يوسف بن تاشفين الصنهاجي. فلم ينخدع الصنهاجيون لهذه المجاملة السياسية. وثاروا بالعامل ومن معه من مرين لكن أعيان بجاية خشوا أبا عنان. فاستدعوا عامله بتدلس يحي بن عمر الونكلسي ليقوم بأمرهم ريثما يولي عليهم أبو عنان.

بلغ الخبر أبا عنان. فانهض حاجبه محمد بن أبي عمر في خمسة آلاف فارس في ذي الحجة. وقصدت صنهاجة إلى لقاء الحاجب ببني حسن. ثم خامت عن اللقاء ولحق أثافي الفتنة منها بقسنطينة فتونس. ولقي مشيخة بجاية الحاجب بتكلات. فأشخص أهل الظنة منهم إلى أبي عنان بتلمسان.

ودخل بجاية في المحرم سنة **54** وسكن الأحول. ووفد عليه يوسف بن مزني والذواودة. ورجع بمن وفد عليه من العرب إلى تلمسان في جمادى الأولى. قال ابن خلدون:

«وكنت يومئذ في جملتهم. وقد خلع علي الحاجب وحملني وأجزل صلتي وضرب لي الفساطيط .فجلس السلطان للوفد واعترض ما جنب له من الجياد والهدية. وكان يوما مشهودا. ثم أسنى جوائز الوفد واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد البر والكرامة. وائتمرهم في شان إفريقية ومنازلة قسنطينة وانصرف الحاجب بي وبالوفد لأول شعبان»1هـ.

وأطلق السلطان يد الحاجب في المال والجيش، وولاه حرب قسنطينة وانزل معه موسى بن ابراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء بقرية بني ورار تحت نظره وفي سنة **55** هزم الحاجب أمير قسنطينة. وانتهى إلى ميلة. فترك بها موسى بن ابرهيم. وتقلب في عمله حتى بلغ المسيلة وهلك ببجاية فاتح سنة **56** فنقل إلى تلمسان. وكان حميد السيرة. وجمع له أبو عنان قبل ولاية بجاية بين العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته وخصوصيات داره. وأصله تميمي كان سلفه بالمهدية. وانتقلوا إلى تونس وتقلبوا في وظائف الدولة. ثم ساءت أحوالهم. فخرج أبوه إلى القل. واتّصل بالحاجب ابن غمر بالاعجام. فاستعمله في شهادة الديوان بتدلس. ثم لحق بابي حمو.

فاستعمله على قضاء تلمسان إلى ان ملكها أبو الحسن. فعزله وعهد إليه بتأديب أبي عنان فنشأ ابنه محمد هذا مع أبي عنان. وكان ذلك سبب نعمته.

وولي بجاية بعد ابن أبي عمر الوزير عبد الله بن علي بن سعيد الياباني. فلما كانت وقعة وادي القطن على موسى بن ابراهيم اتهمه بالتقصير في إمداده. فعزله أبو عنان واعتقله. وولى مكانه يحي بن ميمون بن أمصمود. وخرج بنفسه إلى قسنطينة. ففتحها سنة **58** وولى عليها منصور بن خلوف الياباني المريني. وبايعته بونة. وفتح جيشه تونس في رمضان. فطمع في اللحاق بها شأن أبيه. لكنه لم يحسن سياسة العرب وأراد ارتهان أبنائهم على الطاعة وانتزاع اقطاعاتهم، فخالف عليه يعقوب بن علي، وخشيت مرين أن يلحقها معه في دخول إفريقية ما لحقها مع أبيه قبل، فانفضت من حوله واضطر إلى الرجوع بعدما تم استيلاؤه على الجزائر وكادت قدمه تثبت بتونس وبقية المغرب. فدخل فاسا في ذي الحجة. ومات بها في السنة التالية .

وكان أبو عنان كثيرا ما يترل بتلمسان. وولى عليها ابنه محمدا المهدي فأخرجه منها أبو حمو الثاني سنة **60** واخرج ابراهيم الثاني الحفصي مرين من بجاية بمساعدة أبي حمو ويعقوب بن علي سنة **61** وأفضى أمر مرين إلى أبي سالم ابراهيم. فنفض يده من هذه الممالك. وكتب إلى منصور بن خلوف والي قسنطينة بتسليمها إلى أبي العباس أحمد الحفصي، فسلمها له في رمضان سنة **61** فتم إخراج مرين من الجزائر

بعدما استولت على تلمسان سبع سنوات وعلى بجاية ثمانيا وعلى قسنطينة وبونة ثلاثا.

الاستيلاءات الأخيرة على تلمسان:

لما توفي أبو عنان بويع ابنه السعيد طفلا خماسيا مستبدا عليه. فثارت لبيعته قلاقل شغلت مرين عن تلمسان وانتهت بتغلب أبي سالم ابراهيم على الأمر. وعامل درعة يومئذ عبد الله بن مسلم الزر دالي. فخشي أبا سالم لأنه كان مخلصا لأخيه أبي عنان وتحيل في إشخاص أخيهما أبي الفضل إليه لما ثار عليه. فقتله سنة **55** واحتمل أهله وذخائره. ولحق بابي حمو في شوال سنة **60** لقديم حلف بينه وبين عبد الواد، ونقل أولياءه عرب المعقل إلى صحراء تلمسان، فنبذوا مرين وحالفوا عبد الواد.

وساء ذلك أبا سالم ،فطلب من أبي حمو إسلام الزردالي ورجع المعقل إلى مغربه، فأبى، فزحف إليه في رجب سنة **61** وبعد حرب شديدة دخل أبو سالم تلمسان سادس شعبان، فاجلب أبو حمو على قرسيف وانكاد. فعاد أبو سالم لحفظ مملكته، وترك تلمسان لأبي زيان الفتى من بني عبد الواد وهواه مع مرين لأنه نشأ في نعمتهم، فعاد إليها أبو حمو ودخلها ثامن رمضان، وفر منه أبو زيان، وانعقدت السلم بين المملكتين، فكانت مدة هذا الاستيلاء شهرا وأياما.

ولما ملك عبد العزيز أحيا قضية المعقل الذين استكثر بهم أبو حمو واستعان بهم على سويد، فلم يجد لدى أبو حمو إذنا صاغية، ثم وفد عليه

أهل الجزائر وسويد ساخطين على أبي حمو لجبره إياهم على أداء المغرم، فتقوى عزمه، وزحف إلى تلمسان آخر سنة **71** ومال إليه ذوو عبيد الله، فلم يسع أبا حمو الا الفرار، ودخل عبد العزيز تلمسان في المحرم سنة **72** واستولى على مملكة عبد الواد، وفرق العمال في الجهات، وانتزع من العرب اقطاعاتهم، فثاروا عليه في كل ناحية، واضطرم المغرب الأوسط نارا، فاضطر سنة **73** لإمضاء اقطاعات العرب، وأخرج الجنود لإخضاع بقية الثوار من مغراوة وحصين وغيرهم، وأقام بتلمسان حتى توفي بها سنة **74** فنقل شلوه إلى فاس، وبويع ابنه. فولى على تلمسان ابراهيم بن أبي تاشفين الأول كان مكفولا لمرين منذ مقتل أبيه، واستدعى أبا حمو أولياؤه من منتبذة بتيقوارارين، وردوا ابراهيم على عقبه إلى فاس، ودخل أبو حمو تلمسان في جمادى الأولى، فكانت مدة هذا الاستيلاء عامين وأشهرا.

وفي سنة **76** انقسمت دولة مرين بين أحمد بن أبي سالم بفاس وابن عمه عبد الرحمن بمراكش، ثم كانت بينهما حروب، فمال أبو حمو إلى صاحب مراكش لبعده عن جوار مملكته، وأراد أن يرغم أحمد على الإفراج عنه سنة **84** فاجلب بجموع العرب وزناتة على مملكة فاس، وقام بدفاعه ونزمار بن عريف وعامل فاس، ثم ورد الخبر بفتح مراكش منتصف السنة، فانقبض أبو حمو إلى تلمسان وعاد احمد بن أبي سالم من مراكش، فاخرج أبا حمو من تلمسان سنة **85** وهدم قصور الملك بها.

وكان الغني بالله بن الأحمر صاحب غرناطة وليا لأبي حمو، ولديه كثير من بني عبد الحق المرشحين للملك، فكان يمنع أبا العباس أحمد من

حرب تلمسان متى هم بها. فلما فتح مراكش ظن قوته لا يؤثر فيها ابن الأحمر. وأجلى أبا حمو فانتقم منه ابن الأحمر بتسريح موسى بن أبي عنان لفاس، وأعانه على شأنه، فغادر أبو العباس تلمسان أوائل سنة **86** ولكن موسى ابن عمه قد سبقه إلى فاس وعاد طريده موسى أبو حمو إلى تلمسان. وأصبح السالب مسلوبا، ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون، وكانت مدة هذا الاستيلاء نحو سنة.

ثم عاد أبو العباس إلى ملك فاس. وأعان أبا تاشفين الثاني على قتل أبيه أبي حمو. وسجن لديه أخاه أبا زيان ليهدده به وقت الحاجة. وتوفي أبو تاشفين سنة **95** فملك أبو العباس تلمسان، وأقام بها ابنه عبد العزيز لإخضاع ممالكها، بعض سنة، وتوفي أبوه سنة **96** وبويع مكانه. فعاد إلى فاس. وأطلق من السجن أبا زيان. فملك تلمسان. ولم تدخل الراية المرينية الجزائر بعد .

وهكذا كان القرن الثامن قرن عراك بين مرين وعبد الواد. وانتهى بضعفهما معا، وجروا معهم في الضعف دولة غرناطة إذ كانت تستمد منهم عسكريا وماليا وأدبيا. فتقوى عليها الإسبان حتى قضى عليها سنة **897** واشتدت وطأته على سواحل المغرب أجمع. وما ذلك إلا لإهمال العمل بمثل قوله تعالى: **واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.**

الباب الثامن

في دولة بني زيان

تأسيس الدولة الزيانية:

هذه الدولة تضاف إلى عبد الواد الذين بسيوفهم قامت وبأبطالهم حميت، وتنسب إلى زيان بن ثابت بن محمد من بني طاع الله لان ملوكها من عقبة. وبنو طاع الله من بطون بني القاسم من عبد الواد. وزعموا أن القاسم هذا هو ابن إدريس أو ابن محمد بن إدريس أو ابن محمد بن عبد الله أو محمد أبي القاسم بن إدريس وفي بني محمد ابن سليمان الذين كانوا بتلمسان القاسم بن محمد أيضا. قال ابن خلدون: وهو أشبه بهذه الدعوى من القاسم بن إدريس.

ولقد كان بنو عبد الواد إجلاس خيل وأبطال هيجاء يرون المعالي منوطة بالعوالي لا يخنعون إلى مناهض ولا تكسر من شباهم الشدائد. يغالبون النوائب ويصابرون الخطوب. وبمثل هذه الأخلاق أسسوا دولتهم. وبها حافظوا على حياتها رغم ضيق المملكة واتساع مطامع جيرانهم الأقوياء من مرين وبني أبي حفص.

وكان دخول عبد الواد تلمسان إمرة جابر بن يوسف منهم. فناب أمراؤهم بها عن خلفاء مراكش حتى ولي يغمراسن بن زيان سنة **633** فأحسن سياسة قومه وأحلافهم من زغبة وبني راشد، وجمع كلمتهم، فاشتد ساعده وتوطد أمره. فاتخذ أبهة الملك وشعاره من جند وتولية عمال ولم يبق لخليفة مراكش الا الدعاء على المنابر وتقلد العهد من يده تأنيسا للعامة ومرضاة للإكفاء من قومه. فكان يغمراسن أول ملوك هذه الدولة.

وقد قاست من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ما قصصنا بعضه في البابين قبل هذا وسنقص منه في هذا الباب، وان تعجب فعجب حياتها مع تلك الحروب المبيرة حتى سقطت مع منافسيها المرينيين والحفصيين.

المملكة الزيانية:

مملكة آل زيان الأصلية هي مواطن عبد الواد وأحلافهم راشد الممتدة طولا من البحر إلى الصحراء وعرضا من ناحية وادي مينة، وجبال سعيدة حيث يجاورون توجين ومغراوة إلى ملوية وفيقيق حيث يجاورون مرين وأحلافها.

وملكوا سجلماسة بين سنتي **62 – 673** وغلبت مرين على وجدة، فاستقرت الحدود بين الدولتين على تاوريرت بجانبها الغربي عامل مرين وبالشرقي عامل بني زيان. ثم يمر خط الحدود جنوب وجدة إلى فيقيق

وتيقورارين جنوبا وإلى غربي ندرومة شمالا.. فيشمل مواطن ذوي عبيد الله غربي حدود الجزائر الحديثة.

ثم ملكوا مواطن توجين ومغراوة وفتحوا الجزائر ودلس سنة **712** وبلغوا تيكلات قرب بجاية. ومنها يذهب الخط جنوب جرجرة إلى البويرة إلى دلس شمالا. ويمر مصحرا شرقي حمزة والمسيلة ومزاب إلى تيقورارين.

وبهذه المملكة من قبائل العرب المعقل وزغبة وأولاد سباع بن يحي من رياح، وتقدمت أخبارهم في الباب الخامس، ومن قبائل البربر التي كان لها ظهور قوي أو ضعيف مطغرة وكومية وبنو راشد وهوارة وتوجين ومغراوة. وقبائل المملكة الشرقية أقوى وأكثر خلافا لكثرة جبالهم ويسر مسالك الصحراء عليهم وضعف دولة الحفصيين المجاورة لهم وبعد عاصمتهم عنهم بخلاف أهل المملكة الغربية فإن خلافهم على آل زيان يدخلهم في قبضة مرين الأشداء، فضعفوا لذلك وقلت ثوراتهم.

أما مطغرة فكان رئيسهم في الدولة المؤمنية خليفة. وله على ساحل البحر حصن تاونت كان مؤسسا من قبله، فقد ذكره البكري بقوله: **«وهو على ساحل ترنانا في جبل منيف. به معدن الأثمد، ويحيط به البحر من ثلاث جهات، وله مرتقى وعر من شرقية لا يطمع فيه أحد، وله بساتين وشجر كثير وأهله من البربر يعرفون ببني منصور»1هـ.**

وبقيت الرئاسة في عقبة وبايع هرون بن موسى بن خليفة يعقوب ابن عبد الحق وتغلب على ندرومة. فاسترجعها منه يغمراسن وغلبه على تاونت. ثم تغلب يعقوب بن عبد الحق على ندرومة وأعاد إليها هرون.

فاستبد بها. وقطع دعوة الدولتين منها خمس سنين حتى غلبه يغمراسن سنة 72 فلحق بيعقوب بن عبد الحق وأجاز إلى الأندلس واستشهد هنالك.

وخلفه على مطغرة أخوه تاشفين. وهلك سنة 703 وبقيت الرئاسة في عقبة. هذا ما حدث به عبد الرحمن بن خلدون. وقال أخوه يحي: في ربيع الأول سنة 98 شرق عثمان الأول إلى توجين وأطال المغيب في تدويخ بلادهم. فخلع زكريا بن يخلفتن المطغري قائده بندرومة طاعته. وبايع لمرين. فاضطرمت أرجاء حضرته نار فتنة. فأخذ السير إلى تلمسان. وكان اثر ذلك الحصار الطويل.

وأما كومية فقد بقيت منهم بعد الدولة المؤمنية علالة في بني عابد قوم عبد المؤمن متحدة مع ولهاصة. كان من رؤسائهم ابراهيم بن عبد الملك، نسبه ابن خلدون مرة إلى ولهاصة وأخرى إلى بني عابد، وكان آخذا بدعوة أبي الحسن بعد تغلبه على تلمسان، فلما رقعت عليه واقعة القيروان واشتد الهرج في الأوطان حدثته نفسه بإحياء الدعوة المؤمنية، وعاد آل زيان إلى تلمسان فخرج إليه انو ثابت الزعيم عاشر رجب سنة 749 فاقتحم هنين وندرومة وأسره واعتقله بتلمسان حتى قتل. وكانت هنين فرضة تلمسان المعتبرة حتى خربها شر لكان، قال البكري ما خلاصته:

«حصن هنين على مرسى جيد مقصود، وهو أكثر حصون ساحل تلمسان بساتين وضروب ثمر، تسكنه كومية، وبينها وبين ندرومة ثلاثة عشر ميلا، يفصل بينهما جبل تاجرا، وندرومة في طرف

الجبل ،غربيها وشمالها بسائط طيبة ومزارع، وبينها وبين البحر عشرة أميال، وهي مسورة جليلة بها نهر وبساتين فيها من جميع الثمار»1هـ.

وأما بنو راشد فكانوا أحلافا لعبد الواد، وربما نبذوا عهدهم، وكانت رئاستهم لعهد يغمراسن لونزمار بن ابراهيم بن عمران، وهلك سنة **690** فخلفه غانم بن محمد بن ابراهيم، ثم موسى بن يحي بن ونزمار، ثم أبو يحي بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار، وكان أيام تغلب أبي الحسن على تلمسان، ونقله في رؤساء زناتة إلى المغرب الأقصى. فمات هنالك وخلفه ابنه زيان. وملك أبو حمو الثاني تلمسان. فوفد عليه. واتهمه بمشايعة مرين. فحبسه بوهران. وفر منها بعد مدة إلى مرين وتظاهر بالإخلاص لأبي حمو. فأعاده. وولاه على قومه. ثم اعتقله حتى قتله سنة **768** وبه انقرضت رئاسة بني راشد.

وكانت في موطنهم مدينتا معسكر وايفكان. والمعسكر اليوم من المدن الشهيرة. وذكره الإدريسي في النزهة بقوله: «**قرية عظيمة لها أنهار وثمار»1هـ**. ويقال أنها كانت معسكرا للايمة الرستميين واتخذها بنو زيان معسكرا للاجلاب على توجين. و لم يعتنوا بتمدينها حتى مصرها الأتراك. وايفكان ويقال أيضا فكان جنوب المعسكر. قال البكري:

«كانت سوقا لزناتة. فمدنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني. وكان ابتداء تأسيسه لها سنة 338 وارتحل إليها أهل المعسكر من أهل تاهرت ويلل وشاطئي بني واطيل ووهران وقصر الفلوس. فعمرت

وتمدنت وعظمت. وهي في سفح جبل اوشيلاس. وهو بجوفيها ذو شعراء غامضة وقبليها نهر سيره ينبعث من عيون شرقيها، عليه الارحاء والبساتين من كلتي ضفتيه، وغربي فكان أسفل بساتينها مجمع وادي سيرة ووادي سي ووادي هنت. وعلى المدينة سور طوب، وبها جامع وحمام وفنادق»1هـ. ولعل لفظ من في قوله من أهل تاهرت محرف عن الواو.

وأما هوارة فكانت رئاستهم في بني اسحق. واختط كبيرهم محمد بن اسحق القلعة المعروفة بقلعة هوارة. ومات. فخلفه أخوه حيون. وصارت في عقبة ووالوا آل زيان. فاستعمل منهم أبو حمو الأول يوسف بن حيون على توجين سنة **710** إلى أن خلفه على توجين ابنه يعقوب إمرة أبي تاشفين الأول. ثم غلب أبو الحسن على تلمسان، فاستعمل عبد الرحمن بن يعقوب على قبيله ثم عبد الرحمن ابن يوسف. ثم ابنه محمدا. ثم تلاشت هوارة .وخف ساكن القلعة فانقرض بيت بني اسحق.

وأما مغراوة وتوجين فكانوا مناهضين للدولة. وتكررت فتنهم حتى أن أبا حمو موسى الأول أقام سنة **711** لحربهم بوادي نهل من شلف. وابنتي هنالك قصره المعروف باسمه قرب مازونة. وهو المعروف اليوم بعمي موسى.

وكانت مدينة الجزائر للحفصيين. ويدير أمرها مشيخة من أهلها. فنبذوا دعوتهم سنة **669** ونازلتهم العساكر مرارا. فامتنعوا عليهم. ثم

فتحوها سنة **74** واعتقل مشيختها بتونس حتى سرحهم الواثق ثم قطعوا دعوتهم ثانيا حوالي سنة **98** واستبد بها محمد بن علان. وبايع بني مرين لما نزلوا على تلمسان في الحصار الطويل. ونازلته عساكر بجاية مرارا. فامتنع عليهم حتى فتحها أبو حمو الأول سنة **712** ونقل ابن علان إلى تلمسان. وعادت للحفصيين سنة **813** ثم فتحها عبد الواحد بن أبي حمو. وتغلب عليها المستعين حافد أبي تاشفين سنة **842** واستقل بها عن تلمسان. وقتله أهلها سنة **43** وأدار شؤونها مشيختهم يرأسهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي حتى توفي سنة **75** وصار أمرها إلى أولاد سالم بن ابرهيم من الثعالبة وكان منهم سالم التومي الذي خضع مظطرا إلى الإسبان لما ملكوا بجاية. فلما ظهر عروج بربروس بجيجل استنجده. فانجده، ودخل الجزائر سنة **922** وندم سالم على استدعائه. فغدر به عروج وتغدى به قبل ان يتعشى هو به، فقتله وفتك برؤساء الثعالبة تمكينا لسلطته، ومن ذلك الحين أصبحت الجزائر تركية.

وكانت الجزائر تدعى بني مزغنة اضافة إلى أهلها من صنهاجة، قال البكري: «**وهي مدينة جليلة قديمة ذات آثار وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة للأول وصحن دار الملعب فيها مفروش بحجارة ملونة صغيرة مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان باحكم عمل لم يغيرها تعاقب القرون. ولها أسواق ومسجد جامع. وكانت بها كنيسة عظيمة.**

بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب مفصص كثير النقوش والصور وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين»1هـ.

عاصمة المملكة الزيانية:

عاصمة هذه المملكة هي تلمسان بكسرتين فسكون، علم زناتى مركب من تلم بمعنى تجمع وسان بمعنى اثنين يعنون أنها تجمع بين إثنين التل والصحراء وهي في سفح جبل بني ورنيد المار جنوبها،ويسمى قبالتها بالصخرتين، ينحدر منه نهر سطفسيف المار شرقيها. إلى ان يلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا. وتنحدر منه أيضا ساقية النصراني، وعلى الساقية والنهر مبان وجنات وارحاء. وبقرب المدينة عينا الفوارة وأم يحي يدخل ماؤها إليها. ويجري إلى الدور والحمامات والخانات وغير ذلك. وحولها فحوص أشهرها العباد حيث ضريح أبي مدين الشهير، وكان قرية كبيرة ذات مساجد ومدارس وخانات، ثم تراجعت عمارتها حتى اضمحلت في العهد الفرنسي.

وتلمسان مدينتان إحداهما قديمة تعرف بأقادير أسسها بنو يفرن قبل الإسلام والثانية أحدثها يوسف بن تاشفين سنة **474** بمعسكره المحاصر لاقادير، وسماها تاقرارت باسم المعسكر في لسانهم وفي عهد الإدريسي صاحب النزهة كانتا يفصل بينهما سور، ويحيط بهما سور حصين متقن الوثاقة.

وقد عني البكري بوصف تلمسان القديمة وما بساحلها من سهول وحصون ومراسي، نقتصر من ذلك على قوله ملخصا:

«هي قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق، لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار، وكان الأول قد جلبوا إليها ماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستة أميال. ولها خمسة أبواب، في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي المشرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرة، وفيها للأول آثار قديمة، وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة»1هـ.

ولم تزل تلمسان منذ الفتح الإسلامي عاصمة مملكة معتنى بعمارتها وتحصينها ولا سيما أيام الموحدين وفتنة ابن غانية حتى اقتعد كرسيها آل زيان. فشادوا بها القصور الجميلة. واغترسوا الرياض والبساتين، وأجروا خلالها المياه، وبلغ من عمرانها أن عد برجيص المسيحي في كتابه «**تلمسان**» من المساجد التي شاهدها قائمة في هذا العصر الفرنسي أحدا وستين مسجدا .

قال عبد الرحمن بن خلدون: «**فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع. وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية»1هـ.**

وقال العبدري في رحلته: «**تلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة باثنتين بينهما سور. ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة، وأهلها ذوو ليانة ولا بأس بأخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعرف بالعباد هو مدفن الصالحين وأهل الخير.. والدائر كله مغروس بالكرم وأنواع الثمار. وسوره من أوثق الأسوار وأصحها، وبه حمامات نظيفة. أشهرها حمام العالية قل ان يرى له نظير، وبالجملة هي ذات منظر ومخبر وأنظار متسعة ومبانيها مرتفعة»1هـ.**

وقال يحي بن خلدون ما خلاصته: «**لها خمسة أبواب، قبلة باب الجياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوى وباب القرمدين وغربا باب كشوط، وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد. أحدهما أقادير والأخرى تاقرارت. وهي الآن أكبر وأشهر من الأولى. والجامع الأعظم وقصور الملك ونفيس العقار بها والناس إليها أميل وبها أشد عناية»1هـ.**

وذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان، فقال ان لها ثلاثة عشر بابا وهو معاصر لآل زيان لكنه بعيد عنها، وقد عارضه يحي كاتب حكومتها.

وقد اختلفت على تلمسان أيدي الحفصيين ومرين والإسبان فطمسوا كثيرا من معالمها وأعفوا معظم آثارها، وأشار إلى علة ذلك لسان الدين بن الخطيب في وصفه لها بقوله:

«تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف. كأنها ملك على رأسه تاجه وحوإليه من الدوحات حشمه واعلاجه. عبادها يدها، وكهفها كفها، وزينتها زيانها، وعينها أعيانها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها بورد صريد حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا تحول بها ولاشحوب، خزانة زرع، ومسرح ضرع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرها فريدة الانتفاع، وبرانسها رقاق رفاع، إلا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك ومن أجل جمعها الصيد في جوف الفرا، مغلوبة للأمراء أهلها ليست عندهم الراحة إلا فيما قبضت عليه الراحة، ولا فلاحة، إلا لمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع العقارب إلا فيما بين الأقارب، ولا شطارة الا فيمن ارتكب الخطارة» 1هـ.

وللأدباء في وصفها ومدحها نثرا ونظما ما لايسعه ديوان، ومن أطولهم في ذلك باعا وأبرعهم تصويرا وأصدقهم وصفا شاعرها النازح عنها إلى غرناطة محمد بن خميس، قال في مطلع قصيدة طويلة جدا:

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو   منى النفس لا دار السلام ولا الكرخ

الحكومة الزيانية ومشاهير من رجالها:

الدولة الزيانية مستقلة داخليا وخارجيا غير أنها لم تدع أولا الخلافة، فكانت تدعوا لدولتي الموحدين إلى سنة **703** وأودعت الخلافة إلى سنة

791 فأصبحت تدعو لمرين، ثم تمشت حسب الظروف: تعلن الخلافة أياما، وتدعوا للحفصيين أو المرينيين أخرى إلى أن ظهر على مسرح السياسة الجزائرية الإسبان والأتراك. فاختلفت ايديهم على هذه الدولة كل يجذبها لحمايته.

وحكومتها ملوكية استبدادية مطلقة غير جارية على قواعد سياسة الخلافة كالحكومات المعاصرة لها شرقا وغربا، وسياستها مع جاريتها الحفصية والمرينية عدائية كسياستهما معها. وقد أوصى يغمراسن ابنه عثمان بمسالمة مرين لقوتهم واتقاء مقابلتهم بالانحصار، وانتهاز الفرص في ممالك الحفصيين واتخاذ بعض الثغور الشرقية موئلا لحفظ دخائر الحكومة. وعلى هذه الوصية سارت الحكومة الا أنها عجزت عن اتخاذ معقل بالمشرق لصعوبة بجاية عليها. فاتخذ أبو حمو الثاني من الصحراء معقلا.

ومد بنو الأحمر ملوك غرناطة ايديهم إلى يغمراسن لما خشوا من مزاحمة مرين لهم بالأندلس وان يعيدوا معهم مأساة ابن عباد، فاستمرت العلاقات بين الحكومتين حسنة. وكان أبو حمو الثاني يمد أهل غرناطة كل سنة، بالزرع والمال والخيل، وييسر لهم أسباب وسق الطعام. ويرى ذلك من الجهاد ويحمل عليهم حديث الطائفة التي لاتزال بالمغرب ظاهرة على الحق. وفي ذلك يقول لسان الدين الخطيب:

لقد زار الجزيرة منك بحـــــر ... يمد فليس نعرف منه جزرا

أعدت انا بعهدك عهد موسى ... سميك. فهي تتلو منه ذكرا

أقمت جدارها وأفدت كنزا ... ولو شئت أتخذت عليه أجرا.

وكانت الحكومة ترفع منازل الإشراف والفقهاء وتداري الأعيان من رؤساء القبائل والتجار وأشباههم، وتجري في سياسة العامة على قول الحكماء: «**العامة إذا قدرت ان تقول قدرت ان تصول**» فتضرب بين زعماء القبائل ليكونوا في حاجة إليها وتأخذ من أبنائهم رهنا على الطاعة واتخذ لهم أبو حمو الأول عصبة واذن لهم في النكاح والبناء واحتط لهم المساجد جمعوا فيها للجمعة ونفقت بها الأسواق والصنائع قال ابن خلدون:

«**فكانت تماثل بعض الأمصار العظيمة وهي من أغرب ما حكي عن سجن»1هـ.**

ومالية الحكومة تجمع من المغرم المفروضة على الرعية ومن الغنائم الحربية فان هذه الحكومات المتعاصرة لاتبالي – على إسلامها – بأخذ ما غلبت عليه من أموال محاربتها. وتوزع في مصالح الحكومة وجوائز الأعيان وعطاء الموظفين ورزق الجند، وكانت تطبع السكة. وكتبت فيها بعد انتهاء الحصار: «**ما أقرب فرج الله!**» ولها نفائس تذخرها مما يخف حمله وتعظم قيمته غنم يغمراسن أهمها من الخليفة السعيد الذي قتله بتامزردكت. منها الثعبان عقد منتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر. يشتمل على مئتين كثيرة من حصبائه. وأعظمها مصحف عثمان بن عفان (ض) يقال ان عبد الرحمن الداخل حمله من خزائن قومه إلى الأندلس ثم صار إلى المرابطين ثم الموحدين. وحديث المصحف طويل

يطلب في نفح الطيب. وقد أخذه والثعبان في نفائس أبو الحسن المريني لما استولى على تلمسان.

وللحكومة جند مؤلف من أربعة أقسام، تستعين بجموعهم في حروبها وتدرأ أقسامهم بعضها ببعض الأول الخاصة، وهم من وجوه القبائل، ومنهم قواد بقية الأقسام، والثاني القبيل، وهم بنو عبد الواد قرابة الملك، ورئيس فرقتهم يدعى شيخا، والثالث الأنصار، وهم نخبة من الجند يكونون محدقين بالملك في الحرب، والرابع المماليك، وهم اخلاط من السودان والاعلاج وغيرهم، ولكل قسم رايات يمتاز بها، ولهم أعطية حسب أقدارهم إلا المماليك فحسب حاجتهم لقوتهم ونفقة عيالهم وعلف مركوبهم، وللملك أيام في السنة يستعرض فيها الجند، وتفقد العدد الحربية، ويرقى من يستحق الارتقاء.

وكان يغمراسن قد استخدم جند النصارى الذين كانوا مع السعيد في وقعة تامززدكت وهم زهاء ألفي فارس، ورفع من قدرهم حتى استعجل أمرهم واجمعوا قتله لما استعرض الجند بباب القرمدين سنة **652** فشعر بهم، وقتلوا أخاه وأحاطت بهم الدهماء من الجند والرعية، فاستلجموهم، ولم يستخدم بعدها جند النصارى بهذه الحكومة.

ويقسمون الجيش عند التبعية على مقدمة أمام الملك أو نائبه وميمنة عن يمينه وميسرة عن يساره وساقة يكون الملك فيهم ويسمون أيضا قلبا وأهل الدخلة، ومنهم من يجعل الأقسام خمسة ويباين بين القلب والساقة، وبذلك سمي الجيش خميسا.

ولم يكن ملوك آل زيان يتلقبون بألقاب الخلفاء كالمنصور والمستعين إلا بعض ذرية أبي حمو الثاني، وكانوا يلون الأمر بالبيعة الشرعية إلا أبا تاشفين الأول وسمية الثاني وأكثر ذرية أبي حمو، فإنهم تغلبوا على الأمر بقوة عصبية أو مدد خارجي.. والملك مصدر كل السلط. وولي عهده رديفه ومظهر سلطانه ونائبه في قيادة الجيوش. وله حاشية وبطانة ربما نافست بطانة الملك. فأفضت الحال إلى منافسة ولي العهد للملك نفسه، وللملوك وزراء وحجاب وكتاب وأصحاب أشغال وقضاة بالحضرة ومفاتي يبينون لهم ما أشكل عليهم من الأحكام ويتعدونهم بالموعظة وقواد وعمال وأصحاب شرطة.

فالوزير واسطة بين الملك والعامة ومعينة بالرأي ونائبه في قيادة الجيش أن لم يركب هو ولا ولي عهده. والحاجب هو صاحب والكاتب يعرض على الملك كل يوم ما ورد من الرسائل ويتلقى أوامره بالجوانب عنها وبعقد الولايات وغيرها من شؤون الحكومة. وصاحب الأشغال له النظر المطلق في الدخل والخرج. والعمال نوابه في الجهات يؤدون إليه جبايات أعمالهم ولكن توليتهم من الملك. والقواد رؤساء فرق الجند. وصاحب الشرطة يتولى النظر في التهم على الجرائم ومباشرة تنفيذ الحكم على أهلها.

فالحكومة الزيانية تتألف من عناصر السيف والقلم والمال والعلم. فمن مشاهير رجال السيف غير بني زيان هلال القطلوني وموسى بن علي الكردي ويحي بن موسى السنوسي وعبد الله بن مسلم الزردالي وبنو مقن.

فأما هلال فعلج إهداه ابن الأحمر على عثمان الأول. وصار إلى أبي حمو. فأعطاه وولده أبا تاشفين، فكان من خواصه ومن كبار المغرين له بأبيه. فما قتله ولاه حجابته، وكان مهببا فظا غليظا استولى على أمر السلطان وزحزح منافسيه عن مناصبهم، ثم أخذ السلطان يخفض من صوت صولته حتى عزله سنة **29** واعتقله إلى أن هلك سجينا قبيل فتح أبي الحسن تلمسان.

وأما موسى فمن بيت نبيه في الأكراد، فروا أمام التتر، ونزلوا على المرتضى مراكش، فأكرم مثواهم، وبعد دخول مرين مراكش تفرقوا في تلمسان وتونس، وبقي جمع منهم مع مرين، ونشأ موسى هذا بين حرم السلطان يوسف حتى إذا نزل محاصرا لتلمسان أغضبه ذات يوم، فلحق بعثمان الأول. فعرف فضلة، وبالغ في إكرامه، وتولى قيادة جيوش أبي حمو، وثبت أبا تاشفين لما دهش لمقتل أبيه. واخذ له البيعة، وشقي بهلال الذي أغرى به السلطان فنفاه إلى غرناطة، ثم استقدمه وولاه حرب بجاية، واتهمه بالتقصير فعزله سنة **17** ولحق بسليمان ويحي ابني علي بن سباع بن يحي، ثم استقدمه وسجنه بالجزائر، فلما سخط هلال ولاة اخذ له البيعة، وشقي بهلال الذي أغرى به السلطان فنفاه إلى غرناطة، ثم استقدمه وولاه حرب بجاية، واتهمه بالتقصير فعزله سنة **17** ولحق بسليمان ويحي ابني علي بن سباع بن يحي، ثم استقدمه وسجنه بالجزائر، فلما سخط هلالا ولاه مكانه وأخرجه من ذل السجن إلى عز الحجابة، ولم يزل عزيزا حتى هلك

مع سلطانه يوم الفتح. ونجا ابنه سعيد من الملحمة جريحا. فعفا عنه أبو الحسن. وكان له من بعد ذكر بالحكومة الزيانية.

وأما يحي بن موسى فمن بني سنوس بطن من كومية كانوا في حلف بني كمبي من عبد الواد. وخدموا يغمراسن. وظهر فضل يحي هذا أيام الحصار الطويل. فولاه أبو حمو مراقبة الحرس الليلي وضبط الأبواب وقسم القوت بمقدار على المقاتلة: وكان له إقدام في الحرب. فرفعت مترلته بعد الحصار. واستعمله أبو تاشفين الأول بشلف. ثم ولاه عمل القاصية وحرب بجاية بعد عزل الكردي. وكان هذا العمل من دلس إلى لمدية.ولما نزل أبو الحسن على تلمسان بايعه. فرفع مجلسه وهلك بعد الفتح .

وأما الزردالي فكان قومه أخوة عبد الواد من بني بادين. واندرجوا فيهم لقتلهم. وكان عبد الله هذا مشهورا بالبسالة والإقدام. فأعجب به أبو الحسن بعد دخوله تلمسان. فبعثه إلى درعة. وولاه بها أبو عنان. فاستألف عرب المعقل. وقطع الثوار. وقبض على أبي الفضل الثائر هناك. وبعث به إلى أخيه أبي عنان. فقتله. فلما ملك أخوهما أبو سالم خشية عبد الله. فلحق بابي حمو الثاني في ثورة من المال وعصبة من العشير وأولياء من العرب. فقلده لحينه وزارته. وفوض إليه تدبير ملكه. ولم يزل في عظمته حتى توفي بالوباء سنة **765**.

وأما مقن فهم أخوة بني زيان من أولاد طاع الله. استوزر منهم يغمراسن يحي بن مقن، ثم أخاه عمروش، ومات سنة **36** فخلفه ابنه عمر. ونفي يحي وابنه الزعيم إلى الأندلس. ثم عادا إليه فاستعمل الزعيم بن يحي

على مستغانم سنة **81** وما كاد يستقر بها حتى ظاهر مغراوة. وثار على يغمراسن فحاصره حتى دخلها ونفاه ثانيا إلى الأندلس، فلحق به أبوه يحي. وبقي أخوه علي بن يحي بتلمسان. وله ابن علمه داوود صار كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شوراهم. وولد لداوود يحي. فكان وزير عثمان الثاني.

ومن مشاهير رجال القلم أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب ومحمد بن عمر بن خميس ويحي بن خلدون، فأما ابن خطاب فهو مرسي أندلسي، وفد على يغمراسن مع جالية شرق الأندلس، فاستكبته، وصدرت عنه رسائل في مخاطبات خلفاء مراكش وتونس تنوقلت وحفظت، واستقدمه المستنصر الحفصي وبعث إليه بمال، فرده عليه، وأقام بتلمسان على خطته إلى أن توفي يوم عاشوراء سنة **681** قال في الإحاطة: **«كان كاتبا بارعا شاعرا مجيدا له مشاركة في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما» اهـ.**

وأما ابن خميس فتلمساني، استكتبه عثمان الأول، ثم انتقل إلى غرناطة فقتل بها سنة **708** وكان شاعرا مجيدا طويل النفس، أثنى عليه العبدري في رحلته على شحه بالثناء، وروى له قصائد، وشعره كثير.

وأما يحي فأخوا المؤرخ الكبير استكتبه أبو حمو الثاني، وألف في دولته بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، وكان كاتبا شاعرا، وله قصيدة في السيف والقلم ومراسلات مع لسان الدين بن الخطيب،

وقتله أبو تاشفين في رمضان سنة 780 لمماطلته بعقد ولاية ومران، وكانت المماطلة عن أمر أبي حمو.

ومن مشاهير رجال المال بنو الملاح، قرطبيون معروفون بالأمانة والدين حرفتهم سكة الدينار والدرهم، ووفدوا على يغمراسن، وعنوا بالفلاحة، فولى منهم على أشغاله عبد الرحمن بن محمد بن الملاح. ثم كانوا أصحاب دولة أبي حمو الأول وأضاف إليهم حجابته فتولاها محمد بن ميمون بن الملاح ثم ابنه محمد الأشقر ثم ابنه ابراهيم ومعه علي بن عبد الله بن الملاح. وقتلوا مع أبي حمو سنة 718 وانتهبت أموالهم .

ملوك آل زيان:

كان ملوك آل زيان يفوقون بني مرين والحفصيين حربيا وسياسيا. ولكنهم يفوقونهم كثرة. فظل الصراع مستمرا بين القوتين المعنوية والحسية بهجمات دولية أو إثارة قبائل قوية. حتى ان يغمراسن بلغت حروبه مع العرب خاصة اثنتين وسبعين. وعنوا بتحصين تلمسان وشحنها بالأقوات والمؤن حتى أنهم صبروا على الحصار الطويل الذي دام ثمانيي سنين وثلاثة أشهر وأياما. مات فيها من رجالهم زهاء عشرين ألفا ومائة وألف. ونالهم من الجهد وغلاء الأسعار ما لانظير له في التاريخ. أكلوا القطوط والفيران وأشلاء الموتى. وبلغ ثمن الفار عشرة دراهم والبيضة ستة دراهم والتينة درهمين. وقد أطال عبد الرحمن بن خلدون في بيان أسعار بقية المقتاتات.

وأخيرا نفدت مدخراتهم. و لم يبق من المقاتلة الا نحو الألف مشاة. فوطنوا أنفسهم على الاستماتة. ولكن الله فرج عنهم بقتل سلطان مرير. قال عبد الرحمن بن خلدون: «**حدثني شيخنا محمد ابن ابراهيم الابلي – وكان قهرمان دارهم– إن السلطان أبا زيان سأل صبيحة يوم الفرج خازن زرعه عما بقي. فقال له قوت اليوم فقط. ودخل أخوه أبو حمو فأعلمه. وبينما هم مطرقون اذ دخلت دعد وصفية زوج عثمان الحفصية. فقالت: لم يبق لمصارعكم غير فوارق ناقة وبنات زيان يقلن لاخير في العيش بعدكم. فأريحونا من معرة السبي! فامتنع أبو زيان – وكان شفوقا– من قتلهن – وراجعه أبو حمو فيه فقال لعل الله يجعل بعد عسر يسرا. فأرجئني ثلاثا وسرح بعدها إليهن اليهود والنصارى وتعال نخرج في قومنا افنستميت وأجهش بالبكاء وإذا برسول مرين ينعى له سلطانهم!»1هـ** بإيجاز.

وإلى جانب ما لهم من شجاعة حربية وأدبية نرى شهادة عدوهم عريف بن يحي شيخ المجالس الملوكية لهم بالسبق في ميدان السياسة. قال ابن خلدون: «**سمعته يقول موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة وانما كانوا رؤساء بادية فحد حدودها وهذب مراسمها واقتدى به اقتاله وأنظاره منهم»1هـ.**

وكان أبو تاشفين الأول أوسعهم مملكة وأغناهم خزائن وأكثرهم آثارا. وأبو حمو الثاني أعظمهم قدرا وأوفاهم من الخطوب كيلا. وعلو

كعبه في الحرب والسياسة والعلم والأدب يظهر لمن درس كتابه «**واسطة السلوك في سياسة الملوك**» وأيامه تكفل بتفصيل حوادثها صاحب زهر البستان. وخصها يحي بن خلدون بالجزء الثاني من كتاب بغية الرواد.

وكانوا أيام عظمتهم متحدين لا يتنازعون أمرهم بينهم. فأبو حمو أول من بايع أخاه أبا زيان. وقال يحي بن خلدون يذكر عثمان الثاني وأخاه أبا ثابت: «**استشعرا كلاهما أبهة الملك. ودان له الناس بالبيعة. ومضت أوامره في الإحكام والجبايات الا ان السرير والمنبر والدينار للسلطان عثمان، والجيوش والألوية والحروب للسلطان أبي ثابت مع تعظيمه لأخيه وبوره به، ورضي يوسف أخوهما الأكبر سكنى ندرومة للعبادة. ولم أقف بتاريخ على مثل هذه الإخوة»1هـ**. وأول من شرع العقوق منهم أبو تاشفين الأول، فكان هو سبب ثورة محمد بن يوسف على أبيه. ثم أقدم على قتله وسلك سبيله سميه بن أبي حمو الثاني. وكان أكبر أبنائه، منافسا لإخوته كثير الشكوك في أبيه، ولي عهده في جمادى الأولى سنة **774** واشتدت غيرته من المنتصر وأبي زيان وعمير، أمهم ميلية، وتولى أبو زيان منهم وهران، فطلبها أبو تاشفين من أبيه مزاحمة له، وما طله بها، فعدا على الكاتب ابن خلدون، ووضع على أبيه العيون خائفا ان يخلعه من ولاية عهده.

ولم يطب لأبي حمو المقام معه، فخرج إلى الجزائر موريا بإصلاح العرب. فرده أبو تاشفين من أسافل البطحاء، ثم أرسل إلى ابنه المنتصر

عامل مليانة بولاية الجزائر واحمال من المال وانه لاحق به متى وجد فرصة، فاطلع أبو تاشفين على ذلك أيضا، واستشاط غيظا، وخلعه سنة **88** واعتقله بقصبة وهران، واعتقل بتلمسان من بها، من إخوته، وتوجه نحو مليانة فاستولى عليها. وتحصن منه المنتصر بحصين. فأقام محاصرا له بتيطري وخشي أن يكيده أبوه وأخوته من خلفه. فبعث من يقتلهم. وبلغ أبا حمو مقتل أولاده. فصعد على سور القصبة مستغيثا بالوهرانيين. فأغاثه خطيبهم. وقام ببيعته. وتدلى إليهم بحبل وصله بعمامته! ودخل قصر الملك بتلمسان أوائل سنة **89**.

وبلغ الخبر أبا تاشفين. فأخذ السير إلى تلمسان. فدخلها. وكانت يومئذ عورة لهدم مرين أسوارها وحصونها. فالتجأ أبو حمو إلى مأذنة الجامع الأعظم. فاستنزله ورق له وبكى. وقبل يده. فاستأذنه أبو حمو في الحج. فأركبه من وهران ولكنه نزل ببجاية .

وأمده الحفصيون على استرجاع ملكه وطاف على العرب بصحرائهم. حتى جمع قوة دخل بها تلمسان في رجب سنة **90**.

ولحق أبو تاشفين بمرين مستنجدا أبا العباس أحمد. فأوعز أبو حمو إلى خليله الغني بالله محمد بن أبي الحجاج بن نصر بطلب أبي تاشفين من أبي العباس. فالح في طلبه. ولكن أبا تاشفين استهوى الوزير. فغلب على هوى أبي العباس. وأمده أواخر سنة **91** بجيش. فخرج أبو حمو إلى الغيران جنوب تلمسان ناحية سبدو. وأرهقته مرين عن الا صحار كعادته وكبا

به فرسه. فانقضى نفسه. واتى برأسه إلى ابنه. واسر له أخوه عمير. فقتله. واستحكمت القطيعة بين أبناء أبي حمو فأصبح بأسهم بينهم شديدا.

وأول ملوك آل زيان أبو يحي يغمراسن. ولد سنة **603** وبويع في ذي القعدة سنة **33** ومات برهيو منقلبه بعرس ابنه عثمان الحفصية آخر ذي القعدة سنة **81** ومن آثاره بناء باب كشواط سنة **68** وصومعتي جامعيي تلمسان القديمة والحديثة. ومنعه إخلاصه أن يكتب إسمه بهما. وكان آية في الجراءة والدهاء جليلا مهيبا حليما جوادا متواضعا مؤثرا لاهل العلم.

وخلفه ابنه ولي عهده أبو سعيد عثمان الأول ولد سنة **639** وتوفي بذي القعدة سنة **703** ويقال سم نفسه. وكان شهما مقداما محبوبا ذا سياسة وصبر.

وقدم بعده ابنه أبو زيان محمد الأول. ولد سنة **659** وتوفي في شوال سنة **707** وقال لسان الدين: أثناء الحصار. ونقله التنسي عن صاحب درر الغرر من الشاهدين للحصار. وكان رقيق القلب فاضلا مباركا حسن الملكة.

وخلفه أخوه أبو حمو موسى الأول. ولد سنة **665** وقتله ابنه في جمادى الأولى سنة **718** ومن آثاره تأسيس مدينة أقبو وبناء القصر المعروف باسمه على وادي تهل قرب مازونة، ويعرف اليوم بعمي موسى. وكان صارما حازما يقظا داهية ذا حدة وغلظة.

وتغلب على الملك قاتله أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ولد سنة **692** ودخلت عليه مرين المدينة في رمضان سنة **737** فوقف بباب قصره. وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه! وقاتل حتى قتل هو وأبناؤه عثمان ومسعود ويوسف وكبار دولته. وفي واسطة السلوك أن سبب الكائنة عليه اعتماده على حصانة المدينة وإمساكه عن العطاء. فلما كاد العدو يدخل عليه طلب من يأخذ ماله فلم يلقه. وقال ابن مرزوق: توطدت دولة عبد الواد بقتلهم أبا الحسن السعيد. وكان اسمر لام ولد. وختمت بقتل أبي الحسن المريني لهم. وهو بصفته حذو النعل بالنعل وكان أبو تاشفين فاضلا حميد السيرة رحب الجناب عظيم الخلق جميل الخلق. ذا آثار عظيمة. أخذت الدولة أيامه زخرفها وازينت. فأصبحت بسيوف مرين حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

وجددها أبو سعيد عثمان الثاني بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن. انخزل بقومه من جيش أبي الحسن في واقعة القيروان إلى العرب. وبايعه قومه ظاهر تونس آخر ربيع الأول سنة **749** فاتحد مع معـــــراوة وتوجين وارتحلوا إلى بلادهم في زهاء خمسمائة فارس، وقد انتشر سلك الأمن فخلصوا من غارة بني ونيفن ناحية باجة، وثربة ناحية بونة، وبني ثابت بجبلهم، وزواوة بجبل الزان وبلغ عثمان وقومه تلمسان في جمادى الثانية، فولى شؤون دولته أخاه أبا ثابت الزعيم فمهد المملكة، وما كاد يستريح حتى قصدهم أبو عنان، فاستولى على دولتهم وقتل عثمان في جمادى الأولى سنة **53** ثم أدرك أخوه أبو ثابت وقتل، فكان من حديثه مع

أبي عنان: «**إننا غلبنا كم رجلة فغلبتمونا بخنا**». وكان معروفا بالبسالة والفتوة. وكان عثمان شيخا محنكا داهية ذا عبادة ونسك.

وجدد الدولة أبو حمو موسى الثاني بن يوسف أخي عثمان الثاني قبض على عمه أبي ثابت بليزر من ساحة تلمسان، ونبت عنه العيون، فنجا إلى تونس، وأكرم مثواه عبد الله بن تافراقين وزير أبي اسحق الثاني، ولما دخل جيش أبي عنان تونس خرج هو مع أبي اسحق حتى نزلوا ساحة تبسة، فارتد أبو عنان إلى مغربه ، وردد أبو حمو الغارة على نواحي قسنطينة، وفتح ميلة ونزلها، وتزوج منها، واخرج مرين من جبل بني ثابت وقرية بني ورار، ثم ارتحل منها سنة **59** لما قدم الوزير سليمان بن داود بجيش لا قبل له به، فجهزه الحفصيون إلى وطنه ليشغل عنهم مرين، فسلك على عين السمارة قرب قسنطينة وجبل عياض وثنية غنية، وتزوج بالزاب، ودخل تلمسان في ربيع الأول سنة **60** وبويع بالخلافة وأبوه حي، ونهضت إليه مرين. فأجفل أمامها إلى الصحراء. واجلب على ممالكها حتى عادت إلى مغربها، فعاد هو إلى تلمسان بعد شهر، وقطعت دولته مرين ثم ابنه سبع مرات.

وكانت الصحراء حصنه الحصين، وخاطر بنفسه مرارا في طلب سلطانه، ومدح هذه المخاطرة في واسطة السلوك، وتمثل بقول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه　　وأيقن أنا لاحقان بقيصـــــرا
فقلت له لا تبك عينك إنمـــــا　　نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ولد بالأندلس أيام مقام أبيه بها سنة **723** وقتل غرة ذي الحجة سنة **91** وكان ممدوح لسان الدين واضرابه، وجمع الحافظ التنسي كتابا سماه **«راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الامداح».**

وخلفه ابنه قاتله أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني، ولد بندرومة أيام كان أبوه وجده بها سنة **752** وتوفي في ربيع الثاني سنة **95** وقضى أيامه في دعة وهناء قائما بدعوة مرين مؤديا لهم ضريبة سنوية، فقويت مطامعهم وكثر تحكمهم في عرش تلمسان. ولو طالت أيامه لرفع عن الدولة هذا الكابوس.

وخلفه ابنه ولي عهده أبو ثابت الأول وقتل لأربعين يوما. وخلفه قاتله عمه أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو في جمادى الأول. ولأشهر ملكت عليه مرين تلمسان.وقتله أخوه أبو زيان سنة **96** وحلاه التنسي بقوله: **«جند الجنود وعقد الألوية والبنود. وأمر الأيام فائتمرت وطافت بكعبته الآمال واعتمرت، إلى بيان جبل عليه وفصاحة ورحب جناب للوافدين وساحة »1هـ.**

وسلمت مرين تلمسان لأخيه أبي زيان الثاني، كان ثائرا على أخيه أبي تاشفين مطالبا بدم أبيه، واضطره العجز إلى الوفادة على مرين، فادخرته لعاقبة سياسية،، وسرحه سلطانها عبد العزيز إلى تلمسان، فدخلها غرة ربيع الثاني سنة **96** ونشط العلوم والآداب، وكان عالما شاعرا، وألف

كتاب «**الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة**» وكانت بينه وبين برقوق صاحب مصر مهادات وتنكرت له مرين. فأعانت عليه أخاه عبد الله، فأخرجه سنة **801** واغتيل سنة **805**.

وخلفه أخوه أبو محمد عبد الله الأول فباشر أموره بنفسه، ونهض بدولته نهوضا خشيته مرين، فأغارت عليه سنة **804** وأسرته.

وخلفه بإعانة مرين أخوه أبو عبد الله محمد الأول المعروف بابن خولة. ويلقب بالواثق بالله، وكان امثل الملوك المتأخرين رحب الفناء جزيل العطاء حليما عن الدماء محبوبا من الرعية. فاستراحت الأمة أيامه وكاد يعيد للدولة شبابها ومات سابع ذي القعدة سنة **813**.

وخلفه ابنه عبد الرحمن وخلع لشهرين وأيام. وخلفه خالعه عمه السعيد بن أبي حمو أواخر المحرم سنة **814** وعاثت منه يد الإسراف في أموال الدولة. وأمدت مرين عليه أخاه عبد الواحد فخلعه منتصف رجب، وذهب على وجهه.

وخلفه خالعه أخوه أبو مالك عبد الواحد. وكان شجاعا متناهيا في الحزم والجد مقتفيا آثار أبيه، استرجع الجزائر من الحفصيين. وحارب مرين في عقر دارها ونصب على كرسيها بعض حفدة أبي عنان. واخذ منها بثأر آل زيان فاشتدت بذلك صولته وامتدت دولته. وانتهى به تداخل مرين في عرش تلمسان ولكن هذه الدولة لا تخرج من أزمة الا إلى أخرى فثار عليه محمد ابن أخيه أبي تاشفين. واستمد الحفصيين. فنهض سلطانهم عزوز في جموعه معه، وبعد معارك دخلوا تلمسان. وفر عبد

الواحد إلى فاس. وانتصب بتلمسان سنة **827** أبو عبد الله محمد الثاني بن أبي تاشفين الثاني المدعو بابن الحمرة. وعاد عزوز إلى تونس بعدما انفق أكثر من عشرة احمال مالا في هذه الحركة.

وحاول عبد الواحد استرجاع ملكه. وعجزت مرين عن مظاهرته. فتوجه شطر تونس. وأرسل ابنه المستنصر إلى سلطانها عزوز. فرجع منه بكتاب يعده الإعانة على أن يقدم بنفسه إلى تونس. فقبضت على المستنصر عيون ابن الحمرة فقتله. وقطع ذكر عزوز من الكتب والخطبة. ولحق عبد الواحد بتونس. وعاد منها بجيش هزمه ابن الحمرة. فخرج عزوز نفسه معه. وفتح تلمسان في رجب سنة **31** وعاد عبد الواحد إلى ملكه.

وخرج ابن الحمرة إلى جبال بني يزناسن. ثم انتقل إلى جبال برشك وتنس واستألف عربها. وفتح تلمسان رابع ذي الحجة سنة **33** وقتل عمه عبد الواحد. فنهض إليه عزوز. وأخرجه إلى جبال بني يزناسن ثانيا. وحاصره بها. فزين له بعض أصحابه النزول إليه ليلين له. فرفعه معه إلى تونس. واعتقله بقصبتها حتى مات سنة **840**.

وخلفه عمه احمد العاقل بن أبي حمو. نصبه على كرسي أسلافه عزوز غرة رجب سنة **834** فضبط الأمور وأظهر العدل وأحسن السيرة. فطالت مدته وانتزع منه بعض آله وهران والجزائر. واستقل عن عزوز فخرج إليه. لكن مات في طريقه. فعاد الجيش إلى تونس، وكفى الله المؤمنين القتال، وهادى حافده أبا عمر عثمان سنة **62** فكافأه، وتغلب

عليه المتوكل غرة جمادى الأول سنة **66** وأجازه إلى الأندلس، فعاد لطلب ملكه، وحاصر تلمسان أسبوعين، ثم مات في ذي الحجة سنة **67** ودفن بالعباد.

وخلفه خالعه أبو ثابت الثاني محمد المتوكل بن أبي زيان محمد المستعين بن أبي ثابت الأول، فجمع آل زيان المشتتين شرقا وغربا، وأحسن معاملتهم وأدر عليهم الأرزاق، ومهد المملكة واخضع الرعية، وخرج إليه ابو عمر عثمان الحفصي سنة **66** فخضعت له سويد وعامر، واقتضى بيعة المتوكل وتماديا سنة **68** ثم استقل عنه المتوكل سنة **70** فخرج إليه وأخضعه ثانيا، ومات سنة **890**.

فخلفه ابنه تاشفين نحو أربعة أشهر أو أقل.

وخلفه أخوه أبو ثابت الثالث محمد، وعجز عن ضبط ممالكه الشرقية، فاضطرمت فتنة، ومات سنة **902**.

وخلفه أكبر بنيه أبو عبد الله محمد الثالث المعروف بالثابتي نسبة إلى جده أبي ثابي. وزاد ما بين سنتي **904- 906** في احباس أبي مدين ما قيمته مائتا دينار. ومات سنة **909**.

وخلفه أخوه أبو زيان الثالث المسعود، فخلعه عمه أبو حمو الثالث، الملقب عند أبي رأس بابي قلمس، وفي تحفة الزائر بابي كلمون، وسجن المسعود وملكت عليه اسبانيا المرسى الكبير سنة **911** ثم وهران سنة **14** وقيل **15** وثار عليه يحي أخو المسعود، واستبدل بتنس تحت حماية اسبانيا، وحاربها أبو حمو مرارا، واستأصل جيشها سنة **12** ثم ضعف عن

مقاومتها، فاحتمى بها. وأدى لها ضريبة سنوية مبلغها أثنا عشر ألف دوقة واثنا عشر فرسا وستة بزاة.

وغضبت الأمة عليه لاهانته الإسلام باحتمائه بالنصارى ولا ثقاله كاهلها بالضرائب لضيق مملكته. فاستدعت عروج بربروس. فدخل تلمسان سنة **23** وفر أبو حمو إلى وهران. وارتقى على العرش سجينه أبو زيان المسعود. وبعد أيام قلائل اخرج الأتراك من تلمسان محاولا للاستقلال. فعاد إليه عروج. وقتله في سبعة من قرابته ونحو الستين من عامة عبد الواد وزهاء ألف من التلمسانيين.

وزحف على الأتراك أبو حمو بنجدة اسبانية. فحاصر تلمسان ستة أشهر. ثم احتلها في جمادى الأولى سنة **24** وفر عروج فأدرك وقتل ومات أبو حمو ستة **24** نفسها.

وخلفه أخوه أبو محمد عبد الله الثاني بن المتوكل. وحاول قطع طمع اسبانيا وتركيا في تلمسان وابعد أخاه أبا سرحان مسعودا إلى فاس. ثم استرجعه. فعدل عنه إلى خير الدين بالجزائر. واستعانه على أخيه مقابل ضريبة سنوية ومبايعة سليم الأول العثماني. فأمده بالمال والجيش واخرج أخاه إلى وهران.

وملك مسعود تلمسان، ونقض طاعة خير الدين، فدعاه إلى الوفاء. فأساء الجواب، استثمر ذلك أخوه أبو محمد، فلحق بخير الدين وضمن له البيعة والضريبة فأيده.

عاد أبو محمد إلى تلمسان، ففر مسعود، وأخذ يغير عليه، فأمده خير الدين وانجلت الفتنة بالقبض على مسعود، واختلت أحوال خير الدين، فقطع أبو محمد طاعته ثم صلحت أحواله، فعاد إلى طاعته، ومات سنة **930**.

وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الرابع، واشتدت أيامه شوكة اسبانيا. وفتحت تونس، فخضع لها، واشترطت عليه ضريبة سنوية وتسريح أسارى النصارى وعدم منازعتها الاستيلاء على الجزائر وشرشال وتنس لكن الظروف حالت دون تنفيذ هذه الشروط.

وفي سنة **49** خلعه أخوه أبو زيان احمد بإعانة الأتراك وأقام جند منهم بتلمسان. فلحق أبو عبد الله بوهران. واتى بنجدة اسبانية استأصلها أبو زيان بشعبة اللحم في شوال ثم أعادوا الكرة. ودخلوا تلمسان في ذي الحجة وفعلوا بأهلها الأفاعيل قتلا ونهبا واعتداء على الحرم.

عاد أبو عبد الله إلى عرشه. وهجم عليه أخوه أبو زيان سنة **50** وبعد معارك خذل أبو عبد الله لجنايته على تلمسان بإدخال النصارى إليها. وعاد أبو زيان إلى عرشه. فلحق أخوه بوهران. وأسرع العود بنجدة اسبانية. فقتل. وهزمت نجدته شر هزيمة.

وفي أواسط شعبان سنة **52** استولى حسن بن خير الدين على تلمسان. فلحق أبو زيان بدبدو. وغدر به صاحبها عمر بن يحي الوطاسي. فاعتقله ووزيره منصور بن أبي غانم ومن معه من آل زيان. ونهب أموالهم. ثم سرح منصور في محرم سنة **53**.

وفي جمادى الأولى سنة **57** أخرج السعديون المتغلبون بفاس أبا زيان أحمد من تلمسان. فلحق بوهران. ولا ادري كيف كان خلاصه من صاحب دبدو ويظهر ان السعديين لما دخلوا فاس سنة **56** سرح الوطاسيون أبا زيان ليحفظ تلمسان منهم. واخرج الأتراك السعديين من تلمسان في نفس سنة **57** ودخلت حكمهم.

ملوك تلمسان

الولاية الملك	هـ	م
يغمراسن بن زيان	633	1236
ابنه عثمان الأول	681	1283
ابنه أبو زيان الأول	703	1304
اخوه أبو حمو الأول	707	1308
ابنه أبو تاشفين	718	1318
استيلاء مرين الأول	737	1337
عثمان الثاني	749	1348
استيلاء مرين الثاني	753	1352
أبو حمو الثاني	760	1359
ابنه أبو تاشفين الثاني	791	1389
ابنه أبو ثابت الأول	795	1393
عمه يوسف	795	1393
اخوه أبو زيان الثاني	796	1394
أخوهما عبد الله الأول	801	1398
أخوهم أبو عبد الله	804	1402
الأول	813	1411
ابنه عبد الرحمن	814	1411
عمه السعيد	814	1411
أخوه عبد الواحد		
أبو عبد الله الثاني بن أبي تاشفين	827	1424

الملك	هـ	م
عود عبد الواحد	831	1428
عود أبي عبد الله	833	1430
احمد العاقل بن أبي حمو	834	1431
أبو ثابت الثاني المتوكل	866	1462
ابنه تاشفين	890	1485
اخوه أبو ثابت الثالث	890	1485
ابنه أبو عبد الله الثالث	902	1496
عمه أبو حمو الثالث	909	1503
ابن أخيه أبو زيان الثالث	923	1517
عود أبي حمو	924	1518
اخوه عبد الله الثاني	924	1518
اخوهما مسعود	925	1519
عود عبد الله	؟	؟
ابنه أبو عبد الله الرابع	930	1524
اخوه أبو زيان الرابع احمد	949	1542
عود أبي عبد الله	949	1543
عود احمد	950	1543
الاستيلاء التركي	957	1550

مغراوة وبنو زيان:

موطن مغرواوة شمال وانشريس ووادي شلف إلى البحر. ينتهي شرقا إلى وادي السبت قرب متيجة وغربا إلى البطحاء ناحية نهر مينة. يشتمل على جبال شاهقة وسهول خصبة ومدن عامرة. منها مليانة وواجر شرقيها ومازونة وتنس وبرشك وشرشال.

وغلبوا أيام منديل بن عبد الرحمن على وانشريس ولمدية. واختطوا قصبة سيرات. وخربوا عمران متيجة. وكان أهلها على ما يحكى يجمعون في ثلاثين مصرا. ثم ظهرت توجين بوانشريس ومليكش والثعالبة بمتيجة. فانقبضوا إلى وطنهم القومي.

ولم تفارق مغراوة ورؤساؤها حياة الظعن. فكانوا بداة وأمر المدن إلى مشائخ من أعيانها. وربما استبد بعض الشيوخ بمدينته. ففي سنة **659** استبد بمليانة أبو علي الملياني حتى أخرجه الحفصيون من سنته. وفي سنة **63** استبد ببرشك زيري بن حماد المكلاتي المدعو زيرم. وشغلت عنه الدول حتى قتله بنو عبد الواد سنة **708**.

وقد دخل العبدري مليانة سنة **689** فكتب عنها ما خلاصته: **«مدينة حصينة مجموعة مختصرة. وليست عن أمهات المدن مقصرة أشرفت من كثب على وادي شلف في روضة جمة الأزهار والطرف وفرعت في سفح جبل حمى حماها أن يرام وشرعت في اصل نهر يشفى من الهيام وبها جامع مليح عجيب»1هـ.**

ثم أخذ يندب أفول نجم العلم والأدب بها بقصيدة على لسان حالها، مطلعها:

زمان لذي عهد الشبيبة قد عسا أعلل فيه النفس علي أو عسى
لعل ربوعا من حلاها عواريـــا تعود لها تلك المفاخرة ملبســا
لعل نجوما كنت هالـــة بدرها ستجلو ظلاما حل أفقي فالبسا

وبرشك بين تنس وشرشال. قال الإدريسي: «**هي مدينة صغيرة على تل بضفة البحر عليها سور تراب. وشرب أهلها من عيون عذبة. وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير**»اهـ. وقال الدمشقي: «**بلدة صغيرة كثيرة الانجاص والتين والعنب الأسود**»اهـ.

ومازونة اختطها أبو منديل عبد الرحمن من رؤساء مغراوة سنة **565** قال الإدريسي: «**هي على ستة أميال من البحر شرقي حوض فروخ بين أجبل ذات أنهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مؤنقة من أحسن البلاد بقعة وأكثرها فواكه وألبانا وسمنا وعسلا**»اهـ.

وكانت مغراوة كبني عبد الواد على الدعوة المؤمنية حتى وطئ أرضها أبو زكريا الحفصي سنة **632** فبايعته. وخالفت بذلك سياسة عبد الواد. فأوجدت السبيل عليها ليغمراسن بن زيان، ونهض إليها فعجزت عن مقاومته. واستصرخت أبا زكريا فاصرخها. واحتل تلمسان سنة **40** فبايعه يغمراسن. وعقد أبو زكريا على مغراوة لرئيسها العباس ابن منديل،

ومنحه الاستقلال الداخلي. واتخذ بحضرته الآلة وشارة الملك. ولكن هذه القوة الأدبية لم تثبت أما قوة يغمراسن الحقيقية. فأجلب على مغراوة حتى استقامت على ولائه. ولم تنتفع ببيعة الحفصيين الذين كانوا في شغل عنها، وغنما عقد لها خالد بن أبي زكريا المنتخب ـ وهو ببجاية ـ حلفا مع صنهاجة فصار رؤساؤها يلتجئون إلى جبال صنهاجة متى غلبوا على بلادهم، وشعرت بضعف فائدة هذه البيعة فحولت وجهها شطر مرين فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولم تكن لسياستها هذه من نتيجة خارجية غير شغل آل زيان، ولا داخلية غير تشتيت شملها، فقد لحق كثير من أبطالها بغرناطة مرابطين للجهاد ومنهم من لحق بالحفصيين أو مرين.

ابتدأ يغمراسن حربه لمغراوة بالتضريب بين بني منديل رؤسائها فقتل عابد وثابت ابنا منديل أخاهما محمدا سنة **662** بالخميس من بسائطهم. فاختلفت كلمة مغراوة بعده. وجاس يغمراسن خلال معاقلهم سنة **66** حتى بلغ متيجة وأمكنه عمر بن منديل من مليانة سنة **68** على ان يعينه على رئاسة قومه. فخرج لإعانته سنة **72** وباع منه عابد وثابت بعد حروب تنس باثني عشر ألف دينار. ومات عمر. وأجاز عابد إلى الأندلس. وخلا وجه مغراوة لثابت. فاسترجع مليانة وتنس. وغلبه يغمراسن على تنس سنة **81**.

وخلف يغمراسن ابنه عثمان. فأثخن في بلاد مغراوة. وملك مازونة سنة **86** وتنس سنة **88** وأعان ثابت سلطان مرين في حصار تلمسان سنة **89** فانتقم منه عثمان حتى ألجأه إلى جبال صنهاجة ثم عاد إليها سنة **93**

حتى ألجأه إلى برشك، فحاصره بها أربعين يوما، ثم ركب البحر في أهله وولده إلى يوسف سلطان مرين، فأكرم مثواه، وقتله بعض مرين سنة **94** فكفل السلطان أهله وولدهن وتزوج حافدته، وبقي ابنه محمد أميرا في قومه، ومات بعده بقليل.

واستكانت مغراوة لبني زيان ثم لمرين أثناء حصارهم الطويل لتلمسان، وبعد تغلبهم عليها، وولي يوسف بن يعقوب منهم عمر بن ويعزن بن منديل ثم ابنه محمدا، وكان راشد بن محمد بن ثابت يأمل من صهره أن يؤثر بإمارة قومه، فلما خاب ظنه ـ كما سيخيب ظن الفضل الحفصي في صهره أبي الحسن ـ ثار عليه، وملك مازونة سنة **700** وشغل مرين حتى ألحقوه بزواوة سنة **704** وعاد بعد مقتل صهره إلى قومه، فأجلاه أبو حمو الأول إلى زواوة أيضا سنة **708** فلحق بالجيش الحفصي. وكان ذا مكانة في الدول لفضل شجاعته وكرم أصله وقتله عبد الرحمن. بن خلوف الصنهاجي في ملاحاة بينهما حوالي سنة **711** ولحق ابنه علي بعمته لدى سلاطين مرين.

وبعد واقعة القيروان على أبي الحسن سنة **749** تحالفت مغراوة وعبد الواد بظاهر تونس على التناصر واحترام الحدود الوطنية، وبايعت مغراوة علي بن راشد فدخل وطنه واخرج عمال مرين من مدنه، ثم خرج أبو ثابت من تلمسان لحرب الناصر بن أبي الحسن سنة **50** وبمقتضى المعاهدة أرسل إلى علي بن راشد في اجتماع اليد. فقعد عنه، فلما هزم الناصر نهض إلى مغراوة في شوال، وهزمهم بوادي رهيو. وملك مازونة ثم

اجتمعوا لحرب أبي الحسن حتى هزموه سنة **51** ثم اجتاز بمغراوة أحد بني كمي من عبد الواد، فقتلوه، فأوجدوا السبيل عليهم لأبي ثابت. فنهض إليهم فاتح سنة **52** وبقي موافقا لهم حتى ألجأ عليا إلى تنس، ودخلها عليه منتصف شعبان، فانتحر، وانتهت به إمارة مغراوة ثانيا. وكان علي قد استشفع بأبي عنان، فرد أبو ثابت شفاعته، وكان ذلك مما دعاه إلى فتح تلمسان، فكان عود دولتي مغراوة وعبد الواد وسقوطهما معا.

وكان لعلي ابن اسمه حمزة نشأ بين أبناء سلاطين مرين، وفي نفسه تشوف لاسترجاع ملك سلفه فلما دخلت مرين تلمسان سنة **72** لحق بقومه، وجدت مرين في حربه حتى قتلته، ثم ولت على مغراوة سنة **74** علي بن هرون بن ثابت بن منديل، وكان وليا لها عدوا لعبد الواد، فبادر أبو حمو الثاني بحربه حتى أجلاه إلى جبال صنهاجة، وعاد سنة **75** فحصره أبو تاشفين بن أبي حمو بجبل زاتيمة، وأخرجه من أرض مغراوة في ربيع الأول سنة **76** فلحق ببجاية. وركب منها إلى فاس. ونامت بعده إمارة مغراوة نومها الأخير.

أمراء مغراوة

الأمير	ولاية (هـ)	م	نهاية (هـ)	الأمير	ولاية (هـ)	م	نهاية (هـ)
العباس بن منديل	640	1242	647	عمر بن ويعزن	699	1299	700
اخوه محمد	647	1249	662	ابنه محمد	700	1300	707
اخوهما عابد	662	1264	672	راشد بن محمد بن ثابت	700	1300	708
اخوهم عمر	668	1269	676	ابنه علي	749	1348	752
اخوهم ثابت	676	1277	694	ابنه حمزة	772	1370	772
ابنه محمد	694	1294	694	علي بن هرون	774	1372	776
اخوه علي	694	1295	؟				

توجين وبنو زيان:

موطن توجين شرقي عبد الواد وجنوب مغراوة فيما بين سعيدة ولمدية، وحياهم بدوية كمغراوة يبلغون في رحلة الشتاء مزاب والزاب الغربي، وبموطنهم جبل وانشريس وسهل منداس ووزينة والسرسو، وبه من القلاع الحصينة تاوغزت وتاقدمت وتافرقينت ولمدية، وغلبهم بطون من زغبة على السهول فانقبضوا أخيرا إلى ونشريس.

وجبل وانشريس جبل عظيم شماله نهر شلف وغربه سهل منداس وجنوبه سهل وزينة غربا وسهل السرسو شرقا، قال الادريسي: «**يسكنه قبائل بربرية منها مكناسة وحرسون وواربة وبنو أبي خليل وكتامة ومطماطة وبنو مليلة وبنو ونجان وبنو أبي خليفة ويصلان وورولات وبنو تمسوس وزوارة ونزارة ومطغورة ووارترين وبنو أبي هلال وايزكرو**

وبنو أبي حكيم وهوارة، وطوله أربعة أيام ينتهي طرفه إلى قرب تاهرت»1هـ.

وينسب إليه علماء كثيرون، منهم أبو علي عمر بن عثمان ويونس ابن عطية والحسن بن عثمان بن عطية، لقيهم لسان الدين بن الخطيب بالمغرب، وعدهم من شيوخه، ومنهم محمد بن أبي بكر خطيب جامع الزيتونة المتوفي سنة **853**، ومنهم احمد بن يحي صاحب المعيار المتوفي سنة **914** وابنه عبد الواحد القتيل بفاس سنة **955**.

وتاغزوت قلعة منيعة قرب فرندة، حصنها سلامة بن علي بن نصر شيخ بني يدللنن على عهد عبد القوي بن العباس، وتداول رئاستها بنوه من بعده، فدعيت قلعة ابن سلامة، وخربها أبو حمو الثاني سنة **770**.

وتاقدمت قرب تاهرت، خربت بتوالي الفتن، وعمرها الأمير عبد القادر وعمارة بسيطة، ذهبت بعده. وتافرقينت ذكرها ابنا خلدون عاصمة لمحمد بن عبد القوي وسمى غيرهما عاصمته تاقدمت.

وقد كانت توجين مشاقة لبني عبد الواد. فأخذت بالدعوة الحفصية، وعقد أبو زكرياء الأول عليها سنة **640** لعظيمها عبد القوي ابن العباس من بني منكوش وربما نسب في آل البيت، وسلك بها سبيل العباس بن منديل .

وامتنعت توجين على آل زيان مدة عبد القوي وابنه أبي زيان محمد. فنازلوها مرارا من غير طائل، وإلى عبد القوي يغمراسن آخر حياته، ومات سنة **647** فخلفه ابنه محمد، وعظم سلطانه، وولى بلمدية حسن بن

يعقوب بن عزيز من توجين وبوانشريس أخاه شريطا وبرهيو علي بن عشيرة ، وبتاوغزوت سلامة بن علي شيخ بني يدللتن، وقدم على بني يرناتن شيخهم ابن أخته نصر بن مهيب بن نصر بن علي، ووفد على المستنصر الحفصي بالمسيلة سنة 666 ثم ذهب لإعانته على دفاع لويس التاسع، وأعان يعقوب بن عبد الحق على حصار تلمسان والعيث في ساحتها سنتي 70– 80 واستفاد من هذين السلطانين أموالا جمة، وسعدت به توجين حتى مات سنة 684.

وخلفه ابنه سيد الناس. وكان دونه قيمة، فاختلفت عليه توجين، وضرب عثمان الأول من آل زيان رؤسائها، فقتل بنو عبد القوي بعضهم بعضا. واستبد بنو نصر بن مهيب برئاسة قومهم يرناتن وأولاد عزيز بلمدية وأولاد سلامة برئاسة قومهم يدلتن.

وبهذا الخلاف اوجدوا السبيل عليهم لعثمان الأول فملك وانشريس سنة 87 ولمدية سنة 88 وكرر غاراته على محاولي الثورة منهم. وقتل شيخ يدللتن يغمراسن بن سلامة سنة 98 فبايعه أخوه محمد، وحوصرت تلمسان الحصار الطويل فلم تسع توجين في توحيد كلمتها بل ازدادت تفرقا وأمكن شيخ بني تيغرين يحي بن عطية مرين من وانشريس. فملكته سنة 703 بعد حروب.

ففي سنة 85 قتل موسى بن محمد بن عبد القوي أخاه سيد الناس، وانتصب مكانه، وحارب مشيخة توجين بسيرات، فقاتلوه وتردى به فرسه، فهلك لنحو عامين من أمارته، وخلفه عمر ابن أخيه إسماعيل،

وبعد أربعة أيام اغتاله أبناء عمه زيان بن محمد، وقدموا كبيرهم إبراهيم بن زيان، وكان حسن الولاية عليهم. وكاد يحي عهد جده محمد، فقتل بإغراء عثمان الأول سنة 90 وبايع بنو تيغرين ابن عمه موسى بن زرارة بن محمد. فأجلاه عثمان إلى نواحي لمدية. وهلك هناك. وحوصر عثمان بعد. فملك وانشريس أبو بكر بن إبراهيم بن محمد بن عبد القوي نحو عامين. وهلك. فبايع بنو تيغرين أخاه عطية الأصم. وخالفهم أولاد عزيز وبقية توجين. فبايعوا ابن عمه يوسف بن زيان بن محمد. وحاصروا بني تيغرين بوانشريس عاما وأزيد. فملك العرب السرسو. ولحق يحي ابن عطية بالسلطان يوسف. فأغراه بوانشريس أنفة من غلبة بني عمه .

ولما ملك مرين توجين ولت بوانشريس علي بن الناصر بن عبد القوي وأمره بيد يحي بن عطية شيخ بني تيغرين، بتاوغزوت سعد ابن سلامة، ولحق أخوه محمد بجبل راشد، ثم هلك علي بن الناصر، فخلفه محمد بن عطية الأصم. وانتقض على مرين سنة 706 قبيل مهلك سلطانهم. وعاد الأمر لبني زيان. فاخضعوا توجين. وأجلوا آل عبد القوي. فلحقوا بالحفصيين.

ففي سنة 710 جاس أبو حمو الأول خلال معاقلهم. ورفع منزلة بني تيغرين وأولاد عزيز. وكانوا خولا لآل عبد القوي يغرفون بالحشم. فعقد على وانشريس لحي بن عطية بن يوسف بن المنصور. وعلى لمدية ليوسف بن حسن بن يعقوب العزيزي. وأبقى سعد بن سلامة على بني يدللتن. وجعل أمر توجين راجعا لعامله يوسف بن حيون الهواري. هلك

يحي بن عطية. فخلفه أخوه عثمان ثم عمر ابن عثمان. وكونت ثورة محمد بن يوسف من آل زيان. فخبت فيها توجين ووضعت ثم استقام يوسف بن حسن على طاعة أبي حمو سنة **17** وإلى عمر بن عثمان أبا تاشفين الأول. وأعناه على قتل محمد بن يوسف سنة **19** فأبقاه على رئاسته. وعزل عن تاوغزوت سعد ابن سلامة بأخيه محمد. وانحصرا معه سنة **35** وماتا في بعض أيام الحصار. وملك أبو الحسن المريني توجين سنة **36** فاستعمل على وانشريس نصر بن عمر بن عثمان. وأعاد إلى تاوغزوت سعد بن سلامة إلى أن مات في طريق عوده من الحج. فخلفه ابنه سليمان.

وبعد نكبة أبي الحسن على القيروان ظهر بنو محمد بن عبد القوي طامعين في استرجاع إمارتهم لكنهم اختلفوا. فبايع أولاد عزيز وبنو يرناتن بنواحي لمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد. وبايع بنو تيغرين وشيخهم نصر بن عمر مسعود بن أبي زيد بن خالد بن محمد. وكانت وقائع بين الفريقين. ولم يتم أمر عدي فلحق بابي الحسن لما نزل الجزائر. وعادت تلمسان لآل زيان. وملكوا توجين فأبقوا على رؤسائهم.

وفي سنة **53** ملكهم أبو عنان. فالحق مسعود بن أبي زيد وسليمان بن سعد بوجوه جنده. وأفرد نصر بن عمر بأمر وانشريس. وأقطع تاوغزوت ونزمار بن عريف. ثم ملك أبو حمو الثاني فأعاد سليمان بن سعد إلى عمله. وكانت ثورة أبي زيان. فغمست توجين يدها فيها. ومات نصر بن عمر أثناءها. فخلفه أخوه يوسف وقتل أبو حمو سليمان.

وأقطع تاوغزوت أولاد عريف. وانقرضت الرئاسة من سائر بطون توجين إلا بني تيغرين بجبل وانشريس. قال ابن خلدون: «**ويوسف بن عمر لهذا العهد وهو سنة 783 صاحب جبل وانشريس. وحاله مع أبي حمو مختلف في الطاعة والخلاف**».

الثوار من بني زيان:

كان ملوك بني زيان أولي حزم وضبط متى رأوا بأحد من أقربائهم مخايل المزاحمة في الدولة أشخصوه إلى الأندلس ليشتغل بالجهاد ويستريحوا من فتنته.

وفي سنة **714** نزل أبو حمو الأول بوادي نهل موافقا لمغراوة. وترك ابنه أبا تاشفين على تلمسان وسرح للغارة على بلاد الحفصيين محمد بن يوسف بن يغمراسن قائد مليانة في قواد آخرين منهم موسى ابن علي الكردي ومسعود بن إبراهيم بن يغمراسن. فتفرقوا في البلاد. واجتمعوا بظاهر بونة. ثم قفلوا. فتنافسوا، وتنازعوا. وسبق الكردي إلى أبي حمو. فاغراه بابن عمه محمد بن يوسف وبقي مسعود بن إبراهيم محاصرا لبجاية.

ولما بلغ محمد بن يوسف وادي نهل عزله السلطان، فسأله زيارة ابن أخته أبي تاشفين، فأذن له، وكتب إلى ابنه بالقبض عليه، فأبى، وعاد محمد بن يوسف إلى السلطان، فأهانه، فخشي على نفسه وفر إلى لمدية، فاعتقله عاملها يوسف بن حسن التوجيني، ولكن قومه اشربوا في قلوبهم الفتنة،

فحملوه على بيعته وخرجوا فيمن انضم إليهم من العرب، فهزموا أبا حمو إلى تلمسان.

ونزل محمد يوسف مليانة. واجتمعت إليه توجين ومغراوة، وعاد إليه أبو حمو واستقدم مسعود ابن عمه إبراهيم من حصار بجاية، فترك محمد بن يوسف بمليانة يوسف بن حسن، ولقي مسعودا بمتيجة. فانهزم إلى جبل موصاية وحاصره مسعود به أياما. ثم لحق بابي حمو وهو محاصر مليانة. فدخلها عنوة ثم فتح لمدية. وقفل إلى تلمسان. وعاد سنة **17** لتمهيد مغراوة وتوجين، وترك بلمدية يوسف بن حسن ـ وقد استقام على طاعته ـ موافقا لمحمد بن يوسف.

وبايع محمد بن يوسف أبا يحي الحفصي. فوعده المظاهرة. وبايعه بنو تيغرين. فانتقل إلى وانشريس. ولحق به سماسرة الفتن من مغراوة وغيرهم. حتى قتل أبو تاشفين أباه. ونهض إليه سنة **719** فمال إليه عمر بن عثمان صاحب وانشريس وانحصر محمد بن يوسف فيمن معه بربوة توكال منه حتى اقتحمها عليه أبو تاشفين وقتله، ولو امتثل أمر أبيه أولا بالقبض عليه ما كانت هذه الثورة .

وفي سنة **761** تكدر جو السياسة بين أبي حمو الثاني وأبي سالم المريني وكان بنو عبد الحق قد كفلوا أبا زيان محمد بن عثمان بن أبي تاشفين الأول بعد قتلهم جده وأباه، فسرحه أبو سالم لطلب ملكه، فنزل بمن معه من المعقل وغيرهم على جبل بني يزناسن، وبايعه بنو راشد شرقا. فنهض أبو تاشفين إلى بني راشد غرة ربيع الأول، وحصرهم بجبل

أوشيلاس من غربس. وخرج أثره الوزير عبد الله ابن مسلم الزردالي إلى بني يزناسن فأجلى أبا زيان إلى المغرب.

وفي شعبان دخل أبو سالم تلمسان، وغادرها بعد أيام إلى مغربه، وترك بها أبا زيان في جند من مغراوة وتوجين، فأخرجهم منها أبو حمو في رمضان. ولحق أبو زيان بأولاد عريف، وثبت على بيعته الهداج وسويد وتوجين وبنو راشد وبعض بني عبد الواد، فانتقل إليهم، ولم يمهلهم أبو حمو، فخرج في رمضان إلى تسالة ثم منداس ثم السرسو، فاصحر أبو زيان وشيعته في ذي القعدة، ثم عاد إلى أرض حصين في ذي الحجة، وأبو حمو بشلف، فأجلاه عنها، وعاد إلى حضرته فاتح سنة **62** وغرب أبو زيان إلى ذوي عبيد الله بانقاد، فطرده الوزير الزردالي إلى تاوريرت، وانعقد الصلح بين أبي سالم وأبي حمو، فانتهت الفتنة.

وفي سنة **65** أعادت مرين أبا زيان لطلب مكله، فأضرم الممالك الشرقية والغربية فتنة، وكاد يفتح تلمسان وهزم أبا حمو بوادي مينة. فاعتمد التضريب بين جموعه حتى اختلفت كلمتهم، وراجع طاعته أركان الفتنة عمر بن محمد بن مقن وسعيد بن موسى بن علي الكردي وغيرهما، فنزل أبو زيان بقصر مرادة على ونزام بن عريف مذكي هذه النيران.

وفي سنة **763** ثار أيضا أبو زيان محمد بن السلطان عثمان الثاني وكان أبو عنان قد استحياه بعد قتل أبيه وعمه الزعيم، وبقي تحت أيدي بني عبد الحق، حتى انفلت منهم. ونزل على خالد بن عامر من شيوخ بني عامر، فبايعه. وزحف أبو زيان إلى تلمسان، ونزل جبل بني ورنيد،

فاجلي في شوال إلى رياح، ووفد به يعقوب بن علي على إبراهيم الثاني الحفصي ببجاية، ففر سنة **64** إلى أبي الليل شيخ بني يزيد فبايعه. وخرج إليه الوزير الزردالي فأخضعه، ولحق أبو زيان بتونس.

ثم استقدمه سعاة الفتنة من تونس، فأسره أمير قسنطينة احمد، وملك هذا الأمير بجاية سنة **67** فخرج أبو حمو لحربه، فأرسل عليه أبا زيان، ومال إليه أكثر جيش أبي حمو، فكانت عليه أشنع هزيمة، وعظمت فتنة أبي زيان بمبايعة أكثر بطون زغبة، وملك الجزائر ولمدية ومليانة. وشغل به أبو حمو أربع سنين كانت اشد عليه من سني يوسف وأوقع به أبو زيان على تيطري في شعبان سنة **69** وقيعة استأصلت قوته وكاد هو نفسه يؤسر، وشهد هذه المعركة يحي بن خلدون ووصف انكسارهم وما لقوا في قفولهم من شدائد تفيض لسماعها نفس الجبان واقترب أبو زيان من تلمسان سنتي **68-69** ثم ملكها عبد العزيز سنة **72** فاصحر أبو زيان وأبو حمو كلاهما .

وعاد أبو حمو إلى تلمسان بعد موت عبد العزيز فعاد أبو زيان إلى تيطري في صفر سنة **75** وعادت الحرب جذعة. وكان أولاد عريف من سويد ذوي نفوذ في العرب والبربر. وبهم تقوى أبو زيان. وبهم فتح عبد العزيز تلمسان ففي سنة **76** استقاموا لأبي حمو وتعهد لهم بمنح ابن عمه جراية سنوية. فانتهت الفتنة ثم إن أبا حمو أراد الانتقام من أركان هذه الثورة، فعزم على عزل يوسف بن عمر صاحب وانشريس. وكان أبو بكر بن عريف خليلا له، فنبذ طاعة أبي حمو. وانشريس. وكان أبو بكر

بن عريف خليلا له، فنبذ طاعة أبي حمو. واستقدم أبا زيان سنة **777** فاسترضى أبو حمو أبا بكر. وانقبض أبو زيان إلى سهل حمزة نازلا على أبي الليل اليزيدي، ثم استقدمته الثعالبة سنة **78** فأجلاه أبو حمو، ولحق بوادي ريغ فنقطة فتوزر فتونس.

وفي تونس سنة **838** ثار على أحمد العاقل أخوه أبو يحي، وعجز عن فتح تلمسان ولكنه ملك وهران، فكانت بينه وبين أخيه حروب إلى أن غلب على وهران في شعبان سنة **52** فركب البحر إلى بجاية فتونس، وبها مات سنة **55**.

وفي سنة **838** ثار على أحمد العاقل أخوه أبو يحي، وعجز عن تاشفين الثاني فبايعه أولاد أبي الليل أهل حمزة ثم أهل متيجة ونواحي لمدية، وحاصر الجزائر مدة طويلة حتى فتحها في رجب سنة **42** ثم ملك لمدية ومليانة وتنس، واستقل بهذه الناحية الشرقية، وتلقب المستعين وعظم أمره على عم أبيه أحمد العاقل، وثقلت وطأته على أهل الجزائر ونواحيها، فقتلوه في جملة من أصحاب ثاني شوال سنة **43** وكان إبنه المتوكل عاملا بتنس، فضبط وطن مغراوة حتى ملك تلمسان سنة **866**.

وقد أضربنا عن ذكر ثورات ضعيفة، وقدمنا الثوار الناجحين في فصل الملوك.



جامع الصيد "الجامع الجديد" الجزائر

الاقتصاد والعمران والحضارة:

المملكة الزيانية فلاحية بطبيعة أرضها تجارية بطبيعة موقعها صناعية بطبيعة سكانها والقاح الجاليات الأندلسية والأسرى الاروبيين .وقد هضمت حضارات الدول الجزائرية الأولى. وأحرجت بعناية ملوكها ونشاطهم حضارة زيانية ذات صبغة ممتازة. وبها ختمت الحضارات الجزائرية المحلية .

ولقد كان حبل الأمن بالبوادي مضطربا لا يستقر غالبا على حال من الفتن غير أن المدن سائرة في سلم رقيها تغتذي بفترات السلم القصيرة. وقد شكا العبدري سنة **689** فقد الأمن من فاس إلى الاسكندرية. واعتبر ابن قنفذ نجاته من تلمسان إلى قسنطينة سنة **776** من خوارق العادات. ولكن يجب أن نقصر حكمها على ما ماثل سنتيهما في الجوائح السياسية والحربية .

وكانت الفلاحة بهذه المملكة أهم منابع الثروة. وفلاحة القمح في الدرجة الأولى ويليها غراسة الزيتون. قال يحي ابن خلدون: «**ربما بلغت إصابة الزوج الواحدة كما في سنة 758 اربعمائة مد كبير من القمح سوى الشعير والباقلاء. والمد ستون برشالة زنة البرشالة ثلاثة عشر رطلا**»**1**هـ.

وكان من أنواع الفلاحة القطن والكتان وقصب السكر وسائر الحبوب والثمار والفواكه والبقول والرياحين، مع عناية بترقية أساليب الفلاحة واستخراج المياه واستجلابها.

ولهذه المملكة مواصلات تجارية أهمها أروبا والسودان. فقد كانت لها مراس كثيرة عني البكري بتعدادها ووصفها وذكر ما يقابلها من مراسي الأندلس. وكانت مدينة تيزيل جنوب تلمسان أول الصحراء ومنها تخرج القوافل إلى سجلماسة وورقلة، وهما بابا السودان.

وأول شركة صحراوية عرفناها هي شركة المقريين الذين استوطن تلمسان جدهم عبد الرحمن بن أبي بكر صاحب أبي مدين، نقل لسان الدين في الإحاطة عن شيخه أبي عبد الله المقري انه كان لجده أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن أربعة إخوة اشتركوا في التجارة. ومهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار، واتخذوا طبلا للرحيل وراية تقدم عند المسير، وكان أبو بكر ومحمد بتلمسان وعبد الرحمن بسجلماسة وعبد الواحد وعلي بايوا لاتن الواقعة في الشمال الغربي لتنبكتو على بعد اربعمائة ميل، فكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، وذاك يرسل له بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي بينهما كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران ويكاتبهما بأحوال التجار والبلدان فاتسعت أموالهم وعظم شأنهم اهـ.

وقد دخل ليون الإفريقي تلمسان أواخر القرن التاسع، فوصف تجارها وأرباب الحرف بالنشاط والعفة ورغد العيش. وفضل لباسهم على

لباس الفاسيين ولباعة الأقمشة ذراع سلطاني يوجد اليوم بدار الآثار منقوشا على رخامة .

ورقي الفلاحة والتجارة يستدعي رقي الحرف والصناعات وتعدد أنواعها فاختصت كل حرفة بسوقها، واشتهرت تلمسان بالمنسوجات. فعرف قماش بالتلمساني وهو صوف خالص أو حرير خالص مختم وغير مختم. وكان كساء الصوف أو البرنوس من ثماني أواق لرقته .

وذكر يحي بن خلدون من أنواع الملبوسات الثوب المرعز والقهزي والحرير والملف والذرايع والعمائم والاحاريم 1هـ.

ولسعة الثروة اتسع نطاق المدن. واتخذ الناس حولها القصور تحفها الحدائق من تحتها الجداول. ذكر ليون الإفريقي أن تلمسان بلغت على عهد أبي تاشفين ستة عشر ألف منزل. وذكر غيره أن وهران كان بها أوائل القرن العاشر خمسمائة وألف حانوت وعشرة آلاف دار.

واتساع ثروة الأمة يفيد الحكومة. فقد آل زيان على ما منوا به من الحروب جادين في إنشاء القصور الضخمة والمدارس الفخمة وإقامة المصانع والمنتزهات وادرار الرزق على رجال السيف والقلم. وقد عرف ليون الإفريقي الحكومة أيام ضعفها. فذكر أن عطاء أدنى جندي ثلاثمائة دينار شهريا. وحكي أن أحد متاخري بني زيان أهدى لملك اسبانيا فرديناند دجاجة وستة وثلاثين نقفا كلها من الايريز الخالص.

قال عبد الرحمن بن خلدون: «**وكانت قصور الملك بتلمسان لايعبر عن حسنها. اختطها أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين. واستدعيا**

الصناع والفعلة من الأندلس. فبعث إليهما أبو الوليد بن الأحمر بمهرة البنائين استجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا عن الناس بعدهم أن يأتوا بمثله».

«وكان أبو حمو الثني قد خرب قصر ملك مرين بتازا وقصر مرادة لونزمار بن عريف. فلما دخل احمد المريني تلمسان سنة 786 أغراه ونزمار بتخريب قصور الملك»1هـ.

وكان مقر الحكومة يدعى المشوار. وجددت قصوره من بعد. وأدار عليه أحمد العاقل سورا سنة **850** وهي اليوم مقر السلطة العسكرية الفرنسية.

وكان أبو تاشفين الأول بصيرا بالتشكيل والاختراع. وله آلاف من أسرى الاروبيين. فيهم النجارون والزلاجون والزواقون وغيرهم. فاستظهر بهم على تحضير الدولة. وابتنى قصورا منها دار الملك ودار السرور وأبو فهر. ولعله ضاهى بابي فهره أبا فهر المستنصر الحفصي بتونس. ومن آثاره الصهريج الأعظم لم يزل إلى اليوم قائما. ومنها بناء مدرسة جليلة عديمة النظير إزاء الجامع الأعظم. ولم يترك شيئا مما اختص به قصره إلا وضع مثله بها.

قال احمد المقري في نفح الطيب: **«رأيت مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني (صوابه أبو تاشفين) – وهي من بدائع الدنيا – هذه الأبيات:**

انظر بعينك بهجتي وسنـــاءي وبديع اتقاني وحسن بناءي

وبديع شكلي واعتبر فيما ترى من نشاتي بل من تدفق ماءي

جسم لطيف ذائب سيلانـــه صاف وكذوب الفضة البيضاء

قد حف بي أزهار وشي نمقت فغدت كمثل الروض غب سماء

ومن آثاره إحاطة الجزائر بسور عظيم وإنشاء قصبة سيدي رمضان جوار الجامع المعروف اليوم بجامع سيدي رمضان وتوسيع الجامع الأعظم وبناء منارته، وبالجامع اليوم رخامة فيها إن بناء المنارة شرع فيه يوم الأحد 17 ذي القعدة سنة 722 وتم غرة رجب سنة 723 أما الجامع الأعظم فأسس أيام الحماديين، ومن الغلط ما يشاع من إن مؤسسه يوسف بن تاشفين أو ابنه علي، فان المرابطين لم يملكوا مدينة الجزائر، قال التنسي: «وكانت له شجرة من فضة على أغصانها أصناف الطيور وأعلاها صقر. ينفخ في أصلها. فتصوت الطيور بصوت أشباهها. ثم يبلغ الريح الصقر. فيصوت. فتنقطع أصوات الطيور كلها»اهـ.

وابتنى أبو حمو الثاني بناءات جميلة غير أن أيامه كانت حربية أكثر منها سلمية. قال يحي بن خلدون: «فكانت دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك»اهـ.

ومن دلائل رقي الصناعة أيامه الساعة المشهورة بالمنقانة. وهي خزانة ذات تماثيل من اللجين بأعلاها أيكة تحمل طائرة فرخاه تحت جناحيه. يخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بأصل الأيكة. وبصدرها أبواب مرتجة إزاء كل باب ساعة من ساعات الليل. وبصاقب طرفيها بابان أطول من الأولى واعرض. ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك.

وينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرن. وينهش الأرقم احد الفرخين. فيصفر له أبوه. ويفتح باب الساعة الراهنة فتبرز جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء. بيمناها رقعة. فيها اسم ساعتها منظوما. ويسراها على فيها كالمبايعة.

وكان يقيم بمشوره ليلة المولد النبوي احتفالا شيقا تحضره الخاصة والعامة، فما شئت من زرابي مبثوثة وبسط موشاة ونمارق بالذهب مغشاة، وشموع كالاسطوانات قائمة على مراكز الصفر المموهة ومباخر كالقباب كأنها تبر مذاب.

يجلس الخليفة صدر المجلس. وأمامه خزانة المنقانة وحفا فيه الملا من قومه ووجوه دولته مرتبين على مراتبهم. وترى ولدانا بأقبية الخز الملون يطوفون بمباخر العنبر ومرشات الورد. والمسمع على بعد مقدر من الخليفة يردد نغمات الألحان منتقلا من فن إلى فن منشدا مدائح في النبي الكريم مفتتحا بقصيدة من إنشاء الخليفة ثم قصائد شعرائه.

وآخر الليلة يؤتى بموائد كالهالات من خرس شهي وأنواع من المطاعم تعقبها الفواكه والحلواء. فيطعم الناس بين يدي الخليفة، ويصلي معهم الصبح، وهكذا كانت تمر المواليد مدته، واقتفى أثره خلفه، وزاد ابنه أبو تاشفين إحياء ليلة السابع على هذا الوصف .

وأول ما حدث الاحتفال بالمولد أواخر القرن السادس أو أوائل السابع أحدثه بالمشرق مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري التركماني الذي كان واليا باربل بين سنتي **586-630** وأحدثه بالمغرب، ابو العباس احمد العزفي من بيت علم ورئاسة بسبتة، ولد سنة **557** وتوفي سنة **633** وأمر السلطان يوسف المريني بإقامة هذا الموسم في جميع ممالكه سنة **671**.

سقوط الدولة الزيانية:

في أواخر القرن التاسع اشتد الضعف بالحكومات الزيانية والمرينية والحفصية وعظم النزاع بين ملوك غرناطة، فأعان الإسبان محمد بن أبي الحسن بن سعد على خلع عمه محمد بن سعد، فارتحل هذا المخلوع سنة **895** إلى وهران. واستقر بتلمسان. قال في نفح الطيب: «**ونسله بها إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلس**»اهـ، ثم ملك الإسبان غرناطة في ربيع الأول سنة **897** فأصبحت منهم العدوة الإفريقية على طرف الثمام.

وفي سنة **911** ملك الإسبان المرسى الكبير بعد حصار خمسين يوما، وعاثوا فيما حو لهم سلبا ونهبا، وتكررت المعارك بينهم وبين المسلمين

حتى انحصروا داخل أسوار المرسى سنة **913** وحاولوا فتح وهران، فامتنعت عليهم لحصانتها حتى داخلوا ستورا اليهودي ورجلين من المسلمين، فادخلوا بعض الإسبان المدينة. وفتحوها لإخوانهم، فذبحوا أربعة آلاف مسلم، وأسروا ثمانية آلاف ، وأنقذوا ثلاثمائة أسير مسيحي، وغدا جاءت الجموع الإسلامية لإغاثة المدينة، فوجدوا يد الخيانة قد فتحتها!.

وأخذت اسبانيا المتسلحة بالنفاقين المسيحي والسياسي تستولي على السواحل لضعف الحكومات عن حمايتها، واضطر أبو حمو الثالث سنة **918** إلى الاحتماء بها فأبت الأمة هذه الاهانة، وكان بربروس قد ملك الجزائر، فاستنجدته، وأصبح آل زيان بين الأتراك والإسبان.

ونفر التلمسانيون من قساوة الأتراك، فأداروا وجوههم شطر فاس. واستنجدوا محمد االشيخ السعدي، فاحتل تلمسان، واخرج أبا زيان احمد، وكانت اضطرابات حاول أثناءها أخوه مولاي الحسن استرجاع ملك سلفه، فلم يحسن السيرة، وخلعه العلماء، فلحق بوهران حوالي سنة **961** ثم مات بالطاعون سنة **964** وثبتت قدم الأتراك بتلمسان بعدما احتلوها سنة **957** وقال ابوراس: سنة **956**.

وهكذا انتهت دولة آل زيان بعدما عاشت ما بين سنتي **633-957** أربعا وعشرين وثلاثمائة سنة، ويقول أبو راس: أن أمدها : **291** وقيل **295** وليس بشئ.

وقد افترق بنو عبد الواد بعد ذهاب ملكهم في الأوطان، قال أبو راس: «**ويقال أن منهم بني شعيب وشوشاوة وأولاد موسى في العطاف وفرقة بجبل أوراس»1هـ.**

والمطلع على فصول هذا الباب وما قبله لا يحوجنا إلى بسط أسباب سقوط هذه الدولة العامة وعللها الخاصة، فإنها لم تزل منذ نشأتها تصطلي بنار الحروب الداخلية والخارجية، فمن غارة مرينية إلى حرب حفصية ومن مناهضة مغراوية أو توجينية إلى منافسة زيانية ومن دسيسة سويدية إلى مشاقة عامرية ومن نفاق اسباني إلى غلظة تركية، ولا ظل في التاريخ العام لدولة صغيرة كهذه منيت بمثل ما منيت به وامتدت حياتها مثلها ؟

وآخر هذه الدولة جدير بقول محمد الفازازي يصف حياة الأندلس في القرن السابع :

الروم تضرب في البلاد وتغنم — والجور يأخذ ما بقي والمغرم

والمال يورد كله قشـــــتالة — والجند يسقط والرعية تسلم

وذو والتعين ليس فيهم مسلم — إلا معين في الفساد مسلـــم

أسفي على تلك البلاد وأهلها — الله يلطف بالجميع ويرحـــم !

الحركة العلمية والأدبية بالجزائر البربرية:

نهضت الدول البربرية بالعلوم والآداب نهوضا رغب المفكرين في الرحلة إلى ملوكها، وكانت الدول الأوروبية قد ملكت على المسلمين صقلية واغلب الأندلس، فارتحل رجالها إلى تونس وبجاية وتلمسان وفاس، وبعد بني عبد المؤمن ظهر الحفصيون والزيانيون والمرينيون، فكانت منافستهم في تقريب العلماء من مجالسهم تساوي منافستهم في ضخامة السلطان وامتلاك الأوطان فعمت المعارف المدن والقرى وكرع من مناهلها العربي والبربري، ومن تصفح كتب التراجم ورأى كثرة المنسوبين إلى القرى الصغيرة والقبائل البدوية حكم بعموم هذه النهضة وانتظام سيرها في طريق الرقي غير متأثرة بالانقلابات السياسية والنتائج الحربية، فما استجدت دولة إلا واستجدت قوى هذه النهضة، وقد بلغت غايتها في القرن الثامن، وأخذت تتقهقر منذ القرن التاسع.

ذكر ابن قنفد في الفارسية أن أبا زكريا الأول ترك من الكتب ستة وثلاثين ألف سفر، هذه عناية مؤسس الدولة فما بالك بمن بعده؟

وذكر ابن أبي زرع أن سانجة ملك الإسبان وفد سنة **684** على يعقوب ابن عبد الحق يخطب سلمه فصالحه على أن يبعث له بما في بلاده من كتب المسلمين، فبعث إليه بثلاثة عشر حملا.

وقد ابتنى سلاطين هذه الدول المدراس ووقفوا عليها الأوقاف. وجعلوا من مجالسهم حظا لمناظرة العلماء بين أيديهم، واتخذوا الأطباء والمفاتي والشعراء فنهضوا بجميع فنون العلم وظهرت المؤلفات في مختلف

المواضيع، وقلد المغاربة الأندلسيين في موسيقاهم وموشاحتهم وأزجالهم، فأحسنوا التقليد.

وأنشأ بتلمسان مدارس أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين وأبو حمو الثاني وابنه احمد العاقل، وانشأ خامسة بالعباد أبو الحسن المريني، وأول مدرسة أسست في الإسلام كانت بنيسبور أواخر القرن الرابع، وأول من عمم بناء المدارس في المدن الوزير نظام الملك المتوفي سنة **485**.

وذكر ابن خلدون في المقدمة صناعة التعليم، فاستحسن تعليم تونس وبجاية وتلمسان، وانتقد تعليم فاس بأنه لايكسب ملكة ولا يفتق لسانا ولا يقرب مطلوبا .

قال الغبريني في ترجمة أبي بكر بن سيد الناس الاشبيلي نزيل بجاية المتوفي بتونس سنة **659**: «**كان إذا قرأ الحديث يسنده إلى النبي (ص) ثم يأخذ في ذكر رجاله من الصحابي إلى شيخه كل واحد باسمه ونسبه وصفته وولادته ووفاته وحكايته أن عرفت له ثم يشرح الحديث ويتعرض لما فيه من فقه وخلاف عال ودقائق ورقائق، كل ذلك بفصاحة لسان وجودة بيان**»اهـ.

ووصف أقراء أبي القاسم ابن اندراس المرسي نزيل بجاية المتوفي بتونس سنة **674** لكتب الطب، فقال: «**وكانت الأبحاث في كل ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجلية**»اهـ.

وانتقد القاضي أبو عبد الله المقري التلمساني المتوفي بفاس سنة **759** تعليم زمانه فنقل عن شيخه الابلي قوله: «**إنما افسد العلم كثرة التواليف وانما أذهبه بنيان المدارس**». وشرحه بما محصله أن كثرة التآليف تجعلها سهلة التناول، فتضعف الرغبة ويقل التحصيل، وحياة المدارس يأباها كبار العلماء، فيخسرهم الطلبة، ثم قال: «**وقد اقتصر أهل هذه المائة على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه، وافنوا أعمارهم في فهم رموزه وحل لغوزه. ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح**»**1هـ**.

ومن أراد الوقوف على الكتب يومئذ فعليه بمجاميع الأسانيد. وقد ذكر الغبريني طائفة منها آخر عنوان الدراية. ولا نقر الابلي على إنكار فضل المدارس. فان التعليم لم يكن قاصرا عليها حتى يخسر الطلبة مواهب من لم يوظف بها. وما دام التعليم الحر في الأمة فلن يضيرها التغليم الحكومي.

وفحول العلماء ونبغاء الأدباء بهذه القرون السابع والثامن والتاسع متفرقة أخبارهم في الرحلات وكتب التراجم والسير. والأسفار عن مبلغ المعارف في هذه الإعصار يحتاج إلى أسفار. ناهيك بوسط يخرج أمثال لسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون وأبي جبان النحوي وابن عصفور وأكثر ايمة العلوم إنما هم من أهل هذه القرون.

أنجبت تنس مثل إبراهيم بن يخلف الذي استقدمه يغمراسن مرارا إلى تلمسان وبلغه وفادته عليها ذات يوم فركب إليه بنفسه ورغبه في المقام لديه. واقطعه اقطاعات. قال العبدري: «**وكان شيخنا زين الدين أبو الحسن بن المنير يثني عليه كثيرا. وسألني عن الغرب فذكرت له قلة رغبة أهلها في العلم. فقال لي أما بلاد يكون فيها مثل إبراهيم التنسي فما خلت من العلم**»1هـ.

وانتهت رئاسة الحديث وسائر الفنون في القرن التاسع إلى محمد ابن عبد الله بن عبد الجليل الحافظ التنسي المتوفي سنة **899** نقل عن احمد بن داود الأندلسي انه سئل عن علماء تلمسان. فأجاب: «**العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي والرئاسة مع ابن زكري**»1هـ. وألف للمتوكل «**نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان**» وهو في جزءين كبيرين. من تامله علم مكانة الرجل في العلم والكياسة ونصح سلطانه وتنبيهه إلى ما فيه صلاح الدولة بأسلوب لا يشعر معه السلطان بتداخل في شؤونه أو انتقاد لحكومته. واسم الكتاب قاصر جدا عن مغزاه. ولعل قصوره مما اقتضته كياسة المؤلف.

وأنجبت برشك أبا زيد عبد الرحمن وأخاه أبا موسى عيسى ابني محمد بن عبد الله بن الإمام. ارتحلا إلى المشرق. وتركا به صيتا. واستقرا بتلمسان. فبنى لهما أبو حمو الأول المدرسة المعروفة بهما داخل باب كشوط. وعنهما أخذت صناعة التدريس بتلمسان.

وكان ببقية المدن أسر تتوارث العلم كالمقريين والمرزوقيين والعقبانيين بتلمسان وكالبادسيين والقنفذيين بقسنطينة. ذكر العبدري في رحلته حسن بن بلقاسم بن باديس واثنى عليه، وولي القضاء هو وحسن بن خلف الله بن باديس واشتهر من بني قنفذ أبو العباس احمد بن حسين بن علي الخطيب المتوفي سنة تسع أو عشر وثمانمائة، كان قاضيا خطيبا كثير التآليف في مختلف الفنون، منها الوفيات والفارسية، وقد أخذ الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين كتاب الفارسية بنصها لم يحذف منها إلا قليل، ولم يصرح بالعزو إليها إلا نادرا، ومع ذلك ذكر وفاته عرفه بقوله: «**شارح رسالة الشيخ ابن أبي زيد وشارح جمل الخونجي وغيرهما**»**1**هـ. هكذا اغفل ذكر الفارسية وهي بين يديه!

وكان حظ زواوة من هذه الحركة وافرا جدا، فكان من مليكش كاتب الحكومة الحفصية محمد بن عمر بن علي بن إبراهيم المتوفي بتونس سنة **740** أثنى عليه لسان الدين بن الخطيب في الاكليل. وأثبت شعرا جيدا، وكان من مشدالة ناصر الدين منصور بن احمد المتوفي سنة **731** له رحلة إلى المشرق، وكان يحمل العلوم العقلية والنقلية، وانشد فيه بعض من لقيه متمثلا :

ليس على الله بمستنكر — أن يجمع العالم في واحد

. . . .

وذكر ابن خلدون في المقدمة انه مجدد صناعة التدريس ببجاية، وقال فيها أثناء حديثه عن الموشحات والأزجال: «**واشتهر ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة:**

يد الاصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر

وابن خزر البجائي وله من موشحه:

ثغر الزمان موافق حياك منه بابتسام»1هـ.

الحياة الدينية بالجزائر البربرية:

نصر عبد المؤمن وبنوه عقيدة الأشعري. فثبت أهل المغرب بعدهم عليها. وحملوا الناس على الكتاب والسنة في أخذ الأحكام والوعظ والتذكير. فعادوا بعدهم إلى مذهب مالك (ض) وإلى طرق الصوفية متناسين النظر في الكتاب والسنة على وجه الاستقلال في الاستدلال والاهتداء بهما في مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال.

ولم تزل بقية في القرن السابع لا تهتدي بغير الكتاب والسنة مباشرة. منهم في الفروع أبو زكريا يحي بن علي بن سلطان اليفرني تلميذ ابن عصفور واحد شيوخ ابني الإمام. ذكر له المقري في نفح الطيب مسائل خالف في بعضها مالكا وفي بعضها الإجماع. ووفاته بتونس سنة **700** ومنهم في التصوف عبيد الله بن احمد الازردي الرندي نزيل بجاية المتوفي بها سنة **691**.

قال الغبريني: «**وكان عبيد الله متنزها عن مقالة المتلبسين وشعوذة المشعوذين غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة. ولقد مضى بمسجده أبو الحسن الفقير المعروف بالطيار مع صحب له من الفقراء. ودخلوا عليه في وقت يحيا فيه المسجد. فجلسوا من غير تحية، فأمرهم بالتحية، فقال له الطيار ولذكر الله أكبر، وامتنع من الركوع، ووقع بينه وبينهم في هذا كلام، فأصروا على مقالهم وحالهم، فنفوا إلى المغرب، والنفي في أمثال هؤلاء قليل وإنما الواجب أن يعاملوا لاسوا التمثيل، وهؤلاء جملة أغبياء لا علم ولا عمل ولا تصوف ولا فهم. وهم مع ذلك يجهلون الناس ويعتقدون أن مبناهم على أساس**»1هـ.

ونقل صاحب نفح الطيب عن القاضي أبي عبد الله المقري أن العلماء كلما ابتعدوا عن عصر السلف اقتربوا من الأمراء حتى صار جمهورهم يتطارحون عليهم. وهم يبتذلونهم في خدمة أغراضهم. ثم قال يصف الحياة الدينية: «**وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمر اليهود والنصارى ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا. سمعت العلامة الابلي يقول لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزا فيهم لانا أتينا أكثر مما أتوا. يشير إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترقت عليه بنو إسرائيل. واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم، وتعدد ملوكهم لاتساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم**

حتى غلبوا بذلك على الخلافة. فنزعت من أيديهم وساروا في الملك بسير من قبلهم مع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى»1هـ.

وهذه أخبار ترشد إلى أن من العلم من دينه أرضاء شهوات السلاطين، وان من السلاطين من دينه احترام ما تحترمه العامة من عادة أوقبر أو شيخ مشهور بالولاية، وغرضنا التنبيه لا الاستقصاء:

كان من مشاهير صلحاء تونس أبو محمد المرجاني المتوفي سنة **699** فكان أبو حفص عمر يخدمه. ورام أن يلي عهده ابنه عبد الله وهو صغير. فنكر عليه الموحدون ذلك. فاستشار المرجاني فأشار عليه بتولية أبي عصيدة محمد بن الواثق. فقبل إشارته وكانت أم أبي عصيدة قد فرت حاملا به يوم مقتل الواثق إلى زاوية المرجاني. فولد في بيته. وعق عنه، واطعم عصيدة الحنطة يوم سابعه. ولولا مكانة المرجاني ما نزل أبو حفص على حكم إشارته.

ولما نزل يوسف المريني على تلمسان في حصاره الطويل خرج إليه ذات يوم برسالة من صاحبها أبو الحسن علي بن يخلف اخو الإمام إبراهيم بن يخلف، فأقام لديه، ومات، فشهد السلطان يوسف جنازته، ونكر وصول الخيل التي خرجت معه إلى ضريح أبي مدين، وأمر بوضع خشبة تنتهي إليها الخيل، وهكذا الإفراط في احترام الأموات في حين أن التلمسانيين يموتون كل يوم جوعا وقتلا بغير حق.

وذكر صاحب الفارسية أن أبا يحي أبا بكر كان في نزهة في رياضه الكبير سنة **747** فادخل عليه رسم رؤية هلال رجب على عادة قضاة

الحضرة، فقال لا اله إلا الله، دخل رجب، وكرر ذلك، ثم قام وتطهر واخلص التوبة، وهذا من احترام العادة دون الدين، لأنها حرمت شرب الخمر في رجب وشعبان ورمضان خاصة .

وقال ابن خلدون: «**أن أبا عنان لما احتل تلمسان واسر عثمان الثاني احضر الفقهاء وأرباب الفتيا، فافتوا بحرابته وقتله، فأمضى حكم الله فيه»1هـ**. وهذا حكم الدينار لا حكم الله، ويرحم الله القائل :

بنو الدهر جاءتهم أحاديث جمة فما صححوا إلا حديث ابن دينار

وفي سنة 757 زار أبو. عنان أحمد بن عاشر نزيل سلا المتوفي بها سنة 765، فامتنع من رؤيته، فحزن أبو عنان لحرمانه من الاجتماع بالشيخ، وهو الذي أصر على محاربة أبيه السلطان أبي الحسن، وتغلبعلى ملكه، وعد عثمان الثاني من أخل الحرابة مع أنه بايعه قومه واعترف هو بسلطنته.

وفي سنة 767 كانت على أبي حمو الثاني الهزيمة الشنعاء ناحية بجاية، وسبيت حظاياه منهن ابنة يحي الزابي، وكانت أعلقهن بقلبه، قال ابن خلدون: «**وخرجت في مغانم الأمير أبي زيان، فتحرج من مواقعتها، حتى أوجده أهل الفتيا السبيل إلى ذلك لحنث زعموا وقع من أبي حمو نسائه»1هـ**.

وكان من صلحاء تلمسان الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي المتوفي سنة 857 قال التنسي: فكان السلطان أحمد العاقل يكثر من زيارته،

ويعتمد عليه في أموره، وحكى ابن مريم في البستان انه كان يكثر الشكاية إليه بعمارة الزردالي الثائر عليه، فقال له ذات يوم اذهب إلى موضعك ، فقد قضى الله الحاجة فلما عاد السلطان أتي له برأس عمارة.

ومن جزيئات الحياة الدينية ما حكاه صاحب نفح الطيب عن القاضي أبي عبد الله المقري. قال: أنشدت يوما الابلي قول ابن الرومي :

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكحله الأحياء والبصراء

فإذا مررت رأيت من عميانه أمما على أمواته قـــــراء

«فاستعادني حتى عجبت منه مع ما اعرف من عدم ميله إلى الشعر، فقال أظننت إني استحسنت الشعر؟ فقلت مثلك يستحسن مثل هذا، فقال إنما تعرفت منه قدم قراءة العميان على المقابر، وكنت أراها حديثة العهد»1هـ.

وههنا يتذكر المرء قول أبي مدين: «**بفساد العامة تظهر ولادة الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون»1هـ** ولا يتسع للتدجيل غير ميدان التصوف المبني على الدعاوي والنواميس الظاهرية فكثر المنتمون لطريقتي أبي مدين وأبي الحسن الشاذلي .على أن الشاذلية تفرعت عن المدينة. وسند المدينية عندهم هو أبو مدين عن أبي الحسن بن حرزهم عن القاضي أبي بكر بن العربي عن الغزالي عن إمام الحرمين عن أبي طالب المكي عن أبي محمد الجريري عن الجنيد عن سري السقطي عن معروف الكرخي عن داود الطائي عن حبيب العجمي عن الحسن البصري

عن علي بن أبي طالب (ض) عن النبي (ص) وهذا السند مشتمل بزعمهم على المصافحة ولباس الخرقة، وسواء كان السند صحيحا أم مفترى فان العبرة بالاقتداء لا بالانتماء.

وانتشار طرق الصوفية بين العامة في عصر دليل على تقصير علمائه في إحياء كتاب الله وعلى ضعف الحكومة عن بسط نفوذها في الأمة مباشرة، أو تقول أن سيادة المتصوفة دليل على انحطاط الأمة سياسيا وعلميا ودينيا. وفي الصحف السابقة ما يجلي لك هذه الحقيقة. قال أبو بكر الشاشي:

لحا الله دهرا سدتمو فيه أهلـــه وأفضى إليكم فيهم النهي والأمر

فلم تسعدوا إلا وقد أنحس الورى ولم ترأسوا إلا وقد خرق الدهر

وفي القرن التاسع انتشرت بالمغرب الطريقة اليوسفية المنسوبة إلى الشيخ احمد بن يوسف الهواري وطنا الوابودي نسبا الملياني وفاة. كان في حياته ممن يعتقد فيه الصلاح والخير يلقن الأسماء للعامة والنساء، وكان أشد أصحابه غلوا فيه رجلا يدعى بن عبد الله. ادعى فيه النبوة وتابعه الأجلاف من البوادي وأهل الأهواء من الحواضر.

وخشيت الحكومة الزيانية من اتساع نفوذ الشيخ ابن يوسف. فأمر السلطان بقتله أو أشخاصه اليه. وكتب عامل وهران إلى قائد هوارة بذلك فأبى القائد حمله إلى العامل. وأمره بالخروج. قال أبو راس: «**فلما ارتحل الشيخ من وطنه قال شوشوا علينا شوش الله عليهم من البر**

والبحر. فلم يكن إلا قليل حتى أخذ الكفرة وهران والأتراك تلمسان. واعترض الشيخ في طريقه محاربون من سويد. أخذ ثلاثة أحجار. وحكها بيده فصارت رمادا. وقال لهم أن تعرضتم لنا يسحقكم الله مثل هذه الأحجار. فأتوه تائبين. وكراماته لاتحصى وتوفي سنة 931 وقبره بمليانة من أعظم المزارات»1هـ.

وإذا كان تغلب الكفرة على المسلمين كرامة فما هي الاهانة؟

نسأل الله فكرة تلزم العقــــــــل إلى حشمة تحوط المروة

سيادة البربر بالبحر الرومي:

في القرن الخامس أخذت القوة الإسلامية البحرية تتراجع بالمشرق لضعف دولة مصر الفاطمية بخروج المغرب عنها وضعف دولة بغداد باستبداد سلاطينها عليها وتحارب المتجاورين منهم. وكان السلاطين السلجوقيون معنيين بالجهاد فضايقوا ملك القسطنطينية ألكسيس كمنانس، فاستنجد أوروبا. ولكن أخلاق ملوكها كانت أسوأ من أخلاق سلاطين المشرق فلم ينجدوه. فاتخذ الدين آلة وأثار الحمية المسيحية على الإسلام.

وهنالك قام بابا رومة ورؤساء الكنائس بخطب أجادوا فيها وضع الروايات عن اضطهاد المسلمين للمسيحيين بالمشرق، وحثوا أممهم على امتلاك بيت المقدس. فتجندوا. وشعارهم صليب أحمر في صدورهم وعلى

أسلحتهم وأمتعتهم وراياتهم، وتواعدوا في ربيع الأول سنة **489** اللقاء بالقسطنطينية، ومنها ركبوا إلى آسيا واشتبكوا مع المسلمين بحروب عرفت بالحروب الصليبية. ثم ظهر التتر، فاتحدوا مع الصليبيين على الإسلام، وانتهت هذه الحروب بخروج الصليبيين من سواحل الشام سنة **690** ملكوا بيت المقدس فيما بين سنتي **492-583**.

واحتفظ البربر بسلطانهم على ناحية البحر الغربية حتى تضاءل نفوذهم بالأندلس منتصف الثامن، فأخذت كفة أوروبا البحرية في الرجحان، واقتسم الإسبان والبرتغال سواحل المغرب أوائل القرن العاشر، فكان للأسبان سواحل الجزائر وما يليها شرقا، فتغلبوا عليها حتى أخرجهم الأتراك، وسنفرد بابا لسلطة الإسبان بالسواحل الجزائرية في الكتاب الرابع إن شاء الله.

قال ابن خلدون آخر حديثه عن الأساطيل في الفصل الثالث من الكتاب الأول: «**بطلت وظيفة قيادة الأساطيل من المشرق، وبقيت مختصة بالمغرب. فكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الأساطيل لم يتحيفه عدو، وبلغت الأساطيل أيام لمتونة إلى المابة، وقيادتها لبني ميمون، ومنهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم، وأقام هذه الخطة على أتم ما عرف وأعظم ما عهد، وكانت قيادتها أيام ابنه يوسف لأحمد الصقلي، واصله من سدويكش المستوطنين جربة، فجلى في جهاد النصارى، وكانت له آثار و أخبار ومقامات مذكورة في دولة**

الموحدين، وانتهت الأساطيل على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه، ولعدم عناية دول مصر والشام بالأساطيل أوفد صلاح الدين بن أيوب على يعقوب المنصور عبد الكريم ابن منقذ برسالة يستمده الأساطيل لمنع نصارى أوروبا عن إمداد إخوانهم بثغور الشام، لكن لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين، فخابت الرسالة».

«ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت الدولة بعده استولت أمم البحر، وملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من هذا البحر. فكثرت الجلالقة على الأكثر من بلاد الأندلس، والجؤا المسلمين إلى سيف فيه أساطيلهم. واشتدت شوكتهم. وتراجعت قوة المسلمين فيه. وتساوت القوتان أيام أبي الحسن المريني. ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين لضعف الدولة وغلبة البداوة وانقطاع العوائد الأندلسية. فرجع النصارى إلى دينهم المعروف من البصر بأحوال البحر وغلب الأمم في لجته. وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا. وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو إليه الحاجة من الأغراض

السلطانية في البلاد البحرية. والمسلمون يستهبون الريح على الكفر وأهله» اهـ بتصرف.

وكانت بجاية أهم الثغور البحرية بالجزائر البربرية. قال الغبريني في عنوان الدراية: «كانت بجاية بلدة غزاة. وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها. ويسوقون السبي الكثير منها. ويترل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها. وهناك يخمس ويقع الفصل فيه. ولم يزل الحال على ذلك، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضا وان من الروم بسوداء من الوخش» اهـ.

وقال ابن خلدون أواخر حديثه عن الدولة الحفصية ما ملخصه: «ملك الإفرنج جزائر البحر مثل دانية وسردانية وميورقة وصقلية ثم سواحل الشام وبيت المقدس، وعادت سورة التغلب لهم، وزاحمتهم أساطيل بني مرين أياما. ثم فشل ريح الفرنجة. وافترقوا طوائف في أهل برشونة وجنوة والبنادقة وغيرهم. فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم .

وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر، ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة، فيخطفون ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة، فيظفرون بها غالبا، ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى حتى امتلأت سواحل الثغور

الغربية من بجاية بأسراهم وتضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم، ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة، وعجزوا عن التأثر به، وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان أحمد الحفصي، فصم عن سماعها. فتداعوا للآخذ بثأرهم، واجتمعت أساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم أو يجاورهم من أمم النصرانية، وأقلعوا من جنوة، فحطموا بمرسى المهدية منتصف سنة 792 وطرقوها على حين غفلة. ونصبوا عليها الحصار. فأمد المدينة السلطان حتى انجلى عنها الحصار»1هـ.

وقائد أساطيل بجاية لعهد احمد الأول محمد بن أبي مهدي.

كان زعيم البلد متقدما على أهل الشطارة والرجولية من رجل البلد ورماتهم. واسند اتليه السلطان وزارة ابنه محمد لما وليه ببجاية. فأحسن القيام بها حتى مات الأمير محمد وخلفه ابنه احمد. فكلفه القائد مستبدا عليه. ومات هذا القائد ابن أبي مهدي سنة **805** فخلفه ابن أخته القلسطوني بأمر السلطان عزوز. وهذا آخر أخبار كتاب الفارسية.

وكان لدولتي الموحدين المؤمنية والحفصية علاقات تجارية مع أوروبا الجنوبية. ولما ملك الأمير أحمد بجاية سنة **767** هنأه حاكم ولايات ايطاليا المتحدة وطلب منه تجديد المعاهدة التجارية مع دولته. فأسعفه بها. وفي سنة **844** كان لجمهورية البندقية خط مواصلة مع المغرب. صنعت له

مراكب خاصة سميت **«مراكب بلاد البربر»** تخرج منتصف يولية كل سنة. فتقيم ثمانية ايام بطرابلس ومثلها بجربة ونصف شهر بتونس. وأربعة أيام ببجاية ومثلها بالجزائر وعشرة أيام بوهران وأياما بهنين.

وكان التجار الأوروبيون علة الأضرار بالسواحل المغربية. ففي سنة **668** نزل لويس التاسع ملك فرنسا على تونس مدعيا أن لتجار مملكته قبل عامل المهدية ثلاثمائة ألف دينار من غير مستند شرعي. وفي بعض نسخ ابن خلدون ثلاثمائة دينار وكانت لذلك أهوال مشروحة في غير ما كتاب.

وفي سنة **679** ثار بقسنطينة عاملها ابن الوزير. وكاتب ملك أرغون يستمده ويعده القيام بدعوته. فانتهز الملك الفرصة. ونزل أسطوله مرسى القل بعد قتل ابن الوزير فارتد على عقبه.

وفي سنة **686** غدر النصارى بالقالة. فثملوا أسوارها. ونهبوا أموالها واسروا أهلها. واحرقوا بيوتها. وفي سنة **686** حصروا بونة.

وأسروا من ضاحيتها أشخاصا. وفي سنة **801** نزلوا عليها في نحو سبعين قطعة. واقلعوا خائبين. ودخلوا مرسي القل فسلم الله منهم ونهبوا دلس.

ومن غدر النصارى ما حكاه الزركشي. قال ما ملخصه: **«في سنة 827 بعث ملك النصارى القطلاني يطلب الصلح من السلطان عزوز، فوجد الرسول السلطان بالمغرب. فاخبر ملكه. فبعث إليه بعمارة**

ملكت قرقنة. وجاء السلطان ففاوضهم في افتدائها.. ونزل بعضهم بعد الأمان لمفاوضته. فقال المرابط بن أبي صعنونة: ليس لخائن أمان. فأبى السلطان نقض عهده. ولم يتفقوا على ثمن الفدية، فأقلع النصارى إلى بلادهم بأهل قرقنة مأسورين»1هـ.

وحديث غدر النصارى بالسواحل وعبثهم بالمساجد طويل عريض، وإذا أكثر الأوروبيون من تنقيص المسلمين في غزواتهم البحرية ورموهم باللصوصية فذلك مضرب المثل: «**رمتني بدائها وانسلت**» وإذا جاراها كثير من أغرار شبابنا في هذه السبة فهو كما قيل :

الناس أعوان من واتته دولته   وهم عليه إذا خانته أعوان

تم تحرير الكتاب والحمد لله في رمضان سنة 1350هـ

بعض ما في الفصول من رجال ونساء

محكم الهواري	ابن طاهر البجاءي
البزار، أبو سهيل، أبو عبيدة	ابن فرسان
ابن الصغير، ابن قريش	الحفيد بن رشيد. أبو عبد الله
ابن قاضي ميلة	الكومي الندرومي
السفياني، الحلواني	الفقون
أبو عبد الله الشيعي	الأشعري
صاحب الحمار	الجنيد أبو القاسم
الصوفي القيرواني	أبو مدين شعيب الأندلسي
أبو القاسم بن هاني	ابن عربي. الشاذلي. ابن سبعن
حكاية السلجلماسي	سسعادة
إبراهيم الشيباني محمد بن يوسف	ابن الأزرق
ابن عمران ابن سليمان ابن الجزار	ابن مرزوق المسيلي
يحي بن عمر. سعيد بن محمد	ابن هيدور
ابن خيرون. زيد بن سنان	هلال القطلوني
متنبي تلمسان	موسى بن علي الكردي
الجازية فتاة باغاية	السنوسي. الزردالي
ذات الكلب	أبناء مقن. ابن الخطاب
امرأة تاشفين	ابن حميس. ابن خلدون

ابن النحوي. المخزومي. الريغي	طائفة من الوتشريسيين
أبو محمد الاشيري	التنسي، باديس، قنفد
فيونتشي الايطالي	المليكش، المشدالي
عبد الله بن ريس	أبناء الإمام
زينب الهوارية	الفربي، الرندي
محمد بن تومرت البيذق	احمد بن يوسف الهواري

بعض ما في الفصول من مدن وقرى

تامغيلت. ايزمامة. كرام	ابن طاهر البجاءي
يلل. تامزغران. قلعة هوارة قلعة	ابن فرسان
دلول. أزكى	الحفيد بن رشيد. أبو عبد الله
تيغلت	الكومي الندرومي
تابغليت. سكيدال. تاسلونت	الفقون
تيارت تاقدمت	الأشعري
البويرة. هاز. بورة الصحاري	الجنيد أبو القاسم
موزية. الرمانة. تاورست	أبو مدين شعيب الأندلسي
متيجة. قزرونة	ابن عربي. الشاذلي. ابن سبعن
مدكرة. الخضارلاء. وارسفن	سعادة

قارية. مليانة	ابن الأزرق
جليداسن شلف تاجنة غليزان	ابن مرزوق المسيلي
سوق ابراهيم، تنس	ابن هيدور
العلويين، ترناتا، ارشقول	هلال القطلوني
جراوة	موسى بن علي الكردي
مجانة. بشرة. تيفاش.	السنوسي. الزردالي
باغاية.	أبناء مقن. ابن الخطاب
تيجس، بلزمة	ابن خميس. ابن خلدون
نقاوس، مقرة، ادنة، طولقة	طائفة من الوتشريسيين
بادس، الغدير، بسكرة	التنسي، باديس، قنفد
سطيف، ميلة	المليكش، المشدالي
ايكجان	أبناء الإمام
مرماجنة، الاربس	الفرني، الرندي
وهران	احمد بن يوسف الهواري

مأخذ الكتاب

نثبت هنا للقارئ بعض الكتب التي استمددنا منها هذا الكتاب مقترصين على أهمها، غير مطيلين بذكر كل الكتب التي التقطنا منها عند المطالعة بعض الفوائد العزيزة الوجود.

ما كان في هذا الكتاب من رسوم فبعضه مأخوذ من دار الآثار بالجزائر. ونقود ملوك البربر ارسل إلينا بكوابعها السيد أحمد توفيق المدني شكر سعيه.

المآخذ العربية

1	الاخبار الطوال	لابي حنيفة الدينوري
2	اخبار الائمة الرستميين	لابن الصغير
3	الازهار الرياضي في ائمة وملوك الاباضية	لسليمان الباروني
4	اخبار ملوك بني عبيد	لمحمد بن علي بن حماد
5	اخبار المهدي بن تومرت	للبيذق
6	المعجب في تلخيص اخبار المغرب	لعبد الواحد المراكشي
7	الكامل	لابي الحسن بن الأثير
8	الانيس المطرب القرطاس	لمحمد بن أبي زرع
9	الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية	
10	واسطة السلوك في سياسة الملوك	لابي حمو الثاني
11	اعلام الاعلام	للسان الدين بن الخطيب
12	الاحاطة في اخبار غرناطة	// // //
13	اللمحة البدرية في الدولة النصرية	// // //
14	الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية	// // //

15	رقم الحلل في نظم الدول	// // //
16	بغية الرواد في ذكر الاخبار المراكشية	ليحيى بن خلدون
17	الفارسية في مبادي الدولة الحفصية	لابن قنفذ
18	الوفيات	// //
19	تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية	لمحمد الزركشي
20	تاريخ الموحدين والحفصيين	لابن الشماع
21	نظم الدر والعقيان في ذكر شرف بني زيان	للحافظ التنسى
22	الحلل السندسية في الاخبار التونسية	لأبي عبد الله الوزير
23	الخلاصة النقية في أمراء افريقية	لمحمد الباجي
24	اخبار الدول وآثار الاول	لأحمد بن يوسف الدمشقي
25	نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب	لأحمد المقري
26	بهجة الناظر	لعبد القادر المشرفي
27	تحفة الزائر	للأمير محمد
28	خلاصة تاريخ العرب (مترجم)	لسيديو
29	نزهة الانظار في عجائب التواريخ والاخبار	لمحمود مقديش
30	فتوح البلدان	لأحمد البلاذري
31	البلدان	لأحمد واضح اليعقوبي
32	معجم البلدان	لياقوت الحموي
33	الاستبصار في عجائب الامصار	
34	تقويم البلدان	لأبي الفداء
35	الرحلة العبدرية	لمحمد العبدري
36	الرحلة العياشية	لأبي سالم العياشي
37	الرحلة الورتلانية	للحسين الورتلاني
38	الاحكام السلطانية	للماوردي
39	تقييد في الانساب	لعبد القادر الراشدي

40	طبقات علماء افريقية	لابي العرب التميمي
41	طبقات علماء افريقية	لمحمد بن الحارث الخشني
42	عنوان الدراية	لابي العباس الغبريني
43	التكملة لكتاب الصلة	لابي عبد الله بن الابار
44	الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب	لابراهيم بن فرحون
45	نيل الابتهاج بتطريز الديباج	لاحمد بابا التنبكتي
46	البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان	لمحمد بن مريم
47	طبقات الشافعية الكبرى	لعبد الوهاب السبكي
48	اخبار العلماء بأخبار الحكماء	للوزير علي القفطي
49	عيون الانباء في طبقات الاطباء	لابن أبي اصيبعة
50	الرسالة القشيرية	لابي القاسم القشيري
51	رسائل أخوان الصفاء	
52	التصوف الاسلامي العربي	لعبد اللطيف الطيباوي
53	شرح مقصورة حازم	للشريف الغرناطي
54	سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر	لعلي بن معصوم
55	شرح قصيدة نفسية الجمان في فتح وهران	لمحمد ابي راس
56	نحلة اللبيب باخبار الرحلة إلى الحبيب	لاحمد بن عمار
57	المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب	لعبد الله البكري
58	العبر وديوان المبتدأ والختر	
59	المؤنس في أخبار افريقية وتونس	لابن ابي دينار القيرواني
60	الترجمان المعرب عن دول المغرب الاقصى	لأبي القاسم الزياني
61	الاسستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى	لاحمد الناصري السلاوي
62	تاريخ دول الإسلام	لزرق الله منقريوس
63	موجز التاريخ العام للجزائر	لعثمان الكعاك

المآخذ الفرنسية

1	Kitab El Adouani (traduction)	Féraud
2	Tlemcen	L'Abbé Bargés
3	Le Djurjura	S.A.Boulifa
4	Guide de Constantine	P. Alquier
5	Les Siècles Obscurs du Maghreb	E. F. Gautier
6	Histoire d'Algérie	S. Gsell – G. Marçais-G Yver
7	Les Arabes en Berberie	G. Marçais
8	Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale	E. Mercier
9	Recherche sur l'origine des peuples	Carette
10	Description générale de l'Afrique	Marmol
11	Traités de Paix concernant les relations avec les Chrétiens	D. Mas. Latrie
12	Catalogue des monnaies Musulmanes	H. Lavoix
13	Histoire de l'afrique septentionale	Par Mercier
14	Les origines berbéres	- Rinn
15	Cirta	- Vars
16	Histoire générale de l'Algérie	- Garrot
17	L'antiquité	- Malet
18	L'algérie dans l'antiquité	- Gsell
19	Campagne de J. César en afrique	- Le Colonel Moinier
20	Le probléme nord-africain	- Peyronnet

الفهرس

الكتاب الأوّل: في تاريخ الجزائر قبل الاستيلاء العربي

الباب الأول: جغرافية الجزائر الطبيعية

الباب الثاني: ذكر قدماء الجزائر أهل العصر الحجري

الباب الثالث: في ذكر البربر

الباب الرابع: في ذكر الفينيقيين

الباب السابع: في ذكرى الوندال ومدل أمرهم

الباب الثامن: في ذكرى دولة الروم

الكتاب الثاني: في العصر العربي

الباب الأول: في غزو العرب لافريقية وتأسيس إمارتهم فيها

الباب الثاني: في الدولة الرستمية

الباب الثالث: في الدولة الإدريسية

الباب الرابع: في الدولة الأغلبية

الباب الخامس: في الدولة العبيدية

الباب السادس: في نزوح الهلاليين إلى المغرب

الكتاب الثالث: في العصر البربري

الباب الأول: في القبائل البربرية الجزائرية

الباب الثاني: في الدولة الحمادية

الباب الثالث: في دولة المرابطين

الباب الرابع: في الدولة الموحدية المومنية

الباب الخامس: في أحوال العرب لعهد الحفصيين والزيانيين والمرينيين

الباب السادس: في الدولة الحفصية

الباب السابع: في دولة بني مرين

الباب الثامن: في دولة بني زيان



كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث هو أول كتاب صدر في هذا الموضوع، يتناول التاريخ الجزائري من منظور وطني، علما بأن الجزء الأول منه طبع طبعة أولى عام 1928، وهو الجزء الذي يتناول تاريخ الجزائر قبل الإسلام.

ويتأكد النفس الوطني في هذا الكتاب عندما يتناول قصة الكاهنة، فيعتبرها بطلة وطنية، رغم أنها حاربت المسلمين.

لهذا كتب له ابن باديس رسالة بعد اطلاعه على الجزء الأول يقول فيها:

أخي مبارك!

سلام ورحمة، حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، وقفت على الجزء الأول من كتابك "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" فقلت لو سميته "حياة الجزائر" لكان بذلك خليقا. فهو أول كتاب صور الجزائر في لغة كالضاد صورة تامة سوية، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهناك. وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر، تحفظ اسمك تاجا لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين.

أخي مبارك!

إذا كان من أحيا نفسا واحدة فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف من أحيا أمة كاملة؟ أحيا ماضيها وحاضرها، وحياتهما عند أبنائها حياة مستقبلها. فليس - والله - كفاء عملك أن تشكرك الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال. وإذا كان هذا في والجيل المعاصر قليلا، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيرا. وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وأنا - واحد من هذا الجيل - بلسان من يشعرون شعوري، أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا لأقابل ما لك من حق.

جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وانصاف.

والسلام عليك من أخيك عبد الحميد بن باديس.

وقد حرص الشيخ مبارك على إثبات هذه الرسالة في الجزء [illegible] لأنه يعتبر ابن باديس عظيما من عظماء الجزائر جدير بأن يثبت [illegible] الذي نتيجة من "نتائج حياة عظماء الأمتين العربية والبربرية [illegible] مبارك نفسه.

هو الشيخ مبارك بن محمد ابراهيمي الميلي من مواليد قرية الرمامن الموجودة بجبال الميلية (بناحية سطارة) في الشرق الجزائري دعي بالميلي نسبة إلى مدينة الميلية، ولد بتاريخ 26 ماي 1898م وهناك من يقول سنة 1896م الموافق لسنة 1316هـ. توفي أبوه وعمره أربع سنين كفله جده ثم عمّاه.

بدأ تعليمه بجامع سيدي عزوز بأولاد مبارك بالميلية تحت رعاية الشيخ أحمد بن الطاهر مزهود حتى أتم حفظ القرآن.

لقد أنهكه مرض السكري منذ سنة 1933م، وعالجه مرات عدة. واشتد عليه بعد وفاة شيخه العلامة ابن باديس، فتدهورت حالته الصحية إلى أن وافاه الأجل يوم 1945/02/09م.

وشيعت جنازته في موكب مهيب يتقدمهم رئيس جمعية العلماء بعد ابن باديس، الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي.


ISBN : 9947 833 070
9789947833070



